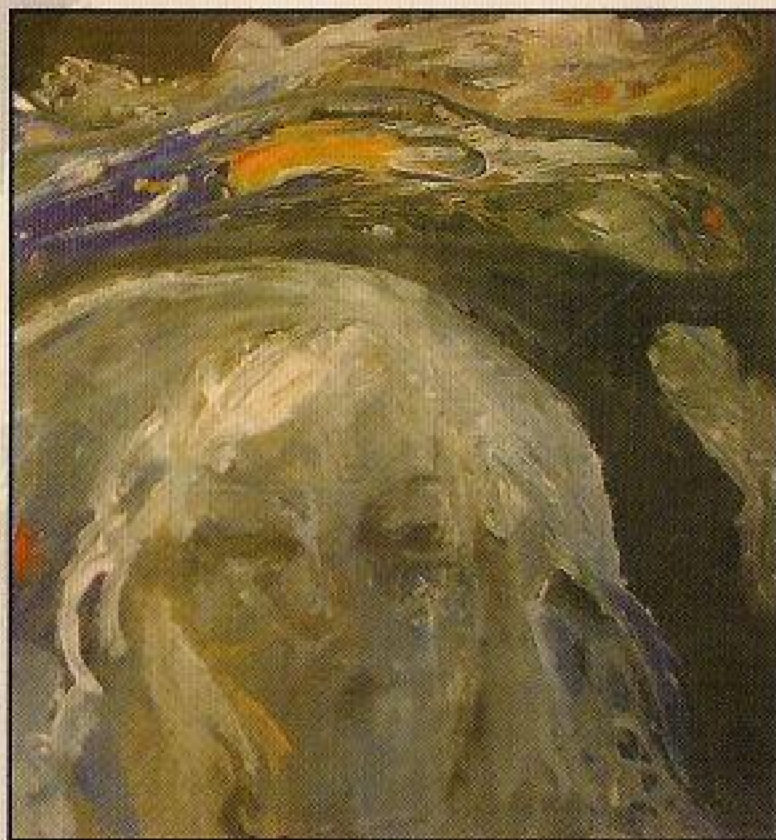
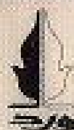
واسيني الأعرج

طوق الياسمين

رسالة في الصّبابة والعشق المستحيل

رواية





واسيني الأعرج

طوق الياسمين

رسالة في الصبابة والعشق المستحيل

رواية

* واسيني الأعرج
* طوق الياسمين
* جميع الحقوق محفوظة
* الطبعة الثانية 2006
* موافقة وزارة الإعلام رقم 91827
* الناشـــــــر : ورد للطباعة والنشر والتوزيع
سورية ـ دمشق ☎ 5141441
* الإشـــــراف الفني : د. مجد حيدر
* التـــــــــوزيع : دار ورد ☎ 5141441 ص. ب 30249

واسيني الأعرج. مواليد 1954 بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. يعتبر أحد أهمّ الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لا تستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

إن قوة واسيني التجريبية التجديدية تجلت أكثر في روايته الكبيرة، المبرمجة اليوم في العديد من الجامعات العالمية، الليلة السابعة بعد الألف بجزأيها: رمل الماية والمخطوطة الشرقية، التي حاور فيها ألف ليلة وليلة لا من موقع ترديد التاريخ ولكن من هاجس الرغبة في استرداد التقاليد السردية الضائعة.

ـ في سنة 1997 اختيرت روايته حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر) ضمن أفضل خمس روايات جزائرية صدرت بفرنسا.

ـ تحصل في سنة 2001 على جائزة الرواية الجزائرية.

ـ اختير في سنة 2005 كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث في إطار جائزة قطر العالمية للرواية.

ـ تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية والإسبانية.

إلى

زينب، صديقتي الغالية

شكرا لك فقد منحني حبك وصبرك فرصة أخرى لأن أكون كما أشتهي، في أصعب الظروف وأحلكها، وأنظر بعين أخرى للجنون والأقدار الصعبة التي كادت أن تعصف بنا في الصيفين الهمجيين من سنتي 1984 و1994 حين تواطأ ضدنا الله والقتلة والمأزومون.

وإلى

صديقي الحاضر دوما: عيد عشاب

الذي انسحب بصمت من الدنيا مثلما جاءها بعد أن فتح لي باب الياسمين وكشف لي أنواره وأسراره. عاش ما كسب، مات ما خلى. عشتَ وحيدا يا صديقي ومتَّ وحيدا بعد أن نسيك بسرعة الذين عرفوك وخدمتهم بطيبتك المعهودة وتفانيك.

لَوْ أنَّ الدّنيا مَمَرٌّ ومِحنةٌ وكَدَرٌ، والجنةُ دارُ جزاءٍ وأمانٍ مِنَ المَكارِهِ، لَقُلنا إنَّ وَصْلَ المحبوبِ هو الصفاءُ الذي لا كُدَرَ فيه.

طوق الحمامة: ابن حزم الأندلسي

Chuuuut.
Silence, ou il va s'envoler.
La brutalité l'éffraye.
Approchons ses soupirs d'un souffle léger.
Ne le reveillez pas,
Laissez-le au moins rêver.

L. Ryma.[1]

---

(1) ششششت.
بهدوء وإلا سيطير،
الخشونة ترعبه.
فلنحاذي آلامه، بأنفاس ناعمة،
لا توقظوه، اتركوه على الأقل يحلم.

سيلفيا؟

هي هي لم تتغير كثيرا. كانت هناك واقفة على القبور المنسية، مختبئة في المانطو الداكن الفضفاض وعلى رأسها قبعتها السوداء وشاشا خفيفا كان يغطي وجهها بالكامل، مثلما تعودت أن تفعل كل يوم جمعة منذ قرابة العشرين سنة. لم تكن هناك من أجلي ولكنها كانت تنتظرني. جورج أخوها، عندما سألته عنها البارحة، أخبرني بطقسها الأسبوعي وأخبرها بوجودي في هذه المدينة التي شهدت انطفاء الذين نحبهم ونصر على أن لا ننساهم رغم العزاءات الفاشلة ورغم غوايات الدنيا.

مريم؟

بقايا الأبجدية المستحيلة، هل تدرين؟

بعد عشرين سنة لم أفعل شيئاً مهما سوى البحث عنك. أعود إلى هذه المقبرة التي صارت اليوم وسط المدينة بعد امتداد العمران بشكل جنوني إليها، أقف على هذه الشاهدة الصغيرة التي كتب عليها كما اشتهيت في وصيتك:

ضيقة هي الدنيا. ضيقة مراكبنا، للبحر وحده سنقول، كم كنا غرباء في أعراس المدينة. تمنيت أن أعيش طويلا لأحبك أكثر ولكن الأقدار منحتني فرصة الشهادة قبلك لتكون أنت المطالب بحبي وبتحمل غيابي.

سيلفيا لم تتحرك. كانت مثل التمثال. تقف بدورها في مواجهة شاهدة عيد عشاب التي كتب عليها الاسم واللقب وتاريخ الوفاة وهذه الجملة بخط بارز:

عاش ما كسب، مات ما خلى

كل صباح يوم جمعة تأتي سيلفيا إلى هذا المكان بعد أن تترك كل شيء وراءها، ابنيها وأمها المقعدة، تقف قليلا على قبر مريم وسارة الذي زينته بالنرجس وشجيرات الياسمين، لتقضي بعد ذلك بقية وقت الزيارة وهي تدور حول قبر عيد عشاب الذي ينام وسط محيط صغير يملأه نوار الدفلى الأحمر والأبيض والبنفسجي، وتنظفه مع حارس المقبرة من الأعشاب الضارة. القبور أيضا تموت بالنسيان. وتمضي صبيحة يوم الأحد على قبر والدها تقوم بنفس الشيء.

هذا الصباح جاءت قبل الوقت المعتاد بقليل. قامت بطقوسها لتقف أخيراً عند قبر عيد عشاب. اللباس الأسود أعطى لبياض بشرتها حضورا كبيرا. السنوات لم تفعل الشيء الكثير فيها على الرغم من أن الدنيا تغيرت كثيرا.

لم تندهش عندما وضعت مذكرات عيد عشاب بين يديها. قبلتها مثل الذي يلثم كتابا مقدسا ثم وضعتها على صدرها وضمتها بقوة.

قلتُ:

ـ أنتِ أولى بها مني. ضعيها في عينيك.

تمتمتْ:

ـ تأخرتَ؟ لماذا تأخرتَ كل هذا الوقت؟ كنت أعرف أنك ستأتي يوما وستمنحني هذه السعادة الكبيرة. منذ عشرين سنة وأنا آتي إلى مدن الأموات، أعاتب والدي يوم الأحد، في المقبرة المسيحية، على حماقاته القاتلة، ويوم الجمعة أبكي قليلا على سارة التي لم تر شيئاً من الدنيا سوى أمها، فقد كانت الوحيدة التي تعرف سر أنينها ثم

أقف على مريم التي خادعتنا وذهبت بسرعة وتركنا مذهولين. قبل أن أنزلق نحو قبر عيد عشاب لأقضي بقية الصبيحة بجواره، أزيل عنه برودة العزلة وظلم الآخرين. أتساءل اليوم، ما الذي يجمع بين عيد وبين والدي في العالم الآخر؟ هل يلتقيان بعد أن احتضنتهما نفس التربة التي رفضاها في الحياة؟ هل يتكلمان مع بعض؟ ماذا يقولان؟ أعرف أن قلب عيد هش ويمكن أن يتسامح ولكني أعرف أيضا أن والدي صعب جداً وقاس ولكنه لا يستطيع أن يشيح بوجهه مدة عشرين سنة وأكثر.

نظرتْ سيلفيا قليلا إلى المذكرات. فتحتها بعفوية في آخر صفحة متجاوزة كل البياضات. تحسستِ الكلمات كمن يلمس أجنحة وألوان فراشة يخاف عليها من التلاشي والاندثار. لا أدري لماذا نذهب دائماً نحو آخر الصفحات عندما يتعلق الأمر بأشواقنا وأحزاننا التي نكتبها؟ ربما لمباغتة الأقدار التي لا تمنحنا دائماً وقتا كافيا لإتمام رحلتنا في الحياة كما نشتهي.

قرأتْ وهي تحاول أن تلمس بعينين دافئتين ما يختبئ بين الحروف المتزاحمة:

«*باب اليأس*: حبيبتي سيلفيا... من أين أبدأ هذا الألم وهذا الحزن الذي صار مثل الفيض يملأني ويقودني نحو يأسي الكبير؟ كل أصدقائي انسحبوا من هذه المدينة وبقيت وحدي. البارحة رأيت حلما أخرجني من وضع وأدخلني في وضع آخر. رأيت سيدي الأعظم محي الدين ابن عربي مرتديا لباسا خيوطه من الحرير الأبيض والفضة. في يده اليمنى عصى من قصب البانبو، يتكئ عليها كلما شعر بالتعب. طلب مني أن أتبعه نحو «*طوق الياسمين*» أو الباب كما يسميه البعض. كنت أعرف أنه يقودني نحو الموت ولكني لم أتردد لحظة واحدة. كانت رائحة الياسمين والنباتات الاستوائية قوية. فجأة قام من قدام أرجلنا سرب من الطيور الملونة والفراشات، عرفت أننا صرنا قريبين من المصبات المائية. مشينا قليلا وإذ بالماء ينهض أمامنا مثل الشلالات. سألت عن الدليل، قال لي سيدي

الأعظم وهو يضع يده الزكية على فمي: ششششتتت، لقد مات منذ أكثر من قرن. جئت لآخذك معي فأنا أعرف باب العبور نحو النور جيدا. سألته، وكيف ستفعل يا سيدي وأنت لا تملك عوامة ثم أن هذا النور يخيفني يا سيدي الأعظم. قال مرة أخرى وهو يضع أصابعه على فمي: شششتتت... النور نعمة. ثم أخذني من يدي. شد علي جيداً وبدأ يمشي على الماء كمن يمشي على اليابسة، وسط الضباب والأنوار التي عمتني ولم أعد أرى شيئاً. شعرت بالخوف: أنا خائف يا سيدي. الغشاوة أعمتني. ولكنه طمأنني بأننا بدأنا نقطع باب العبور نحو اللامكان. ثم فجأة سمعت عواء مخيفاً آتياً من هضبات الزبداني الخالية، فقلت: يا سيدي الأعظم، الذئاب. أخشى يا مولاي أن يكون اللامكان كذلك مليئا بالذئاب؟ نظر إلى وجهي بملامح غريبة تحولت فجأة لتصير كالحة ومكفهرة. شعرت بالظلام يملأ عينيه، ثم سحب يده من كفي وتركني أغرق وهو يتشفى فيَّ: الآن عم بحرك. جئتُ لأفك وثاقك وأنقذك ولكن خوفك حرك حتى الذئاب التي ماتت منذ قرون. إذهب فأنت الطليق وعم بحرك. فقلت: لا أعرف العوم. قال: إذن أغلق عينيك وفمك وسد أذنيك وأترك نفسك تتهاوى نحو القاع، فهناك من ينتظرك لتصير طعما له. زاد خوفي. عرفت أن سيدي كان يدعوني نحو المقاومة وعدم الاستسلام أمام المصاعب، فحاولت ولكن قواي الداخلية وقناعاتي كانت ضعيفة جداً ومهتزة. وعندما سدت المياه فمي، استيقظت فجأة وأنا أرتعش طالبا العذر من سيدي الأعظم.

أرأيتِ يا سيلفيا؟ سهام ماتت في الوقت الذي كان ينتظر الأصدقاء مناقشتها لموضوع العمر التي قضت فيه زهرة شبابها ولم يسمع أحد في هذا القفر أنينها غيري. أبوك أقسم أن لا تلمس جسدك يد مسلم وهو لا يعرف أن لا سلطان على الجسد أبداً. أصدقائي ذهبوا أو يستعدون للعودة إلى أرضهم الأولى. حتى سيدي الأعظم تخلى عني؟ لم يبق لي أحد. لا ذنب لك ولا ذنب لي أيضا في كل ما حصل ويحصل لنا، كلانا ضحية كيانات مفلسة.

أبوك رفض سعادتنا ووالدي رماني في برية كأي حيوان ثم ضاع في قفر الربع الخالي. اليوم وأنا في كامل قواي العقلية، صممت أن أخطو الخطوة الكبرى التي تترتب عنها كسورات كثيرة ولكنها منقذة للروح. أريد اليوم أن أحررك مني لتتمكني من رؤية الدنيا بوضوح أكثر. بدءا من هذه اللحظة قررت أن أتوقف عن كتابة هذه المذكرات القلقة وأن أذهب إلى أبعد نقطة ممكنة في الكون. تعبت من اللاجدوى ولم يبق لي ما أقوله لحياة قلقة لم تعد تأبه بي كثيرا ولا تسمعني جيداً ولا تتذكرني إلا بمزيد من الأمراض والمآسي. شكرا لحبك، فقد كان فيه الكثير من نبلك».

من أوراق عيد عشاب

ثم قلبتُ الصفحة. قرأتُ: «*طوق الياسمين*». بحثتُ عبثاً عن النهاية. السبعون صفحة التي تلت هذا العنوان كانت عذراء وفارغة. علا الأوراق نوع من الاصفرار والقدم، كأنها كتبت قبل زمن وإمحت بفعل الوقت والرطوبة والنسيان. أشهد أني منذ أن سلمني عيد عشاب حرائقه، لم أر شيئاً مكتوبا في هذا الباب. المذكرات كانت دائماً على هذه الصورة.

ارتعشت أناملها وكأن ببرودة قاسية دخلتها فجأة. أغمضت عينيها قليلا لمقاومة الدمعات والارتجافات التي ارتسمت في المحجرين. تمتمت بحرقة:

- لماذا لم يكتب شيئاً في باب «*طوق الياسمين*» وهو الذي كان يعرف المكان جيداً ويتمنى أن يموت وهو على العوامة مثلما فعل سيده الأكبر: محي الدين بن عربي عندما سدت الدنيا مغالقها في وجهه؟ عيد ترك هذا الباب أبيض ربما لأن القدر لم يمنحه بعض الوقت للعبور نحو هذا الباب.

- لا أدري. نفس السؤال طرحته على نفسي مرارا ومازلت. صفرة الأوراق توحي بأن شيئاً كُتب وتلف مع الزمن، لأن لون

الأوراق التالية للسبعين صفحة، بيضاء وصافية. ربما كان هذا الباب هو الوحيد الذي لم يستطع فتحه بسبب صعوبته القصوى. لقد دخل كل الأبواب حاملا أشواقه وخفاياه الصغيرة. كان دائماً يقول على لسان معلمه الأعظم وسيده إنه أصعب الأبواب لأنه مثل الطوق، وأكثرها انسدادا، إذ يجد المرء نفسه في دائرة مغلقة إذا لم يكن من العارفين. الباب الذي يأتي بعده النور الذي يعمي الأبصار ويورث الدوخة ويصيب العيون بالغشاوة. باب كل المزالق والمهالك. من الأفضل بالنسبة للذي لا يعرف مسالكه أن يعبر من الطريق العام المخصص للزوار والسواح.

- هذا هو عيد عشاب. عندما يشرب العرق يصير حزينا كالمسيح وصافيا كدمعة وخفيفا كريشة. كم أتمنى لو كان إنسانا تافها أو عاديا لنسيته بسرعة وانصرفت للحياة ولكنه كان شيئاً آخر. لم يشبه أحدا ولم يكن أحد يشبهه. العزاء مع هؤلاء الناس يزداد صعوبة، بل يصير فعلاً مستحيلا. تزوجت، عفوا انتحرت مثلما أراد لي والدي لأن عيد رفض أن يهرب معي خارج المدينة. أحيانا ألومه على تعقله في أكثر المواقع جنوناً وفي أحيان أخرى أعذره. الحب عندما يصير رزينا يصير شبيها بالواجب وكنت أرفض أن يتحكم الواجب في علاقتنا.

- لهذا لم يعد من حقي اليوم الاحتفاظ بهذه المذكرات. من كثرة قراءتها، حفظتها حتى سجنتني كلماتها. فقد ظل عيد عشاب يحبك حتى لحظة انسحابه اليائس من الدنيا. تكفيني اليوم رسائل مريم. فهي حمل ثقيل، من الصعب علي تحمله.

- عشرون سنة وأنا أقاوم عبثاً شططه وها أنت اليوم تضيف إلى شقائي حزناً آخر. هو على الأقل ذهب وارتاح. ربما... كم أشتهي أن أنساه لأتفرغ لأبني وأمي وزوجي ولكني مريضة به ويبدو أني سأنقله معي إلى القبر بعد أن سحبته ورائي إلى أكثر الأماكن حميمية.

- محنة العاشق أنه لا ينسى أبدا.

- لا ينسى فقط؟

الضباب يزداد كثافة. الصمت المطلق لولا زخات المطر الذي كان يتسرب بين الأتربة الجافة والنباتات الصغيرة التي كانت تملأ الممرات الخالية من القبور.

لا أحد غيرنا في المقبرة.

عشرون سنة انطفأت. أشياء كثيرة تغيرت. الأرض التي أحببنا صارت مريضة، الناس الذين قاسمونا النور والفراش والحزن تغيروا، منذ ذلك الزمن الذي صار اليوم بعيدا. من مات، مات ومن امتطى الريح أو البحر فعل ذلك بدون تردد وبقينا نحن هنا، بالضبط كما تُركنا للمرة الأخيرة، على حافة هذا البحر المنسي، نحسب السنوات والوجوه والصور التي مرت بكثير من الحزن والصبر.

شاق هو الفراق الأبدي ومع ذلك علينا أن نتدرب على النسيان لنستطيع العيش. لم يبق من الوقت الكثير، يجب أن نفترق وأن نمحو من الذاكرة أنَّا التقينا ذات ليلة باردة.

بعد كل هذه السنوات القلقة، المتواطئة ضدنا وضد الحياة، سيأخذ كل واحد طريقه وسيمتطي كل منا، في هذا الزمن الموحش، موجته التي ستقوده نحو قدره لمواجهة عزلته وخوفه وربما موته، وحيدا مثلما جاء لأول مرة إلى هذه الدنيا.

شكرا على صبرك يا مريم. سأرحل. أنا كذلك تعبت. أعرف أن الموت لا يتيح فرصا كبيرة للندم ولا للحزن، ومع ذلك أقول لك عذرا.

عذرا، فقد تركتك تموتين ولم أعرف كيف أحبك.

تركتك تموتين ولم أعرف كيف أحبك.

تركتك تموتين ولم أعرف...

الفصل الأول

سحر الحكاية

1

كيف أحبك؟...

لا أعرف. انغلقت إرادتي وتعمق الزمن الموحش فيَّ وانفتحت كل حواسي على البياض.

لقد تواطأ البرد والوحدة على هذه المقبرة فزادت توحشا. الشتاء قاس، ونسيت أن كل شيء يتغير في هذه المدينة إلا فصولها، فهي تظل ثابتة. أدخل رأسي داخل المعطف الخشن وأفرك يدي مثل الذي انتصر أخيرا على قسوة الزمن حتى أشعر ببعض الحرارة:

ها أنذا اليوم أسلك المعابر الأكثر حزناً وعزلة وأسألك مريم، كما وعدتك قبل عشرين سنة وقبل أن أعود إلى أرضي وأترك هذه المدينة نهائيا: هل أنت سعيدة؟ *هل تشعرين بالبرودة التي كانت تخيفك وتخيف أمك؟*

أدرك اليوم وأنا أبحث عن أقرب السبل لعزائي، أن قصتنا لم تكن أبداً ككل القصص.

Tout simplement un grand gachi, une grande amertume et un goût d'inachevé. Dommage pour une si belle histoire.[2]

من أين يأتي هذا الصوت الصافي مثل شعاع شمس صباحية؟ مريم؟ لا. لقد انتهى كل شيء. مريم انسحبت بدون ضجيج كبير.

(2) بكل بساطة، خسارة كبيرة ومرارة ما تزال عالقة في الحلق. قصة جميلة مثل هذه تضيع؟ مؤسف.

اختارت مشفى الرازي وسارة وأكثر الأيام مطرا وبرودة وخرجت بدون أن تقول لأحد كلماتها المعتادة: تصبحون على خير يا أهل الخير، غدا يوم آخر.

انطفأت في تلك الليلة الباردة كما تنطفئ النجمة الهاربة في سماء جافة وانحدرت نحو فراغات السواد ثم سدت وراءها كل أبواب السماء ولم تلتفت وراءها. مريم لا تحب الحلول الوسطى، إما الحب بجنون أو الموت بدون تردد. أتساءل أحيانا لماذا نحن في هذه البلاد بكل هذا القدر من المبالغة في كل شيء. لا يمكن أن نرتاح إلا عندما نصل إلى النقطة العالية التي يتساوى فيها الحب بالكراهية؟

في مثل هذه المدينة، في مثل هذا الشهر الشتوي البارد وفي مثل هذا اليوم، انطفأت مريم وهي تعطي الحياة لكائن لم تبق معه إلا دقائق معدودات، رأته ثم تمتمت، تقول سيلفيا: ياه؟ لو كنتُ هنا لكنتُ أول من يرى سارة. ما عليهش غدوا عندما نستيقظ أتمنى أن تكون أنت أول من تراه سارة. الوجه الأول حاسم في حياة الطفل. تأملتْها قليلا ثم أغمضت عينيها ونامت بهدوء لم يستطع أحد إيقاظها بعد ذلك وكأنها فجأة أصيبت بتخمة حب من محيطها القاسي.

«أستطيع اليوم أن أموت بدون خوف».

جملتك الدائمة. خلتك تتمتمين وأنتِ تودعين آخر خيط شمس بارد انكسر من وراء زجاج قاعة التوليد في مستشفى الرازي أو وأنت ترتاحين قليلا من شطط الكتابة، القلم في فمك ونظراتك تحوم بعيدا خارج القاعة التي لا يورث بياضها إلا المزيد من الوحشة، تفكرين في الجمل التي لم يمنحك القدر وقتا كافيا لإخراجها من العمق. يأتيني صوتك من بعيد محملا بالعطر الذي كنت تضعينه لآخر مرة وأنت تغادرينني في حي سوق ساروجا الشعبي، وبإيقاعات *رافي شنكار Ravi Shankar والشيخ العفريت*، التي كنتِ كلما سمعتِها تأخذك بعيدا نحو بحر لم يعد اليوم إلا سحابة صغيرة لا ماء فيها؟

صباح الخير يا مريم. صباح الخير يا روحي.

تضعين رأسك بين يديك... صباح الخير... ياه؟ من أين يأتي كل هذا الوجع هكذا دفعة واحدة؟ من الصعب علي أن أتحمل كل هذه الصدف القاسية لوحدي.

أرجوك يكفيك من هذه الكآبة. الصمت قاس ومؤذ يا سيدة النور والفجيعة. قومي، البحر اليوم فتح أشرعته. سان جون بيرس الذي سلب عقلك وهبّلني معك، كان مخطئا. المراكب ليست ضيقة والقلوب لم تفقد اتساعها والمحيطات لم تجف والبحر لم يرحل والأمواج ما تزال هنا، تنتظر مرور الغرباء والمحزونين. أراكِ الآن بكل طولك وأنت تقفين وسط الصالون مثل الممثلة التي تؤدي مقطعا حاسما من مسرحية كلاسيكية، بين يديك ديوان سان جون بيرس، تتلقفين الكلمات من فمه كعصفورة:

ضيقة هي المراكب.

ضيق سريرنا.

البحر وحده سنقول:

كم كنا غرباء في أعراس المدينة.

ـ يا الله من أين يأتي هذا الرجل بكل هذا السحر. تعرف وصيتي عندما أموت ما هي؟

ـ يزي من التمسخير. عقلية مكرفسة. فكري في الحياة أولا قبل الذهاب نحو الموت.

ـ وحياتك أنا جادة.

ـ ومتى كنت غير جادة عندما يتعلق الأمر بالحديث عن الشعر والموت وسان جون بيرس؟ كأنك تريدين استباق الزمن.

ـ بالفعل أنا جادة. أتمنى أن توضع على قبري هذه الأبيات.

لقد لامس عمق الأشياء الدقيقة فيّ برؤوس أنامله وكلماته الدافئة مثل نور شمعة معزولة في عمق الصحاري.

- إن شاء الله.

أقولها للخروج من المأتم وحالة الموت. لم أكن أعرف أن يدا خشنة كانت تخط على بياض الغيم أقوالي لتشهدني على تواطئي مع الأقدار القاسية. ثم... لا تتوقف. تواصل فلي الكتاب حرفا حرفا وكلمة كلمة بحثا عن أجمل الهزات والرعشات التي تخلفها الأشياء الجميلة. عن أسئلة البدايات التي كانت تشغل أشواق عيد عشاب وتؤرقه.

«*باب البدايات*: أصعب الأشياء في الحياة هي البدايات. عليها تترتب كل الحماقات اللاحقة. لأول مرة أنظر إلى الشمس في هذه المدينة بعينين مفتوحتين عن آخرهما فلم أر لا أشعة ولا بياضا ولا حتى تلك الانكسارات الملونة التي تعودت رؤيتها كلما واجهت الشمس بعيون عارية ولكني رأيت والدي الذي نسيني في هذا القفر وهو يركض نحو السواد، تاركا وراءه امرأة طيبة، تنتظر يوميا عودته على الحافة الفاصلة في حي الزاوية في مدينة تبسة، بين المقبرة والمدينة، حتى صارت مثل السراب. أعتقد جازما أن الشمس انسحبت وأن كل ما كنت أراه هو مجرد بقايا انكسارات هائلة وشظايا كانت تنطفئ الواحدة تلو الأخرى.

آه يا أبي، ماذا فعلتَ؟».

من أوراق عيد عشاب

2

تباغتني الذاكرة في خلوتي، ضاربة عرض القلب بكل أسراري. غرباء كنا، الوطن في القلب والأحراش والمدن الساحلية والناس الطيبون والأشواق الصغيرة والأسئلة التي ظلت عبثاً تبحث عن أجوبتها المستحيلة.

كنتُ في ذلك الزمن الذي صار اليوم بعيدا، الكاتب العاشق، الغارق في الأبجديات الغامضة. وكنتِ الطفلة المعشوقة التي لم يكفها اتساع القلب لاحتضان الدنيا.

هكذا تقاسمنا الأدوار بعفوية واتفقنا منذ بداية القصة، وهكذا عشنا قبل أن تفرقنا حماقة الكبرياء والأفكار المعطلة ثم.. هذا العبث الأبله والغريب الذي اسمه الموت. هل كان من الضروري أن نفترق لندرك كم كنا في حاجة لأن نبقى قليلا لنقول ما لم نستطع قوله؟ أو ما أخفقنا في قوله؟ هل ما حدث بيننا كان مجرد قصة حب من فرط الفقدان والخوف، صدقنا أنها الحقيقة المطلقة؟ أم خطوة أولى بدل أن تقع على اليابسة ابتلعتها هوة الفراغ؟

«*باب الخطوة الأولى*: أصعب الأشياء لدى الطفل الخطوة الأولى. اليوم قمت بشيء استثنائي. بالضبط، هذه الخطوة الأولى. عرفت اسمها بعد أن استطعت الخروج من مخبئي من وراء البرادي (الستائر) التي تمكنني من رؤية سيلفيا وهي تغير ثيابها الداخلية. كانت الخطوة جبارة. دعوتها للقاء خارج البيت بورقة رميتها من شرفتي نحو شرفتها. كنت خائفا. عندما وصلت، وجدتها هناك. قدمت لي أخاها جورج الذي انسحب بسرعة وتركنا لوحدنا. تكلمنا

في كل شيء ولا شيء. وبعدها ذهبنا لرؤية فلم: Le desert rouge بصالة الكندي. حكت لي كثيرا عن تشدد والدها وعن رغبته في تزويجها مع ابن عمها ولكنها ترفض وتقاوم لأن أخاها جورج يساعدها على تجاوز محنتها. كدت أقول لها أعتبريني أخاك الثاني ولكني صمت وفضلت الاستماع لها لأني كنت في وضعية الله وحده كان يعلم قسوتها. أشعر بالفعل أن تجربة جديدة في حياتي قد بدأت. المرأة التي كنت أظن أنها ستوبخني لاختبائي وراء البرادي لرؤيتها وهي تغير ثيابها، لم تقل شيئا، أكثر من ذلك، فقد حدثتني وكأنها تعرفني منذ زمن بعيد . يبدو لي أني بالفعل أسعد مخلوق في الدنيا».

من أوراق عيد عشاب

هل الإجابة عن الانشغالات القاسية ضرورية؟

اليوم كلما ملأني الشوق إليك، أتساءل بدون أن أستطيع الحصول على إجابة، ربما لأني لا أبحث عنها: لماذا لم تغير عشرون سنة أي شيء في حبي لك؟ كم أتمنى أن أعيش عزائي وأنساك دفعة واحدة ولكنني كلما حاولت أخفقت وازدادت وحدتي التصاقا بك. هل صحيح أن الميت يرتاح عندما يتبعثر نجمه في السماء ويتحول الكل إلى رماد بدون رائحة؟ هل صحيح أن المحب لا ينسى ولكنه يتناسى؟ أخاف أن يكون ما يحدث لي اليوم هو بداية شطط آخر أكثر قسوة من الحياة؟ لا أعرف ولا أدري حقيقة إذا كان يهمني كثيرا أن أعرف. التفاصيل أحيانا مرهقة. ماذا علي أن أعرف أكثر من الفقدان وظلم الحياة القاسية؟ لا أبحث عن الشيء الكثير سوى عن فسحة صغيرة للعزاء ومحاولة النسيان. أحيانا أقول في خاطري وأنا أفتش عن النور المخبأ فيَّ، إن أطرف كذبتين وجدهما الإنسان لمقاومة ظلمة الموت والقبر البارد هما: العزاء والنسيان بينما هما وجهان لعملة واحدة مرتسمة في دمه.

وهل يقدر الإنسان أن ينسى دمه؟

3

Basta! خلاص. الآن سأقول كل شيء.

هكذا إذن، تقتلني بحبك وبصمتك؟

دعني أقول لك أولا وأنت غائب عني هذا المساء في مكان لا أعلمه: كل عام وأنت بخير حبيبي. دمت للفرح والسعادة. اعذرني، أنا دائماً أصل متأخرة عندما يتعلق الأمر بالمواعيد الحاسمة. لم أهدك شيئاً بمناسبة حلول السنة الجديدة. أحسبها علي. حسبي أن أهديك هذه المرة قلبي. قلبي فقط وأشواقي وحنيني الذي لا يموت.

هل تكفي الكلمات؟ أريد أن أمنحك حروفا أكثر دفئا ووضاءة وربما أكثر. لا تغضب من السنوات التي تمر بسرعة. مجرد التفاتة صغيرة للزمن الذي لا يأبه بنا كثيرا.

سنة تنسحب وأخرى تأتي وأنت مازلت هنا، تنظر إلى المبهم وتنتظر عودة أمطار الطفولة كما كنت تقول لي، لتستطيع أن تتم أغنيتك التي بدأتها وتوقفت في منتصفها. لم تنهها لأنك رأيت في ذلك اليوم والدك وهو يغمض عينيه للمرة الأخيرة على الثلوج والبروق محاولا أن يعثر على وجوهكم البعيدة وسط القنوط المعتم وبرودة المنافي. مع بداية كل شتاء تنتظر أمطار الطفولة الأولى لتواصل نشيدك المكسور ولهذا تكره المطريات لأنها تحرمك من متعة الماء والغناء:

يا النو صبي، صبي،

ما تصبيش عليّ،

حتى يجي خويا حمّو،

ويغطيني بالزربية...

تضحك مني؟ اضحك، لن أزعل منك لأنني صممت أن أضع حدا لصمتي. أشتهي اليوم أن أكتب لك لأقول لك بكل بساطة أحبك. نْحَبكْ ونْموتْ عليك يا دينك وأنت لا تعرف شيئاً أو تتعامى عن حرائقي. ارفع رأسك قليلا وتأملني في وجهي مباشرة. هل ترى شيئا؟ كلمة ترقص في عيني منذ زمن بعيد ولم أعد اليوم قادرة على لجمها: أحبك. حروف ليست كبقية الحروف وكأنها ليست من الأبجدية التي نتداولها يوميا آلاف المرات، لا أتجرأ على قولها أمامك ولا أدري إذا كنت أخاف ردة فعلك أم أخافها؟ أحبك ومن بعد واش راح يصير؟ إذا شئت قاسمني هواجسي وإذا لم تشأ لقلبك حريته وراحته ولعمري عزلتها وشططها وحزنها والسلام.

Basta. C'est à dire Basta. Je suis très fatiguée.(3)

منذ زمن وأنا أقاومك ولكن الشتاء يفتح شهيتي للحماقات. كلما عاد، شعرت بنفسي ممتلئة بك ولا أستطيع مقاومة شهوة الكلمات. البرد والأمطار والثلوج والإيقاعات الحزينة تقربنا من بعض لدرجة النسيان والتلاشي. لو تدري كم أحبك وكم أن عودة الشتاء تؤذيني لأني أخاف فقدانك وأسأل نفسي ماذا يحصل لي لو فقدت وجهك وسرق الموت أحدنا؟ في كل مرة أقول ربما كانت هذه آخر الكلمات وو آخر النبضات ومن يدري ربما آخر مرة أهتف فيها باسمك وأقول لك صباح الخير حبيبي. صباح المطر يا شوقي. كل سنة وأنت بخير. وترد أنت علي: صباح المجانين والسعادات التي لا حصر لها. كل سنة وأنت رائعة.

(3) يكفي، يعني يكفي. أنا متعبة.

هكذا نلتقي وهكذا نفترق. أرأيت كيف يختم الشتاء بأصابعه الباردة على كل الأشياء الجميلة؟ هذه السنة لم تكن مثل السنة التي مضت، فقد مرت بسرعة ومليئة بالمفاجآت الكبيرة. سنة واحدة معك، وأقل من ذلك، كانت كافية لأن تدمر كل يقينياتي بالحياة وتدخلني داخل مسالك ومهالك مدهشة لم أتعود عليها. أرأيت كيف تمر الأشياء الجميلة بسرعة غريبة؟ من يصدق أن كل شيء بدأ بسؤال صغير ثم وريقة طائشة حطت بين يديك ثم أوراق ورسائل وكتابات صار من الصعب علي مقاومة اندفاعها في لأصير مثلك في النهاية مريضة بما يمكن أن تمنحه لي الكلمات من سعادة صغيرة حتى ولو كانت مؤقتة. لقد صرت فيَّ وأستطيع أن أشهد أني أحبك أنا التي كانت تظن أنها تهز شهوة الرجال ولا يهزها رجل مهما كان. فكل الرجال كانوا يبدون لي شبيهين بوالدي. أراك باستمرار من وراء حزني وقلقي ووجودك وحده يمنحني قدرا كبيرا من الراحة. ألم تقل لك امرأة قبلي، المؤكد أنك عرفت الكثيرات: إن وجودك وحده يبعث على الراحة والاطمئنان؟ لا تقل العكس، صحيح أني أغار عليك ولكني لست مجنونة لدرجة أن أمنعك من شيء ليس في مقدوري فعله حتى ولو أردت. الغريب، أشعر وأنا أقرأ كتاباتك أن بعض جملك مهداة إلي مع أنك لم تقل لي ذلك أبدا. ماذا تعني بسجني الجديد؟ إن أردت الصراحة، السجن أهون علي من أن أجر إلى ساحة الكوريدا، أمام أعين الأعداء والمهزومين. الدين سجن ولكن نظرة الناس المأزومين سجن من نو ع آخر، ربما كان أكثر قسوة. رسائلك وكلماتك تؤنسني وتبعث في القوة كلما وهنت. أتعرف كم هو مضن أن تعشق امرأة فنانا أو كاتبا مهووسا بالحياة؟ إنها مشقة كبرى. مثل الذي يريد أن يلقي القبض على غيمة تبدو قريبة من يديه وتستحيل عليه كلما مد أصابعه نحوها. أنت قريب مني وفي بعض الأحيان أصير مثل المراهقة، أخرج أبحث عنك في المدينة أو في الجامعة أو في البارات التي عرفك بها صديقك عيد عشاب. أتمنى عندما أتعب أن أفتح عيني وأراك مارا، عابرا مسلكا صغيرا ألاقيك

فيه. وفي أحيان أخرى أتعمد عدم رؤيتك لأتأكد من حبك لي ولكنك كلما التقيت بي أنسيتني زعلي منك وأغفر لك حماقاتك الصغيرة. ألم أقل لك أنك ساحر وتملك ما يعطي للمرأة التي معك اطمئنانا كبيرا وراحة.

Est ce qu'on t'a jamais dit ça? Avec toi on se sent en sécurité. Ce qui rend une femme plus confiante c'est cela. Nos hommes sont en déficite d'amour parce qu'ils ne savent pas rendre visible leur côté intime.(4)

لا أدري الآن الساعة تزحف نحو أي رقم من الأرقام بعدما تخطت الثانية عشرة ليلا فاسحة الطريق نحو سنة جديدة تأتي من بعيد محملة بالأشياء التي لا نعرفها، بعضها يسر وبعضها الآخر يقهرنا ويقتلنا ويعمق عزلتنا. أحاول أن أستحضر وجهك لكي لا أنساك أبدا. وصوتك المنكسر قليلا والحنون.

أين كنت مختبئا عني كل هذا الزمن؟ كنتَ معي؟ لا. كيف إذن كنتُ أراك ولم تكن تراني؟

ستضحك مني كثيرا إذ أبدو لك مراهقة تحاول اقتفاء دقات قلبها خطوة خطوة. ليكن، أنا منذ أن عرفتك لا أندم مطلقا أني مراهقة وعاشقة مودرة. اعتبر رسالتي هذه كما تشتهي، صنفها مع الرسائل الصغيرة الملونة التي تصلك من حين لآخر من امرأة لا تعرفها ولكنها قرأتك وأحبتك في شخصياتك حتى اختلط عليها الأمر هل هي تحب الكاتب أم ما يكتب. كل شيء معك ملتبس. نحب ما تكتب لكننا عندما نراك ونعاشرك ينتقل بسرعة حبنا من شخصياتك إليك. أحرقها إذا شئت. أريد أن أقول لك ما يملأ قلبي، لم أعد قادرة على تحمل ما يملأني. هل هناك فرصة أجمل من السنة الجديدة.

سنة أخرى تأتي وشتاء آخر يقفز أمامنا وكم أتمنى أن أراك تستقبل بقامتك المديدة ولباسك الأبيض الأنيق أمطارك الطفولية التي

(4) هل قال لك أحد مثل هذا الكلام؟ معك يشعر المرء بالأمان. الذي يعمق ثقة المرأة هو هذا الإحساس. رجالنا يعانون نقصا كبيرا في الحب لأنهم لا يعرفون كيف يعبرون عن جزئهم الحميمي.

تشتهيها وتنهي أغنيتك التي بدأتها قبل عشرين سنة وأقف أنا بجانب الحائط العتيق وأتأملك وأنت تنط وتركض مع الأطفال وعلى رأسكم الزربية الحمراء التي تقوي شهية الأمطار.

كم أريد أن أسمعك:

يا النو صبي ما تصببيش علي...

رأسي تؤلمني. ياه... كم أريد أن أسمعك...

حبيبتك التي صممت أن تقهر صمتها وتقول لك: أحبك.

4

لنبدأ من التفاصيل الصغيرة.

في ذلك الزمن البعيد، كانت مريم طفلة تعشق الورود الملونة والوجوه الأليفة، مولعة بحب الألبسة الجميلة وتتمنى أن تخصب ذات فجر لتجد نفسها فجأة تمارس علنا طقوس الأمومة. كانت هكذا أو هكذا شاءت أن تكون. منذ الطفولة الأولى لم تكبر كثيرا.

لنقل مرة أخرى أنها كانت تحب الوديان الواسعة ومدينتها الساحلية التي استباحت ذات مساء متعجرف دمها ودم محبيها. لم تحب من الحياة كثيرا سوى أن تعشق الدروب الضيقة التي تغلق أبوابها مبكرا لتعيش طقوس الفقر في منأى عن نظرات الناس المؤذية.

ـ *حرام! الفقر ليس كفرا ولكنه أسوأ من ذلك.*

حتى جملك الصغيرة مثلك، بسيطة كالماء وملغومة كالحياة، تأخذنا على عكس العادة.

ـ *المؤمن الطيب لا يلدغ من الجحر مرتين ولكن أكثر.*

أبجديتك تشبهك. تسير عكس الرياح.

كانت مريم قبل أن يباغت الخريف أوراقه الصفراء والشتاء وديانه وجباله، تعشق البحر حد الرعشة. عندما كانت صغيرة، أخرجوها منه مرات عديدة نصف ميتة وفي كل مرة تقسم برأس

أمها العزيزة أن لا تعود له ولكنها عندما تواجهه في اليوم الموالي، تنسى كل ما قطعته من عهود وتترك نفسها تنقاد نحو سحره وموجه. وكلما حل الشتاء بحثت بشغف عن محيط المدينة المنسي لتراشق الأطفال بكرات الثلج وعندما تتعب، تدرك فجأة أنها لم تكبر أبداً وأنها بقيت بعد كل هذا الزمن على حافة الطفولة، عبثاً تحاول أن تصير امرأة وعبثا تأخذ الدنيا بجدية.

مساء حين تنام، تتفتح خفية كوردة الصحاري، تحت خيمة الذعر القبلي. وحين تستيقظ على نور آخر نجمة فجرية كانت تتعشقها، تكون مبعثرة الشعر، مفتوحة القلب عن آخره كنبية خرجت من محنة الصلب إلى فضاءات الروح الواسعة.

شعلة من نور كانت، كلما حاولت اليد لمسها، انزلقت بهدوء واستقرت في المكان الذي تشتهيه: *أنا هنا ونبقى هنا واللي* يحبني يجيني. حين تتذكر الأغاني التركية والهندية والعربية القديمة، يتفتت قلبها كالأتربة الصلبة، وتبدأ عيناها الوثنيتان في تمني طفلة مدهشة، بشرائط حمر، وعاشق على صهوة جواد أبيض لا تقهره رياح الصحراء الجافة ولا صمت القفار والخلاء الموحش.

ـ يعيشك أريد أن أسميها سارة أو نجمة. هذه الأسماء تسحرني. ما تقوليش أنك لا تحبها.

ـ ما تزال بعيدة.

ـ لماذا تغلق أبواب الحلم. رحمة ربي واسعة؟

هكذا كانت مريم وهكذا اشتهت أن تكون وسط عالم لم يكن دائماً طيبا معها.

ـ يا يماك واشحال راسك غليظ. ما تسمعي إلا لروحك. الواحد ما يعرفش كفاش يدير معك.

ـ أنا قلتها لك من زمان، أنت تحاول عبثاً أن تحب امرأة

تشبهك. نارسيس. هذه هي أنا، امرأة غير قابلة للقسمة، تؤخذ ككل أو تترك ككل. أنا مثلك لا أشبه إلا لنفسي. ربما كنت غير موجودة أصلا. مجرد شخصية في كتاب أدبي تعشقه، عندما تنتهي من قراءته تقفله وترميه في زاوية وتنساه ولا أحد يعرف أننا كلما أغلقنا كتابا كلما سددنا النوافذ وتركنا عالما بكامله يموت اختناقا.

كنتِ وسط الصمت والارتباكات المتتالية، تنسجين المستحيل وخيوط الموت بهدوء وطمأنينة.

وكنتُ في عنادي، أصنع نهاية مفجعة لأجمل قصة حب، عرفنا كيف نبدأها ولكننا أخفقنا في إتمامها. مشكلة الحب الكبير هو أن أصحابه يبدأون بشكل جميل وينتهون في الفجيعة.

لقد اشتركنا في انتحارنا الجميل وتسابقنا مع أقدارنا لنتأكد من أكثرنا تدميرا لنفسه وللآخر.

الأسئلة؟ دوما الأسئلة ولا شيء غير الأسئلة المستعصية. تعذبني الأسئلة التي تدخلنا وسط دهاليزها وتسد وراءها كل الأبواب والمنافذ. تدورين عينيك الكبيرتين مثل الذي اكتشف الكذبة الجميلة عند الطفل الذي يقف أمامه: *ياه؟ ألم تقل لي إن الحب الكبير تقتله كثرة الأسئلة الصغيرة؟ صحيح أنك لا تؤمن كثيرا بالأسئلة الصغيرة، فكل سؤال يتطلب جوابا هو كبير. أحملك شطط الإخفاق. أنت كذلك تصر على الموت من جهتك بطريقتك الأكثر أناقة والأكثر خبرة؟*

هل نبدأ الحكاية، كما تبدأ أية حكاية لامرأة طيبة عشقت العالم، لكنها اختنقت كعصفورة طوت أجنحتها قسوة الحر وشقاوة اللحظة؟ هل نحكي عن مهرجانات الرقص واللذة المسروقة التي تنخر من الداخل كالداء المزمن؟ عن القهقهات التي تتكسر في منتصف إشراقها كالأنجم الهاربة؟ عن النكت العارية التي كانت تصل أحيانا حد المبالغة؟ عن الأشياء الجميلة التي تأتي وعندما نفتح أعيننا للقبض عليها بعنفوان تكون قد انطفأت بسرعة؟ عن

الرغبة الملحة التي تهزمها العيون الهمجية؟ عنك أنت يا مريم في كل تحولاتك التي لا تستقر على حالة ولا على شكل؟

هل نبدأ قص الحكاية المرتبكة أم نتركها للعشاق المنكسرين مثلنا، الذين نكسوا كل رايات الفرح والسعادات الكبرى، ليتموها أو ليتركوها لخرير الورديان وتناسل أمواج المحيطات لتضع عليها بعضا من ملامسها الدافئة أم نسأل عيد وسيلفيا اللذين ناما هذا المساء على قلق آخر ينضاف إلى بقية الانكسارات؟

«*باب الحيلة:* اليوم نمنا مبكرا أو لنقل دخلنا الفراش قبل أن نأكل ونشرب كأس العرق الأخيرة. كم كنا بحاجة إلى بعض؟ تحايلت كالعادة على صاحبة البيت الحجّي، وأدخلت سيلفيا من جهة الحديقة في لباس شاب يشبه أحد عمال السكك الحديدية بقبعته التي تغطي وجهه. كنا منكسرين. للمرة الألف يكون رد عائلتها قاطعا. لا زواج. أنت مسلم ونحن مسيحيون. ما معنى الرد القاطع؟ السؤال طرحته علي سيلفيا وهي تنام في حجري بحزن كالطفل الصغير وتحاول أن تفهم رد عائلتها الرافض باستثناء جورج. هل هناك شيء قاطع في الحب؟ لا أدري ولكني في كل يوم أزداد كرها للحياة وللأديان مع أن جدي، شيخ الزاوية، الله يرحمه، لم يكن هكذا، وأفكر جديا في اختصار الطريق. سيلفيا قوية. تقول لي إن الحب الكبير يُدافع عنه باستماتة. وأنا هش، عندما تأكلني هموم الدنيا أندفن في كأس عرق وأفكر بسرعة في الغرق وسط بياضه الضبابي».

من أوراق عيد عشاب

أدور... أدور... أدور... كم أشتهي أن تأخذني دوخة الكلمات التي ترميني خارج هذه الأرض القلقة. تدخلني وسط الإغفاءة التي تشبه حالة السكر ليتحرر لساني وجسدي ونظري. سِنَة من النوم فقط لأتمكن من رؤية ما لا يرى. البصر كذلك في حاجة إلى حرية استثنائية ليتمكن من لثم روح الأشياء وإلا سيظل على السطح. أشعر

بنفسي أحيانا، وأنا أستعد للحكاية، مثل الخائف من خديعات النفس التي تقوّله كل خباياه وتكشف مدافن يريد الاحتفاظ بها لنفسه. وفي أحيان أخرى أراني مثل فراشة مسكونة بالنور ولكنها كلما اقتربت من النار، زاد يقينها أنها هالكة لا محالة.

أدور... أدور وأبحث عنك في في مدارات الدوخة الكبيرة والحكاية وأخاف أن لا أجدك. المسالك صعبة والعمر لا يرحم. يركض بخطى مجنونة نحو النهاية وكلما ظننا أننا مددناه، اكتشفنا فجأة أننا منحناه جزءا آخر من حياتنا كنا نحتفظ به لتمطيط اللحظات الأخيرة التي نشتاق فيها لثانية واحدة نلثم فيها من نحب.

أدور... أدور... وأنتِ مثل النور، تنزلقين من بين أصابع اليد. كيف أقبض على النور؟ أخاف أن تكوني قد اندثرت مثلما يفعل الجسد بنا عادة حينما يتركنا في منتصف الحياة. لا يقبل بالحلول الوسطى. عندما يستسلم للتربة، يمنح نفسه لها كلية وبدون سؤال ولا تردد.

أدور... أدور... أتهاوى مثل النخلة. تأخذني الإغفاءة الشبيهة بإغفاءة الموت، أبحث عنك وأفتح هذه المرة باب الحكاية على مصراعيه وأرابط في كل الزوايا المظللة لأراك بدون أن تريني وأتتبع كل حركاتك، الصغيرة منها والكبيرة.

5

أراك الآن كما أراني أنا، وإذ أرى أنا أراك.

ـ هذا حلول. يا صاحبي هذه فلسفة وعرة علي، ما نفهمهاش. هذا كثير علي. أريدك أن تكون مثلي، إذا خانتك شجاعة الكلام، وتكتب لي رسالة وتقول لي فقط: أحبك.

ـ أحبك وأراك الآن كما أراني أنا، وإذ أرى أنا أراك. سمعته أول مرة من فم عيد عشاب وكان منطفئا. كلما شرب العرق ونبيذ الجزائر لا يتذكر أحدا إلا جده، شيخ حي الزاوية وابن عربي ومأساة الحلاج وسيلفيا وبؤس الأديان.

لا أدري من صاحب هذا الكلام الجميل في الأصل، ولكني أحفظه بدقة كبيرة وأستعيده كلما اشتعل القلب وارتبكت الذاكرة ووجدت نفسي أمامك أبحث عن أجمل الكلمات أضعها بين يديك وأحذرك: خذي بالك، الكلمات مثل الضوء والماء، تنزلق من بين الأصابع وإذا خرجت يصبح من الصعب تجميعها.

أمطار نهايات الخريف وهذا الشتاء تذكرني بك. أراك كما تعودت دائماً أن أراك في مثل هذا الموسم بضفيرتيك المنكسرتين على صدرك وابتسامتك الساخرة ولباسك البنفسجي الفضفاض الذي تشتهين ارتداءه لأنه كان يقوي لديك شهوة الأمومة، والكوفية الفلسطينية التي لا تغادر عنقك وأنت تقولين: *ليس لباسا فقط ولكن فلسطين حتى وهي بعيدة، تمنحنا الكثير من الدفء*. في قلبك دوما

مخاطرات ماسة التي عندما أحبت رجلا تعرت عن آخرها ولبست وطنا بكامله.

ها أنت تعودين شيئاً فشيئا مثل الماء الصافي، وتقتحمين القلب والذاكرة بدون استئذان ولا أسئلة معقدة. الحب الكبير تقتله الأسئلة الكثيرة. ومعك تعود طفولتك الأولى التي التصقت بك بقوة ولم تفارقك حتى وأنتِ تواجهين الموت.

إني أسمع صوتك يأتي منكسرا، مبحوحا، بين الموجات التي تلبس جسدي. صوتك، كل صباح يروي تفاصيله التي لم تتح له الدنيا فرصا كبيرة لقولها.

أنغص عليك متعة الصمت والعزلة الصوفية:

ـ تكلمي.

ـ ألم تقل إن كثرة الأسئلة تقتل الحب الكبير.

ـ أنا لا أسأل. أنا مشتاق لصوتك. أريد أن أسمعك. قولي أي كلام ولكن لا تصمتي.

ـ ياه كم أنت صادي؟ تريدني أن أعود إلى صوت أمي وأبي؟ أنا تكلمت كثيرا في تلك الرسالة الطائشة. عندما كنت تحتفل بالسنة الجديدة مع أصدقائك، كنتُ أنا أكلم البياض وأصرخ بأعلى صوتي لمواجهة ترددي وخوفي: Basta، Basta. وتقول لي اليوم تكلمي؟ هل هناك أقوى من الصراخ؟

ـ ومع ذلك، صمتك يخيفني. لا أدري لماذا ينتابني هذا الإحساس الغريب؟ الصمت يجعلنا قريبين جداً من الموت.

ـ لماذا كلما تعلق الأمر بنا، كان الموت ثالثنا؟ حبيبي لن أموت بهذه السهولة. سأبقى معك حتى تملني. حتى تكرهني.

ـ أنا أكرهك؟؟؟ مجنونة أنتِ وإلا واش؟

ـ أنا التي أسألك إذن؟ لماذا لم تأتيني وتأخذ يدي وتقول لي

حبيبتي أحبك. هل تسمحين بهذه الرقصة؟ لن أتكلم وقتها ولكني كنت سأقوم من مكاني وألتصق بجسدك، مثلما يقع في الأفلام وأنام؟ تضحك الآن لأنك عرفت مخابئ قلبي. كم أشتهي أن أعريك حتى أصل إلى أصغر نقطة فيك وأصرخ في وجهها: Basta، يرحم والديك تكلمي وعفيني.

يأتيني صوتك دافئا مثل هذه الأشعة التي تخترق بصعوبة كبيرة، الغيوم المثقلة. يأتيني غامضا ثم شيئاً فشيئا يتضح أكثر. أغمض عيني فيملأني عن آخري. ياه... كم أنت قريبة؟!و أمد يدي. أنت هنا. تعبرين هذا المسلك الصغير قبل أن تصلي.

هنا فقط. أمد يدي مرة أخرى. ألمسك كالشعاع.

6

حبيبي الغالي

أرجوك، لا تتعب نفسك إلا بالقدر الذي يجعلنا قريبين أكثر. صحتك تهمني كثيرا، وأنا امرأة لا تطاق، أعرف نفسي جيداً ولكني أحبك. كم تريدني أن أتكلم وكم أريد أن أصمت وأن أعيش في هذا الداخل الذي يضحك ظاهرا ولكن الحياة لم تمنحه حظا كبيرا؟ ماذا أقول لقلبك الحزين؟ أحبك؟ كلمة لا تكفي لتكنس هذه الغربة الشاقة التي تملأني. سعيدة؟ لأني هذه المرة سلكت المنعطف الذي كان يجب أن أسلكه لتتيح لي الدنيا فرصة لقائك؟ كلمة أخرى لا تكفي لتغطي فرحي وأشواقي.

تتسلل الأصابع إلى الصدر وتتحسس القلب الذي لم يعد يأبه كثيرا للموت، ياه! ها أنت مازلتَ هنا كما تركتك للمرة الأخيرة مثل اللوحة النادرة. لا شيء فيك تغير أبدا. مازلتَ بقسمات وجهك الصبوح وجمالك الهادئ وأنفك الصغير الشامخ. وعينيك الحالمتين. سنوات مرت ولا شيء تغير. الوقت مسافة تموت والذكريات حنين يتفجر، يرهق النفس ويرعش القلب. ها هو الزمن الذي انتظرته يجيء في وقت ترحل فيه أنت. كم أريدك أن تبقى ههنا ولكنت انتعلت الريح كشاعرك المجنون رامبو وغادرت المكان. هل كان من الضروري أن تتركني في ذلك المنعطف المقفر؟ ألم يكن بإمكانك أن تردني عن غيي؟

أمي وجهها يملأني. أمي كم أنت بعيدة وأنت تذهبين إلى الأبد

بدون أن يودعك أحد، وكم أنت قريبة وأنت تنتبذين مكانا صغيرا بجانب الولي الأندلسي سيدي عبد المؤمن بو قبرين لتلديني فيه وتزغردين بأعلى صوتك: يا سيدي العالي سأسميها باسم المرأة التي نذرت عمرها لك وخدمت مقامك حتى الموت، لالة مريم! ولكنك هنا مثل نهار البارح فقط. تعدين السنوات على أصابع اليد. غدا تتخرجين يا ابنتي، كانت تقول كلما ألمت بها الأحزان واليأس. واتسعت ابتسامة عينيك. رحلة شاقة مع العذاب وانتظار دائم. ياه يامريم كم كبرت بسرعة؟ لقد صرت امرأة على عكس أخواتك الست. أركض وراء الأشياء الجميلة لكن الأشياء الجميلة لا تأتي إلا بشق الأنفس. كان أبي في خلاف دائم مع أمي. يرفض أي تغير وكانت أمي مليئة بالحياة وحريصة حتى الموت على الحفاظ على كل شيء على وضعه الأول. حصار من العزلة ضربه على الأبناء. كان أبي بطريركا متخلفا. سلطانه المفقود في الخارج، لا يجده إلا في البيت المستسلم لنزواته. الأم والبنات تحت قدميه وشقاوته. كنا نعاني من مرارة مقته لكل شيء، حتى لنفسه. لم يكن يحب تعليمنا. لم يكن يتوقف عن ترديد جمله التي لم تعد تثر أي واحد في البيت من فرط التكرار. سبع بنات، سبع فضائح، علي أن أحرسها كالمعتوه، في كل ثانية وكل دقيقة. يكفي البنت القراءة والكتابة. لن ألتزم بأية نفقات. عوموا بحركم، لقد تعبت من الخدمة في الفراغ. بنات مآلهن بيت ورجل يعلمهن الدروس اللواتي نسينها. هكذا كان يردد. كلما وصلت إحدانا إلى السادسة كان عليها أن تخوض حرب الجنون لتثبت ذاتها. كانت أمي تغضب من تزمته وشكوكه وظلامه. كان والدي الذي أشك في أن الله سيسامحه لما فعله فينا، عندما يلتهب غضبا كبرميل نفط، يقاطع الكل لمدة أسبوع ويتحول البيت بكله إلى معتقل الناس فيه لا يتحاورون ولا يسألون ولا يتساءلون. وعندما يأتي الدخول المدرسي، تعود الحروب الصغيرة الأكثر قسوة. لكي تثبت أنك مازلت إنسانا، عليك أن تجد حلولك الصغيرة وتعرف كيف تتواطأ مع أمك على الأقل. والدي يصر دائم على موقفه بأنه لم يعد

قادرا على تعليمنا والأم تصر وتجامل حتى تصل إلى نزع غلالة الحقد من على عينيه، فيلين قليلا. يرحمك الله يا أمي لقد قاومت الشطط كثيرا وهول الحروب الفارغة. تنزع قطعة من حليها وترسلها إلى عيشة الدلالة، فتشتريه منها بثمن بخس. عجوز مرابية تشدد الخناق على النساء المحتاجات حتى تفوز بالقطعة الذهبية بالثمن الذي تريد.

عندما تقاعد، بدل أن يتفرغ لربه، تفرغ لنا كليا. ولا شغل له إلا ميزانية البيت وأخواتي الست. أحيانا عندما أره يصرخ بأعلى صوته، أعطف عليه وأخاف أن ينكسر كالإناء الذي يسقط من علو كبير. أقول في خاطري ربما كان مصدر المأساة هن البنات. يقول لأمي كأنه يعاتبها، أنه عندما يمشي في الشارع لا يرفع رأسه. تفهم أمي قصده. تمد يدها نحو كتفه وعندما ترى عينيه المتقدتين، تسحبها بهدوء مثل الذي أصيب فجأة بحرقة. وعندما تتشجع وتجادله، يضحك بسخرية قبل أن ينفجر. البنت بيتها يسترها وليس المدرسة. عندما أتنكر اليوم الوقت الذي خسرت في حروبي الصغيرة مع والدي، أحزن كثيرا. كل مجهوداتي أفرغتها عبثاً في إقناعه بجدوى ما أفعل. فقد ظل كالحجر الأصم كما فتحت عليه عيني لأول مرة. الزمن حفره ولم يفعل فيه شيئا. اليوم أدرك أنني ضيعت وقتا كثيرا وأني لا أنا تغيرت ولا استطعت حتى إقناعه بحرائق القلب. طرقنا كانت متناقضة. أمي ظلت تحاول بالعقل أحيانا وبالقوة أحيانا إقناعه بأن لا تنازل عن حق بناتها في التعليم. أصبحت تقاطعه كثيرا ولا تنام معه في نفس الفراش. وفي المساء الذي تلين فيه، يصبح كما كان، يشتم ويلعن الزمن وأحيانا الرب الذي لم يكن عادلا معه.

في الأخير عندما تحصلت على البكالوريا، ذهبت نحو الحياة أبحث عن طريقي، بدون أن أسأل عن ردة فعل البطريرك المتقادم. ورائي أصداء أخواتي ودعوات أمي. لأول مرة أشعر بأني بالفعل حققت شيئاً ضد القدر. أمي كانت هي الوحيدة التي فرحت لي. لأنها

كانت تعرف أن البيت لن يضطر بعد اليوم لإعالة فم سابع. يا طبق المسكين، ما ناكلك ما نخلي اللي ياخذك؟ هكذا والدي الذي ظلل يردد جمله البالية: خلاص كملت، لازم تبقين في البيت حتى يأتي من يخلصني من همك. وكان علينا أن نتحايل لإقناعه للذهاب إلى الجامعة. بدأت المعركة الأكثر نبلا التي لا تنتهي. وكان علي أولا أن أتحايل لأصل الجامعة وأتحايل للعودة إلى البيت. الغربة أكلت كل العائلة. فقد تسارعت الأحداث والوقائع بحيث أصبحت أشك في أن والدي ما يزال عاقلا. بدأت بالأخت الكبرى خيره، التي كانت تشبه أمي في أميتها وخوفها علينا، تركت فراغا كبيرا في البيت بانتحارها. لم تقدم أي مطلب. حملت سرها معها. لفت نفسها في غطاء صوفي وكبت على نفسها البنزين وأشعلت النار بعد أن سدت كل المنافذ. أبي لم يحرك ساكنا. خرج إلى شأنه اليومي وهو يردد أمام أمي المنكسرة: الله لا يردها، زايد ناقص. وعندما كسر جارنا الباب، كانت قد تفحمت وتحولت إلى رماد. لم يسمع أحد صراخها. عندما أردنا أن ندفنها، تفتت كل شيء بين أيدينا. جمع الإمام الكل في رزمة بيضاء صغيرة وقال لها:

ـ هذا رماد خيره، ادفنيه أينما شئت، فقد صليت عليها صلاة الغفران عل الله يسمع دعائي.

مسحت أمي دمعها وتمتمت بعض الكلمات:

ـ وصلاة الجنازة.

ـ بزاف عليها يا لالة؟ لقد سترتها حتى لا تذهب نحو ربها عارية. تعرفين أن صلاة الجنازة باطلة على المنتحر.

ـ ولكنها ماتت يا سيدي الإمام ولم تفعل ما يؤذي الله.

ـ بذَّرت الروح التي أعطاها إياها الله.

ـ الروح كانت مبذرة حتى قبل أن يستردها صاحبها.

في المساء صعدت مع أمي وأخواتي فقط إلى المقبرة ودفنا رماد خيره. أمي صلت على قبرها ولا أدري ماذا قالت وهي التي لا

تحفظ إلا جزءا صغيرا من الفاتحة وجملتين من سورة الناس. أختي الصغرى ماتت بوباء الكوليرا الذي كاد أن يلحقنا بها جميعا لولا جارنا الذي أخذنا جميعا في سيارته إلى المستشفى. وأختي الوسطى زوجت من رجل أعمى كان يكبرها بأكثر من نصف قرن، كان قد فقد زوجته إثر مرض خبيث.

لم يعد والدي يعلق كثيرا. يشرب قهوته، ينزل بعدها إلى الحقل وعندما يعود يرتب حبات التين داخل الدقيق وقليل من الملح.

الأيام الأولى داخل الجامعة كانت صعبة وقاسية. وجه أمي صار كوجه الله، أراه طائرا في كل مكان. وكلما انغلقت علي السبل، ناديتها، في الليل تأتيني في نفس الإزار الأبيض الذي كان يشبه الكفن. لم تكن مخيفة، هادئة كملاك. تسألني عن حالي فأخبرها عن كل شيء. كل ليلي أقضيه في الكلام معها. حتى صديقاتي في المدينة الجامعية، في الصباح يكررن علي نفس الكلام الذي قلته لأمي في الحلم. الجامعة لم تكن شيئاً مهما في حياتي ولكنها كسرت أمامي قيد البؤس. فقد انقضت السنة الأولى بسرعة. السنة الثانية لم أتذكرها. وحدها السنة الثالثة بقيت في الذاكرة. عندما عدت إلى البيت في ذلك المساء البارد رأيتها على غير لونها. أمي. كانت مريضة. يغطي وجهها اصفرار فاقع وابتسامات منطفئة كانت تستلها بصعوبة كبيرة حتى تثبت لي أنها لم تكن مريضة. عندما أتعبتها بالأسئلة، انفجرت باكية. طوقتني بقوة. تمتمت كعادتها:

ـ لقد تعبت، اعتقد أنها النهاية.

ـ لا يا يمّا. سأذهب بك إلى أكبر مستشفى وأعالجك. لا. سأتوقف عن الدراسة.

ردت بارتجاف على شفتيها:

ـ لا أبداً يا بنتي. اللي جاء وقته ما يطمع في وقت الناس. العمر، هذا اللي اعطى الله.

بقيت بالمستشفى شهرا كاملا تصارع المرض. لم أرها لحظة واحدة تتأوه ألما. كانت كلما دخلت عليها، انفرجت أساريرها

وزالت عنها الزرقة المخيفة التي تجتاح وجهها. وظلت بين المباضع والآلات، جراحة، إنعاش ثم جراحة، فجراحة أخرى ثم الفشل الكلي للطب أمام حالتها. عندما تجرأت وسألت الطبيب عن حالها، قال لي وهو يعض على شفته السفلى: واش نقول لك يا بنتي؟ أنت قارية وتفهمي مليح. هذا المرض خبيث، يأكل الجسد ويفتته من الداخل ولا نتفطن له إلا بعد فوات الأوان. هذا ما حصل مع أمك.

بدت لي النهاية وشيكة. من يومها وأنا أتدرب على ابتلاع الألم جرعة واحدة مثل الدواء، لكي لا أموت حزناً وأقبل بفكرة أن أمي كذلك يمكن أن تموت مثل الآخرين. لم يكن الأمر سهلا ولكن كان علي مواجهة كل شيء لوحدي.حتى والدي لم يكن منشغلا بالوضعية، فقد بدأ يبحث عن كل السبل التي تبرر زواجه من امرأة أخرى. لم أكن ضد الفكرة ولكن يا ربي سيدي يمّا كانت ما زالت حية. القلب يوجع. الله غالب. يومها كرهته واعتقد بشكل نهائي.

ذهبت أمي في ذلك الفجر البارد ولم تترك لي سوى صورة المرأة الطيبة والمقاومة الهادئة. صلواتي لم تنفع ولا تمنياتي الطفولية، فعندما كنت صغيرة كنت دائماً أحلم أن أموت قبلها حتى لا أراها تنطفئ أمامي أو تتألم، ولكني أصل دائماً متأخرة لأني لا أملك سوى قلبي وأحلامي الصغيرة. ها هي ذي أمي تغادر وتدخل عالما يشبه الضباب، كلما رأيناه، ينتابنا خوف مبطن فينا. المخيف ليس الموت نفسه ولكن الأسئلة المعلقة منذ بدء الخليقة هي التي تربكنا وتحزننا في اللحظات الأخيرة حيث كل شيء يتساوى ويصير رخوا وأملس، عندها نترك أنفسنا ننزلق بسرعة نحو فجوة الغياب التي لا قرار لنهاياتها.

انطفأت أمي ومعها انطفأت مرحلة من حياتي.

حبيبتك التي تدعوك إلى أن لا تكون باردا معها.

7

هكذا ذهبتِ إذن؟

كم أشتهي أن أراكِ. هل تدرين أن غيابك الآن يقتلني وأني كلما استعدت وجهك وسط هذا الفراغ شعرت بوحدتي أكثر. الدنيا ظالمة، لم تتوقفي عن ترديدها حتى صارت حقيقة مثل الموت. أحيانا عندما نلعب مع الأقدار نفعل ذلك بسخرية وننسى أنها لا تنسى وأنها تأخذ كل شيء بجدية وتفاجئنا في أقل اللحظات انتظارا.

ضحكاتك على قصرها، وقعها طويل. طويل يمتد كالأنهار، ثم يتفرع في القلب دما، وورودا بألوان قزحية؟ رهافة ابتساماتك تشبه حساسية الورد المفرطة. على صدرك الذي يسجن، ويقهر انطلاق نهدين نافرين كفرسين ملجومين، تنام بهدوء صفيحة فضية كتب عليها اسمك بخط كوفي جميل: مريم. نحتها شاعر عراقي، صديق لنا يعمل مع صائغ في الحميدية. هو لا يعلم إن كان وطنه قد فشل في حبه أم أنه من كثرة اندفاعه نحوه بدا أنانيا أكثر من اللازم ومشاكسا وأنه الوحيد الذي يعرف كيف يحب؟ وجد نفسه ذات ليلة يقطع الصحاري والأهوار بحثا عن مخرج من المقتلة وهو لا يعلم بالضبط لماذا يريدون قتله. يحدث لنا من كثرة حبنا أن نتحول إلى دكتاتوريين صغار في أشواقنا ونعمى عن التصديق بأن للآخرين كذلك قلبا مثلنا.

مريم. بقي فيها أكثر من يومين وهو يحاول أن ينقشها داخل صفيحة معدنية صغيرة بدقة الفنان ورهافة الشاعر. ألمسك بعيني

المتعبتين، فيزداد اشتهائي. أحبك، من قال إن المرأة مأساة الرجل وسعادته الكبرى، لم يكن مخطئا. تضحكين:

ـ حتى الرجل مشي ساهل.

ـ المأساة معناها حلمه المستحيل. هل رأيت في حياتك إنسانا سعيدا بحلمه؟ الاستحالة هي عمق المأساة.

ـ هل أنا صعبة إلى هذا الحد؟

ـ في كل امرأة شيء من المستحيل وفي كل رجل شيء من العجز والغباوة في كشف هذا المستحيل. المرأة عندما تتسطح تصير أسوأ من الرجل.

تخورين عينيك. يظهر عمقهما جليا. تهزين رأسك كغجرية تستعد للعراك، ثم تقبضين على كفي وتسحبيني نحو النهر الوحيد في المدينة:

ـ يا خويا يرحم والديك، حبني كما أنا، لا أريد تعذيبك ولا تعذيب نفسي. اللي في يكفيني. حبني فقط بصدق لأني لا أعرف الكذب. الرجال يخافون من المسؤولية وأعفيك من كل هذه التفاصيل المرهقة. لماذا نعذب أنفسنا بكثرة الأسئلة والحياة تندفع أمامنا كالشلال؟

لأنك كذلك، يخافك الأصدقاء. أمام امرأة عفوية مثلك يرتبك المرء ولا يعرف إذا كان يحترمك أم يخافك. كل من اقترب منك خرج بهدوء واصطف مع طابور الذين يشتهونك من بعيد. وكم اسمع منهم من الكلام الفارغ والنصائح الميتة: يا محاينك احذر. مريم نمرة شرسة. جن أحمر. ما تصلها حتى تاكلك؟ إيه، أنت راك تلعب بروحك. هي هكذا ما تقدر تشوف حتى واحد إلا نفسها. أنت؟ الرجل الطيب والهادئ كبحر تحب مريم؟ ستدخنك كسيجارة ثم تضعك تحت قدمها الأيمن حتى تكون الرفسة قوية... اخطيك يا خو، خاف على روحك إذا حبيت تربح... والمثقفون الكبار؟ لا يرون فيها أكثر من

بورجوازية صغيرة لا تتغير إلا إذا انتحرت؟ هكذا يقول زملاء أكلوا ملحنا، وأكلنا ملحهم. لم يكن كلامهم إلا تعبيرا عن هزائم صغيرة كان من الصعب عليهم مواجهتها.هل الإنسان بهذه السهولة ليتحول إلى مجرد جملة تختزل كل التفاصيل الخفية والظاهرة؟ أنا لا أعرف من اخترع كل هذا التبسيط المغري. كم أتمنى أن أستيقظ يوما وأجد نفسي أمام ابن عربي، الرجل الذي خبر أعماق النفس وأسأله عن حكاية البورجوازية الصغيرة هذه؟ ماذا سيقول؟ أتخيله يسخر من سذاجتي كثيرا قبل أن يسحبني نحو تأمل نظام الحشرات الدقيقة الصغر والكلمات اللامتناهية الدقة التي تمنح الحياة كما تمنح الموت بسهولة ثم يحيلني بعدها إلى نفسي وخلجاتها المشتعلة ويتركني غارقا في الأجوبة المستحيلة. وقبل أن ينسحب نهائيا يضع في كفي كمشة من الأبجديات المبهمة والملونة وهو يتمتم:

«تريد أن تصير عاشقا وأن تعبد امرأة، هي ذي أبجدياتك للعبور إذا عرفت كيف تنظمها وتجعل منها كيانا مشابها لمعشوقتك.عليك أن تتعلم كيف تعوم بحرك يا صاحبي».

وأصيح وراءه: ولكن يا سيدي ابن عربي، مريم ليست امرأة. أو على الأقل ليست ككل النساء. لا أسمع غير رجع صوتي في داخلي. ليكن يا سيدي، سأحاول أن أعوم بحري.

ثم يتحول إلى نور كما جاء وينطفئ نهائيا.

قلت لعيد عشاب إن ابن عربي قال لي: عم بحرك يا صاحبي. ضحك مني طويلا بأعلى صوته وهو يكرر مثل المجنون: ابن عربي؟ بورجوازية صغيرة؟ والله معه حق يقول لك عم بحرك. تستاهل. ثم عاد إلى القهقهة وكأس عرق الريان السابعة ولم يجبني عن حيرتي وقلقي ولكنه ذهب نحو موضوع آخر لم أعرفه إلا فيما بعد بزمن طويل.

ـ هل تعرف بحر سيدي الأعظم؟

ـ بحر المعرفة.

ـ ربما. لكن هناك شيء آخر وإلا لن تعرف أبداً لماذا اختار هو وعبد القادر بن محي الدين الموت في هذه المدينة. النور. النور الذي يغرق الروح. وهذا لا يوجد في حي الشيخ محي الدين حيث ينامان. الشيخ محي الدين، هذا مكان استراحة الجسد فقط الذي تلون باسم سيدنا الأعظم. لقد فضلا هذه التربة لأنها كانت أكثر جوعا لهما من الأماكن الأخرى.

ـ ما هو هذا البحر إذن؟

ـ يوجد مباشرة بعد عبور *«طوق الياسمين»* حيث كل شيء سائل مثلما بدأت الخليقة في مشوارها الأول، وغارق في الأنوار والصفاء والضباب الذي تنكسر داخله كل الأشعة الناصعة التي تعمي الأبصار أو تصيبها بغشاوة.

تأكدت أن عيد كان في حالة سكر كعادته عندما يتخطى عتبة الكأس التي تجعل الروح خفيفة كالريشة. وقبل أن أسأله ابتسم بسخرية:

ـ أنت الآن تقول عيد تخطى العتبات الأولى للعرق. لا يهم. لكن يوما، هذا المهبول الذي أمامك والذي فشل في كل شيء إلا في حبه لسيده الأعظم، سيريك *«طوق الياسمين»*. كل من يمر على هذا البلد ولا يفتح هذا الباب أو هذا الطوق الذي توصده الأشجار الكثيفة والنباتات الاستوائية الغريبة و قصب البانبو ولا يركب عوامة سيدي محي الدين بن عربي، كأنه لم ير شيئا. الماء والنور هما أصل الأشياء وسيدي كان يعرف ذلك جيداً ولهذا اشتهى أن يودع الدنيا وهو بين المنبع والمصب.

ـ معك حق يا السي العيد. عرفت الآن سرك الكبير.

كنت أكذب.

في الواقع لم أكن مقتنعا أبداً بما كان يقوله. عيد عشاب عندما

يَزِيدُ حَبّتَيْنِ، ينسى أن يفكر بعقله ويفتح صدره لكل الرياح القادمة من كل الجهات.

- لا يوجد أي سر. المشكل هو مشكلة العين التي ترى.

عندما شربت الكأس السابعة وتخطيت العتبات المعتادة، بدأت أبحث عن النور المغشي للأبصار الذي تحدث عنه عيد عشاب. شعرت بأني كنت على ظلال وأن عيد عشاب كان يعرف ما يقول. لم يكن سكرانا ولكنه كان خفيفا ولهذا كان يرتفع بسهولة إلى علو لم أكن قادرا على لمسه. وكان علي أن أزيل كل أثقال وزني لأصله.

كنتُ مثل الآن تماما، أبحث عنكِ بشغف وقلق، فتزدادين بعدا وحزنا كلما اقتربت منك، لكن أنينك الذي لا يموت، كان رويدا، رويدا، يأتيني مع أولى نسائم هذا الفجر الشتوي البارد، يتزاحم كموجات تلاحقها نسائم الربيع وتهدهدها واحدة واحدة، لأنك كنتِ هنا... قريبة جدا.

ههنا تماما، بين النبضة والنبضة، في العمق اللامرئي للقلب المتعب.

8

أيها البعيد القريب.

حبيبي. كم أحبك وكم تزداد بعدا في هذه الدنيا الظالمة. شيء ما يقودني نحوك بشكل أعمى كلما اتخذت قرارا بتركك وبعدم رؤيتك نهائيا. أريد بالفعل أن أرتاح منك وأن تتخلص مني نهائيا لكي نعرف كيف نعيش. ماذا فعلت لي؟ ما سرك؟ ماذا أكلتُ من يدك أو من جسدك أو من روحك؟ أشتهيك إذ أتركك وأخاف عليك من حماقاتي وارتباكاتي وأنا معك. لا أعرف لماذا افتح أبواب الكوابيس والأحلام وأفتش عنك في أكثر الزوايا ظلمة علني أجدك وأوشوش في أذنك: أحبك. ربما لأنك لا تشبه والدي؟

ولأن زوجي كان يشبه والدي، فقد كرهته وأوصدت كل الأبواب المؤدية له وفتحت كل نوافذي الصغيرة نحوك لأراك وحدي عندما أشتاق لك.

ستسألني لماذا كل هذا الحنين وستقول لي الحنين مدمر وعبثي لأنه يسجننا في الوهم ويحرمنا من الحياة ومن إمكانات أخرى؟ لا أملك أجوبة سوى أني أحملك مسؤولية الخراب الذي لحق بسعادتنا. لا أنتظر أجوبة لحيرتي، فأنتَ منذ زمن بعيد اخترت أن تقتلك الفلسفة الوجودية والأسئلة التي لا تفضي إلا إلى مزيد من الخسارات والصمت. أحيانا أتمادى في خيالاتي وأقول لو كلمني رامبو وأنا نازلة إلى السوق الشعبية سأصفعه ولن أكلف نفسي شرح السبب وأني وأنا أدخل المطحنة القديمة في القرية وأجد كافكا

جالسا يتتبع ظلالها لأفرغت عليه كيس الطحين وأشق سحنته النحيلة ولو صادفت سارتر في طريقي لن أكلمه ولن أحضر درسه وسأضع المسامير في طريق نيتشه الذي يسلك كل صباح المعبر الضيق الذي يمر بالقرب من بيتنا وسأفش عجلتي دراجته التي يمتطيها وسأشيح بوجهي عن لينين عندما يسألني عن محطة الباص أو المترو. سأنتقم منهم واحدا واحدا لأني أشعر أنهم كانوا وراء خرابنا. بعدها أتعقل وأهدأ وأضحك من نفسي. وين أنا؟ وين هم؟ أنت كذلك أحيانا تشبه والدي ولهذا أصاب بحالة هبل كبيرة. فقد قتلته ظلمة الحيرة المستعصية ومقاطعة الشمس والهواء. لا أكلمك لأحصل منك على جواب. هناك الكثير من المآسي في الحياة تكفي لوحدها كجواب، وأي اجتهاد بعد ذلك هو كلام زائد.

لماذا تركتني أذهب نحو الحماقة مفتوحة القلب والصدر؟ ألم يكن بإمكان طولك وقامتك أن تسد في وجهي منحدرات الانزلاق؟ لماذا تركتني أذهب مغمضة العينين نحو حتفي؟ لماذا خفت سحرك عندما أخبرتك بأني سأتزوج؟ ربما لأنك كنت تريد أن تحل عقدة ضميرك نحوي وتتخلص مني وتقول: ما عليهش هذا خيارها وما علي إلا أن أقبل به؟ كنتَ تكذب على نفسك وأنت تعرف ذلك.

أحملك الخراب الذي لحق بسعادتنا. ماذا لو تزوجنا؟ ستقول لي بفلسفتك الوجودية المعهودة: لم نتفق هكذا على تقييد حرياتنا؟ ماذا يساوي الكلام أمام الخسارات الكبرى التي لا تعوض؟ لا شيء. نعم لا شيء. أنا أعرف أنك كنت تكابر وأن قلبك كان منكسرا وأنا أخبرك بعزمي لأحرك غيرتك. كنت أشتهي أن تلعنني، أن تضرب رأسك على الحائط، أن تمزقني وتنزع أطرافي مثل اللعبة، أن تأكلني إذا شئت، أن تنعتني بكل النعوت التي تشتهي ولكن أن تقول لي كلمة واحدة فقط: أحبك. في حاجة ماسة إليك. ابقي أرجوك. أو حتى لاترجوني، لست في حاجة إلى الاعتذار. آه لو فعلت ذلك، لتركت كل شيء بدون أدنى ندم وتبعتك نحو حتفي إذا استدعى الأمر ولكنك بقيت صامتا تقاوم كبرياء منكسرا ورجولة زائفة وركبت رأسك.

اسمح لي، في هذه لم تكن مختلفا أبداً أنت الذي ظل يقدس الإختلاف. كنت تشبه كل الرجال ولم تستثن نفسك كعادتك من الاندراج داخل المنظومة. يومها، عندما خرجت إلى الشارع رأيت كل الناس يشبهونك مع أني قبل أن أدخل إلى البيت كنت أراك متميزا وفريدا. كم تتغير الأشياء فينا بسرعة جنونية؟ لا ألومك. ربما كنتَ على حق. في نهاية المطاف من أنا بالنسبة لك؟ لا شيء، امرأة كسائر النساء، أقل جمالا وذكاء ممن عرفتهن قبلي. عيبي أنك أول رجل في حياتي بعد والدي ولهذا رفضت أن تكون شبيها له لأني كنت سأكرهك. وها هي ذي صورتك كل يوم تختصر جزءا من المسافة الفاصلة بينك وبينه. كنتَ أول إنسان اخترق حميمياتي بدون أن يشعرني بعقدة الذنب أو لعن جسدي وحريتي معه. لهذا، عندما أحببتك لم يكن لدي حلم آخر سوى البقاء معك حتى الموت. الزواج؟ وين الخطأ يا ربي سيدي؟ أننا لم نتفق من قبل؟ ما المانع أن نتحدث حوله اليوم ونتفق؟ عفوا. أعذرني، أنا أهذي. امرأة لا تطاق ولكن لا أحد يستطيع أن ينكر عليها طفولتها وصدقها.

أعرف، بل متيقنة أنك أنت كذلك كنت تحبني ولكنك كنت جبانا وغيورا على مفرداتك وفلسفتك أكثر من غيرتك علي. الله غالب هكذا. في لحظة من اللحظات فضلت علي كتبك وأنانيتك الثقافية ونسيتني. ولهذا ألعنك شوقا وزعلا وحنينا في كل صلواتي وأرشقك بحبي وبحزني لأني أخفقت في كل شيء معك، حتى الحقد عليك. ما عليهش، أنا ما نعرفش نزعف... ربما لأني أنا كذلك لم أعرف لا كيف أحافظ عليك ولا كيف أحبك.

مهبولتك التي تفكر فيك دوما.

9

هل تعرفين يا مريم أن المرايا تتعب من كثرة الوجوه؟ وأنا لم أتعب منك. صرت أدمنك وازداد انحدارا نحو الجنون. كلما استعدت وجهك البعيد، أجدني أبرئك من كل التهم الصغيرة والأحقاد الطفولية. ما ألمَّ بنا كان أكبر من مجرد نزوة غير محسوبة العواقب. في بعض الأحيان أحقد على الرجل الذي اخترته. جعفر أو كما يسميه الأقربون الحميميون: دجيف Djeff لم يولد لك ولم تولدي له. لا أدري كيف تقاطعت طرقاتكما في لحظة ما من لحظات الحياة. لست سعيدا لذلك. كبريائي لم يكن في محله لكن كلماتي كانت صادقة. لم تعط الفرصة للأيام. كان جعفر مثل عابر سبيل هو نفسه لم يصدق عندما قبلتِ بسهولة اقتراحه. مد يده نحوك، فمددت قلبك وجسدك ويأسك مني. قلتِ: نعم أنا قابلة. سأتزوجك والحب يأتي فيما بعد، أمي لم تكن مثقفة. في تلك اللحظة أعتقد أنك نسيت أمك ولم تستعمليها إلا كمطية. زوجك لم يعلمك إلا العادات التي بنت عليها أمك حياتها بالكامل: الطبخ، البيت، الفراش وإذا أراد الله الأولاد. طوال اليوم أنت لا شيء، مثل الطاولة والكرسي وإبريق الماء والمزهرية والكؤوس المهملة وكتب الرفوف العالية التي لا تقرأ وفي الليل عندما تلتهب مدفونات الجسد، يسحبك نحو الفراش ويسمعك كل أغانيه وهزائمه قبل أن يغرق جسدك تحته لمدة دقيقة مثل الديك، ثم ينهمك بعدها في شأنه وتعودين أنت إلى وضعك الأول. كان أسوأ من أبيك. فأنت بالنسبة له لم تكوني أكثر من سرير

يركبه الواحد لحظة احتراق الشبق المدفون، ثم يتركه ليعود له مع عودة الرغبة التي لا تنتظر ولا ترحم. أحيانا أتساءل إذا كان للحب تعريف يجعل من الأحاسيس العميقة مقصده ومآله؟

كل أجوبتي منكسرة وأسئلتي معطلة.

ـ أنت اللي حبيتني نكون هكذا.

ـ لا. أنت أكبر من هذه الجملة.

ـ الحب كان معك واليوم، بدأت أنساه. عندما صممت أن أتركك، قبلتُ أن أكون إنسانة عادية، مثل كل الناس. مثل أمي. رحمة ربي واسعة.

ـ ربما يكون هو نفسه قد نسينا في هذا الفراغ المهول الذي يزداد اتساعا كل يوم.

ـ كنا غالطين. الدنيا ليست دائماً كما نتصور. يبدو لي أنه عندما نتزوج علينا أن نقبل قليلا بالعقد وإلا فلا داعي. سيتحول إلى خسارة أخرى تنضاف إلى هزائمنا المتكررة.

ـ الزواج الذي لا يحرر من قيد الدنيا، لا أحتاجه.

ـ هذا سمعته منك قبل هذا اليوم وحفظته. هل بقي لك شيء آخر لم تقله؟ ماذا فعلت لكي لا نخسر فرصتنا ولكي يكون زواجنا محررا لنا.

ـ صمتُّ، لأني بكل بساطة لم أكن أملك جوابا. أنت تحملينني ما لا أستطيع تحمله لوحدي. تجربتنا ليست لا الأولى ولا الأخيرة في هذه الدنيا. فشلنا في أن نكون زوجين فلنكن على الأقل صديقين رائعين. أين الضرر في ذلك؟

ـ لا شيء. ليس هذا هو المهم في قصتنا. العواطف شفافة مثل الزجاج، عندما تتشقق تنتهي، كل محاولة لرتقها لن تزيد الشقوق إلا اتساعا. ومع ذلك الشيء الوحيد الذي أعرفه في حياتي هو أني أحبك وكلما حاولت التخلص منك للتفرغ لزوجي، وجدتني فيك أكثر.

ألعن رب اللحظة التي وضعتك في طريقي في ذلك اليوم الخريفي الذي كانت فيه الأشجار تتعرى من أوراقها وكنت أشعر بالبرد. ألعن اللحظة التي رأيت فيها السنة الجديدة تنسحب بسرعة ففضلت أن أكتب لك أول رسالة حب في حياتي وأنتظر عودتك من سهرتك لأقول لك أحبك وأصرخ في وجهك: Basta لم أعد قادرة على التحمل.

- وين الحل؟

- تسألني عنه؟ أنت اخترته ودفعتني إلى أن أفعل الشيء نفسه لنتحول إلى أروع خاسرين بالمجان في الدنيا. أنت اليوم لم تعد مطالب بأي شيء نحوي.

أغمضت عيني قليلا لأبحث عنك من جديد، لأعثر على المهبولة التي كانت عندما تركب رأسها، دفاعا عن حقها، لا شيء يقف في طريقها. ولكني عندما فتحتهما، لم أجدك، كنتِ بعيدة. بعيدة جدا. ورأيت النيران تشتعل في القصائد والكلمات وفي سفن سان جون بيرس وفي أشعاره. كانت المرافئ التي سحرت الكتاب والفنانين مغلقة. حتى أبواب المدينة التي كنا ندخلها في آخر الليل أو في الصباحات الأولى بعد سهرة مجنونة عند صديق أو صديقة، سُدت عن آخرها ولم يعد العشاق يمرون عبرها.

كنتِ بعيدة أو ربما أنا لم أكن قريبا.

البرد الشتوي الذي يدخل بهدوء وطمأنينة إلى العظام. والشارع الطويل يزداد طولا ويضيق مثل القلب ووجهك يختلط بهذه الأشعة التي تكابد للخروج من وسط الدكنة والضباب.

كانت شوارع المدينة التي بدأنا ننساها الآن، شبه ممنوعة، تهتز فقط للمارشات العسكرية والدوريات الليلية وأصداء الرصاص وصرخات القتلة والاغتيالات وصوت الله المبحوح الذي صار في حقده، يشبه جميع الخلائق ولم يعد له ما يميزه مطلقا.

منكسرا أمشي. أدور على نفسي داخل هذا الصمت المطبق.

أنسى الخوف والمفاجآت الخاطفة. الليل جميل بغواياته الكثيرة، في هذه المدينة التي تشبه المدن الساحلية المعلقة في الذاكرة بالأحرف والصور الجميلة. حتى المصابيح القديمة المتسخة تعطي الانطباع بقصة رومانسية من قصص القرن الثامن عشر. لا أدري إذا كنت كلما مشيت، أحاول أن أتذكر تفاصيلنا الأولى ومصيرنا الصغير الذي ارتبط بهذه المدينة أم أني كنت أبذل جهدي لنسيانك دفعة واحدة. النسيان بالتقسيط قاتل على الأمد المتوسط بينما النسيان السريع مثل السم، لا يرحم صاحبه.

الليل قصير في هذه المدينة الشتوية التي تتحول فجأة إلى قطة أليفة في المساءات الباردة. ويحدث أن نحلم ونحن نبحث عن دفء نادر في فراش كلما مددنا أرجلنا، ازداد صغرا. وعندما يختلط شخيرنا بترترة القطط والكلاب النائمة عند أرجلنا، نرى أنفسنا نجري تحت الأمطار الغزيرة ونركض بدون هوادة نحو الجسر الذي يربط المدينة بعالم الضواحي والأحراش. نتذكر البلاد البعيدة وأرضنا التي تزداد كل يوم بعدا عنا. نتمنى أن نعيش نبوءة كل سحرة البلدة بانفصال القرية عن محيطها عندما تنشق الصخرة التي يتشبث بها الطرف الأيمن من الجسر المعلق. يقال في كتب التاريخ القديمة إن هذا حدث مرارا ولكن منذ الأتراك وبعدها الحملة الاستعمارية، تم بناء الجسر الكبير الذي قاوم الزلازل وتحرشات الأرض المتكررة. لا أحد اليوم يعلم متى تتخلى الأحبال المعدنية عن الصخرة لينهار كل شيء؟ قصة لا أحد يكلف نفسه عناء إيجاد الأجوبة لها. تعودنا في هذا البلد أن لا نستبق الكوارث ونترك كل شيء للصدفة والأقدار. البنايات تتقادم وتتآكل كوجوه مسنة أصابها الجدري بدون أن يتنبه القيمون على البلاد والعباد لها وأنها ستنهار ذات ليل أو ذات فجر أو سيأكلها طوفان أعمى يشبه طوفان نوح. سيستعيد كل مجاريه التي سرقوها منه وشيدوا عليها الطرقات والممرات والبنايات والأسواق. لقد استعمرت الحضارة الطبيعة والوديان لكن الماء عندما يتحرك سينتزع تربته ومن الله

قوته ويغرق الأخضر واليابس. حدث هذا منذ قرن وسيحدث إذا بقيت المدينة تواجه تاريخها الإنكشاري لوحدها وتأكل نفسها بينما السماسرة والقوادون والقتلة والمقاولون وتجار العملة والجملة والموردون للفراغ والمستوردون لكل شيء والعسكر والمخابرات والقحبات المحترفات والفقهاء والرعاع يحفرون كالجرذان تربتها ويشيدون قهرهم وخرابهم ولا يأبهون للمدينة التي تنحني كل يوم بمتر إلى الوراء قبل أن تتهاوى بشكل نهائي.

ومع كل ذلك، أشعر دائماً أنه ما يزال لدينا متسع من الوقت لكسر الجدران العتيقة التي أنبتتها الأزمنة الفائتة في دماغينا وجسدينا الصغيرين وأننا مازلنا قادرين على الحب.

ما المانع؟

أنتَ تهذي يا روحي. كل شيء انتهى .

من قال هذا الكلام الفارغ؟

ياه؟ هكذا تنسى بسرعة؟ ألم أقل لك إن الحب شفاف وهش مثل الزجاج، عندما يُشقُّ أو ينكسر لا شيء يستطيع رتقه .

10

ثلاثون سنة فقط.

لا شيء. بعض الصيادين الذين طالت أعمارهم كثيرا يقولون إنهم قضوها في البحر فقط. ثلاثون سنة لا شيء في حياة إنسان يحب الحياة. وأنت تقولين إنكِ كبرتِ وشختِ؟ لا. هل تحتاجين لأقول لك إنكِ مازلتِ في عنفوانك. ألا يكفيكِ هذا؟

ـ مريم خلصينا من هذا القلق الفارغ؟

ـ أنت عنك كل شي ما يمشيش على هواك، فارغ؟

ياه؟ هل كان القدر يخاتلنا ويسخر من سذاجتنا، في الزاوية المظللة ونحن نجرح أنفسنا بعناد كبير كالصاديين؟ كلما اصدمت أشواقنا خبأ رأسه لكي لا نسمع قهقهته ولا نرى تكشيرته الساخرة. ألم يكن ممكنا أن نخاتله نحن كذلك بدورنا ونعبر فوقه ثم ننزوي ونسخر منه وهو يتلوى غيضا منا لأننا خادعناه من حيث لا يدري وانتصرنا لسعادتنا حتى ولو كلفنا ذلك بعض التنازل عن كبريائنا؟

ـ ثلاثون سنة ليست لا شيء؟ كم يعيش المرء في الحالات الطبيعية؟ لا شيء. لا أريد أن أضيع هذا اللاشيء.

ـ ثلاثون سنة؟ ياه؟ تغلقين كل الأبواب؟ ما يزال هناك متسع في العمر فلماذا نختصر ما بين أيدينا؟

- كم أحلم مثل المجنون أن أدعو الله وكل أساتذتك من رامبو إلى سارتر وأطرح عليكم جميعا سؤالا واحدا: هل أحببتم في حياتكم امرأة بدون أن يكون في ذهنكم شيئاً آخر سوى حبها؟ أعتقد أن الكثير من أصدقائك سينسحبون من أماكنهم ويخرجون وهم يوشوشون: مهبولة. ومع ذلك ما قيمة الأفكار والأديان إذا لم يكن جوهرها سعادة الإنسان؟ وكم أحلم أن أغادر هذه الدنيا وأنا قادرة على المشي والحب والتمييز حتى أستطيع أن أقف أمام الله بكبرياء وحب، أسئلتي له لا تحصى وعليه أن يتحملني كثيرا. سأتعبه. لا أريد أن أدخل عرشه مهدمة وأحتاج إلى من يسندني لأجابهه. أريده إذ يراني وأن يحبني لا أن يوكل أمري للزبانية والملائكة.

- سيقولون لك إن الثلاثين سنة لا شيء في حسابات الدنيا.

- يا خويا لست الدنيا. أنا امرأة فقط. امرأة تحب.

- إنها بداية العقل وتجليه وانفتاح الجسد.

- يا روحي؟ يكفي. يزي من التمسخير. لا تعذب نفسك وتعذبني معك. لا علاقة للجسد والعقل بهذه الأمور. نساؤنا يقضين العمر كله وهن لم يلمسن رجلا في حياتهن. أما العقل، فذاك أمر آخر. لن أكون إلا أنا، كما تراني الآن، طفلة تفقد عقلها بسرعة عندما يسرقون حقها الأدنى في الحياة. سأظل هكذا حتى يرث الله جسدي. أمي أنجبت أغلب بناتها في هذا السن. ما تقوليش. ما تهربش من السؤال المركزي. قلت لك ما دمنا نحب بعضنا، نتزوج وخلاص ونعيش الحياة التي نريد وكما نريد. اليوم نفريوها. يا هاك يا هاك. تعبت... عييت... عييت... عييت.

- الدنيا ليست بهذه المقاسات.

- وليست بالفوضى التي تريدها.

- والحل؟

- أنا كبرت. ثلاثون سنة. نتزوج ونعيش، لسنا أفضل من بقية البشر الذين يحيطون بنا.

وماذا بعد؟

ألتفتُ نحو الحائط العتيق الذي يقاوم السقوط المؤكد.

لا شيء. قلتُ لكِ لا شيء. ثلاثون سنة فقط وما تزالين حارة مثل الوطن وطفلة تتعشق الأشياء التي تثير دهشة فضولها وحرارة الشواطئ الدافئة، فلنكن ولو لمرة واحدة في حياتنا جيادا لا تتعبها شقاوة الأيام المرهقة ولا وقع الأحذية الخشنة التي تملأ الأدمغة الشعبية وشوارع المدينة الضيقة.

ثلاثون سنة فقط.

فلماذا كل هذه الطبول الأفريقية التي تعذب دماغك وتقرع لحروب وهمية قاتلة. هل السنوات هالكة ومدمرة إلى هذا الحد؟ وهل ضاقت سبلها حتى صارت مخيفة؟

الليل في بدايته وأنجم الفجر لم تحترق بعد، ترمم كل هذه الفراغات التي تفتحها الحياة فينا دفعة واحدة، كأنها تعاقبنا لأننا لم نعرف كيف نحبها أو على الأقل كيف نعيش الزمن الذي منح لنا.

ألتفت ورائي، لا أرى شيئاً سوى الضباب ووجه عيد عشاب وهو جالس في قعدة حكيمة، ينشر قلمه، يرشف كأس العرق الأخيرة ثم يخط الكلمات الأولى في مذكراته. كان ذلك عندما رأى من الملحق، في الطابق الخامس، جسد جارته سيلفيا عاريا عن آخره، في الطابق الرابع، في البناية المقابلة له تماما.

«*باب الجسد:* اليوم لم أفعل شيئاً مهما. كنت قلقا وأنا أغادر الرابطة. لم أجد رسائل سهام التي تعودت أن تقاسمني همومها ومتعب مرضها. ربما كانت تستعد لمفاجأتنا بمجيئها. لم لا وهي تنتظر فقط تحديد يوم المناقشة؟ عندما عدت إلى البيت وقفت كعادتي، منذ أكثر من سنة، بجانب النافذة بشكل نصفي وراء

البرادي، وبدأت أتأمل سيلفيا التي تسكن الطابق الرابع من البناية المقابلة، وهي تغير ثيابها وكأنها لا تراني. تتخلص من مساسيكها وأمشاطها وتطلق سراح شعرها قبل أن ترمي الثياب الثقيلة على السرير. يظهر جسدها مصقولا غارقا في النور كنحت يوناني قديم من تحت الألبسة الشفافة التي سرعان ما ترميها. الآن لم تعد إلا الحمالات والتبان يحتضنون كل هذا الكيان الغض والحي. تمسد على جسدها قليلا كمن يتفقد نفسه قطعة قطعة ثم تذهب نحو نهديها اللذين أصبحا مكشوفين، ممتلئين وواقفين. تقترب من المرآة. تضع الحلمة بين أصابعها. تتحسسها وكأنها تكتشفها للمرة الأولى. تعرك الرأسين الموردتين قليلا ثم ترمي على جسدها لباسا فضفاضا خفيفا يغطي كل شيء مثل ستار مسرح كبير، ينزل قبل نهاية المشهد. عندما تنتهي، ترفع رأسها قليلا نحوي. تنظر إلي وكأنها تراني مع أني أختبئ من وراء البرادي الخشنة. تبتسم بملعنة، تضع أصابع يدها اليمنى على شفتيها ثم ترسل لي قبلة دافئة قبل أن تنسحب نحو عمق بيت أهلها وأنا باق متسمر في مكاني، تتنابني الهزات العنيفة لتسري في كل جسدي. في آخر الليل، عندما أتمدد على السرير أحلم وأسترجع الصور واحدة واحدة وأترك البقية للأحلام حتى يختلط علي كل شيء في الصباح. هل رأيت سيلفيا من وراء البرادي أم حلمت بها فقط؟ وهل بعثت بالفعل قبلا من وراء الستائر أم...».

من أوراق عيد عشاب

11

للمقابر رائحة تشبه رئحة الموت: تشكيل من الأبخرة والروائح البرية والنباتات الإستوائية المحروقة والصنوبر المجفف تحت شمس قاسية والزيوت النباتية المعطرة بالخزامى وماء الورد ونكتار البرتقال.

القفر والبرد والمدينة التي لم أعد أعرفها أو ربما توقفت أن أكون شيئها الذي تعتز به.

أسمع صوتك يأتيني صافيا كسماء ربيعية، يتدحرج قليلا، يخاتل من ينظر إليه ثم فجأة يدخل الأعماق بدون استئذان.

ـ يا روحي تسالني الآن عن الحياة؟ أشهد أني بعد هذا العمر حاذيتها ولم ألمسها. لقد كانت قاسية علي؟ بوف لا شيء. موت مع وقف التنفيذ. وحياتك لا شيء. دغل مفجع. القوي ياكل الضعيف. هل يرضيك هذا؟ أعرف مسبقا أنك ستقول لي لا، وليست هي المرة الأولى التي أخيب فيها ظنك. ليكن، لم تعلمني شيئاً آخر سوى كيف أخاف من لمس الأشياء ولهذا صممت أن أحترق في اختباري للحياة و أن أقول بصوت عال ما في القلب.

Aujourd'hui, j'ai décidé de ne plus mettre de gans; de dire à haute voix ce que je pense quitte à te vexer ou te peiner. C'est comme ça.[5]

(5) اليوم صممت أن لا أتحرج لقول كل ما أفكر فيه بصوت عال ومسموع حتى ولو أزعجتك أو آذيتك. هكذا.

أنت ربما أحسن مني لأنك تمنح الحياة شيئاً من روحك وتمنحك أجمل الصور لكتبك. أنا لا أملك ما أقاوم به سوى هذه الحرائق التي تشتعل في والتي لا أملك حيالها إلا الصراخ وعندما أتعب أنام. عفوا أدوخ. الجمال يدوخ أحيانا كما كنت تقول ولكن البؤس كذلك يصرع صاحبه.

ياه؟ كلامك تغير كثيرا. صار مليئا بالإشارات التي لا يفهمها إلا من اكتوى بها. لا أعرفك الآن. لقد ضاعت علي السبل.

أين كنتِ قبل هذا الزمن الذي افتقدتك فيه؟ لم تعودي أنتِ. أشياء كثيرة فيك انسحبت وأخرى حلت محلها. غيرك الغياب وقتل المرأة التي كنت أعرفها؟ كل شيء فيك انسحب مخلفا وراءه بخار كأس القهوة الأخيرة ودخان السيجارة التي كادت أن تحرق الموكيت من كثرة انغماسنا في أسئلة الحياة والخوف والزواج. أتساءل اليوم إذا لم نكن مخطئين بدخولنا غمار الأسئلة التي ليست في النهاية إلا المنحدرات والمهاوي القاسية لإجابات تنكسر رقابها قبل أن تصل إلينا.

لم أعد أعرفك؟ لا تشيحي بوجهك نحو فراغات المدينة. هكذا أنا، أريد أن أرى وجهك حتى وأنت في أقسى حالات الشطط والعزلة. لماذا إذن لم تعلمك أعوامك المتعبة إلا صورة أمك المنكسرة واشتعالات والدك الذي قبل أن يموت، أضرب عن الكلام حتى سُحب نحو تربة القبر، والتثبت في حالة الزواج والعمر الذي ترينه يمضي كلعبة الريح؟ الآن بدأ يستيقظ فيك ذلك الشيء الحار كالدم والمؤلم كعطب الرهافة.

فهل أبدأ منك وإليك أعود؟

أم بالمدينة التي أنهكت عيون الأحياء والشهداء والطيبين؟

فأنت والمدينة في النهاية شيء واحد. كلاكما قابل للصياغة والتشكيل والتحول. يحب ويكره بنفس الدرجة. كلمة تشعلكما فرحا وأخرى ترميكما نحو هوة القيامات التي لا قرار لها. أنتما كهذه

الخلائق البشرية، غير قادرة على التحول بمجرد رغبتها، لكن قسوة الدنيا والمهالك المأسوية قادرة على أن تهزها في عمقها والفعل فيها سلبا وإيجابا. لا أدري. على الأقل هكذا أتصور. ولا أشك في احتمال خطئي فأنا منذ افتقدتك خسرت كل يقينياتي، حتى الأبسط منها. مثلا: ما معنى أن نفكر إذا كان ذلك يفقدنا أعز من نحب؟ ما معنى أن نحاول العيش إذا كانت هذه الحالة تقودنا بخطى حثيثة نحو الموت المؤكد؟ ما معنى أن نفلسف الدنيا إذا كان كلما فتحنا بابا للأسئلة أغلقنا كل أبواب السعادة. ربما كنت على حق وأنت تقولين لي في ذلك اليوم الذي فقد زمنه وملامحه: أفكارك هذه ستقودك إلى الجحيم. أشهد أني اليوم صرت فيه.

أراك تقاومين صمتك لكن الكلمات تتسرب من بين شفتيك المطبقتين. قولي أنني بدأت أسقط في التنظير الأجوف وأني بدأت أنساك. الحب لا يطيق الأسئلة الكثيرة، قلتها لك ذات يوم، فنسيتُها وحفظتِها أنتِ عن ظهر قلب.

ـ أنت نفسك تقول إن الحياة شيء آخر. قد نؤخذ بتفصيل صغير لا يهم أحدا ونحتفل به كالأطفال وقد نمر أمام كنوز الدنيا ولا تهزنا أبدا.

ـ لا أراني مرتاحا في هذا التفصيل. الزواج؟

ـ وما معنى الحب إذن؟

الحب؟ لا أدري. ربما كان رهافة كلما حاولنا القبض عليها تفتت كالفراشة المحروقة. ربما كان بكل بساطة ديمومة لا يضمنها إلا الزواج؟ الحب؟ قد يكون ربما بناءا وكسرا دائمين؟ هل هو لقاء نتشوق له بلهفة أم فراق يشبه الفاجعة نختزله منذ أول لحظة لقاء، نقضي العمر كله نجانبه ونتفادى حدوثه؟ ما دخل الموت في الحب؟ هل هي نقيض الله إذ تقضي على ديمومة الأشياء أم هي استراحة الخاسر في معركة الحياة؟ ومن الخاسر، الذي ودع الدنيا بأقصى سرعة أم الباقي وسط الخسارات التي لا تحد؟

ـ في هذه الحالة كلنا خاسرون في معركة الحياة لأننا كلنا عرضة للموت الحتمي.

ـ.......؟

ـ لا تقل إنك لا تملك ردا.

ـ.......؟

أعذريني فأنا متعب هذا المساء ولا أحمل في ذاكرتي إلا هواء ساخنا. لكن لا تشيحي بوجهك يا مريم. أعرف جيداً أني خيبت آمالك الكبرى. ربما كانت هذه الخيبة هي التي تربطنا بعدما تجردنا من الكثير من الأشياء الرائعة. الأشياء الدقيقة التي تحيط بك ليست تافهة أبداً بالقدر الذي تتصورين.

لا أدري إذا كانت مدننا هي المنكسرة أم نحن. لقد صارت تشبهنا كثيرا، حزينة ووحيدة. كلما سقطت الأمطار، ازدادت عزلة وانكسارا. نست نفسها وأقفلت ذاكرتها مثل الذي يسد بابا للمرة الأخيرة حتى لا يشم رائحة الذين كانوا معه. ونست شهداءها الأشقياء الذين نبتت الأعشاب المتوحشة على قبورهم.

يحدث أن أتساءل بسذاجة الأطفال عن تفاصيل الحياة الصغيرة التي تمر عادية وهي ليست كذلك، أو التحول في لحظة غبن طفولية إلى وردة صفراء أتعبتها أرجل المارة، أو إلى مراهق أنهكته شوارع بلدته المسكونة بصوت الرصاص والأوامر الصفراء التي تستفز كل حواسه، فجلس على حافة الطرقات القديمة يتحين فرص خداع المدينة والظفر بمومس من مومسات الشوارع الخلفية اللواتي تبعن اللذة سرا لزبائن ليسوا دائماً شيقين.

مريم... يا شريفة كما كانت تسميك نساء القرية، يا غنية القلب والروح والحواس ومرثية الوحداني والقانط، أسألك في غفلة من كل حواسي، هل نتواطأ مع لغة القلب ونبدأ الحكاية كما تبدأ عادة الحكايات الشاقة والجميلة أم نتركها لخرير الوديان وتناسل أمواج

البحر؟ مدينتك التي شهدت ولادتك الثانية وتفتحك، تعشق البحر وتفتخر بأجدادك الأندلسيين وبجبال *فلاوسن وزندل*، التي لا تموت خضرتها، وبالغابات الرائعة التي لا ينتهي امتدادها وبالقديس سيدي عبد *المؤمن بو قبرين*، الذي باع تاريخه الأندلسي وراهن على الدنيا مقابل ابتسامة هذه المدينة وبحرها.

هل بدأنا الحكاية أم مازلنا على الحواشي، نتدرب على القول؟ لا أعلم. كل ما أعرفه هو أن أصعب الأشياء هي البدايات دائما. هل نخرج من عمق الروح المنهكة ذلك الشيء الحار أم نتركه لتكسرات الليل والنهار في لحظة تعاقبهما وتداخلهما ولابتساماتك التي تنكسر بسرعة على الأوجه الحديدية وشقاء اللحظة وعلى الأبنية العتيقة والأقبية التي تعوم في الظلام.

قد يكون البدء من عينيك لا يسهل المهمة ومع ذلك فأنا لا أرى مدخلا أليق من ذلك، فيهما اختصار الزمن وأصل الحرائق الكبرى التي ألمت بنا وكان يمكن تفاديها. حمو المهبول والطيب حليلو وعمرو الدانجورو والزهراء عميش التي تسلقت كل الدروب الوعرة، مجانين البلدة الميامين الذين انتهوا فجأة تحت عجلات السيارات العسكرية والحواجز المشبوهة، يقولون إن لا شيء سوى العين من يستطيع حفظ التفاصيل بألوانها ونبضها وحياتها الأولى. أنت نفسك قلتِ لي وأنتِ تتحدثين عن أمك أنها حينما تتألم يتغير لون عينيها وعندما يغمرها الفرح تشق بؤبؤها ألوان قزحية متداخلة الألوان وتغرق في نور قل ما تجدينه في الحياة العادية. عندما كنتِ صغيرة، كنتِ تسندين ظهرك على حائط مقام سيدي عبد *المؤمن بو قبرين* وأمك بجانبك ممدة، تتلذذ بتربة الولي الصالح وبرائحة شجرة التين العملاقة التي يقال إنها خرجت من ضلعه. فجأة رأيتِ شعاعا أبيض يتسرب من بين وريقات شجرة التين العملاقة ويخترق عينيها، صرخت بصوت مرتعش: دقيقة يا يما الله يحفظك. افتحي عينيك قليلا، فقد رأيت ظلالا وألوانا كثيرة وطبقات لا تحصى من التداخلات. تفتح أمك عينيها. لأول مرة تكتشفين أن في عينيها

أسرارا لا تحصى. العين تفضح صاحبها. تقرئين فيهما كل التفاصيل، ترين مثلا جدك البربري الذي حزم أمتعته وغير مقامه خوفا من الهجمات الرومانية، ثم تتضح صورة ذلك الوجه الصبوح لرجل ملتح وذي شعر طويل. رجل ينفرد بالحكمة وبقراءة القرآن بقلبه، جدك الأندلسي وهو يفارق اخوته بمزيد من المرارة ليخذ كل واحد منهم وجهة. تأتيك الحروب التي قادت جدك في القرن الثالث عشر إلى هذه الزوايا الخالية التي لا شيء فيها سوى البحر الذي ينام تحت الهضبة التي كان جدك يقيم فيها صلوات الفجر.

الذين عبدوا النار في عيون النساء، لم يكونوا مخطئين أبدا. كانوا يعرفون أن أصل السعادات الكبرى والحروب القبلية المدمرة قد يبدأ بنظرة وربما بالتفاتة صغيرة لا أحد يحسب نتائجها.

12

أمي، الله يرحمها ويوسع عليها، كانت شيئاً آخر.

عندما ماتت، كان أبي منكفئا داخل صمته ولم يكن يعرف أنه فقد المرأة التي ظل طوال عمره يقسم ويعظم بقتلها. كنت أنا في الجامعة ولم يخبرني أحد إلا بعد أسبوع من دفنها. لم يكن أحد يهتم لأمري ولا يعرف الدم الذي كان يربطني بها. بكيت وندبت. أيعقل في ست بنت لا توجد واحدة يأكلها قلبها؟ كنت مثل أمي في الكثير من الهبل وأعطي بسخاء وأهتز إذا مرضت إحداهن. بعدها مرضت وكدت أموت. في النهاية، وقفت على قبرها واعتذرت لها طويلا لكل ما يمكن أن يكون قد صدر مني. الغريب أني سمعتها تبكي، ليس من الموت ولكن من شدة البرد والوحدة. أمي مثلما جاءت، عاشت، بغرائزها وعفويتها الأولى وأسئلتها المخبوءة. قبلت الحياة كما منحت لها ولم تفلسف في يوم من الأيام وضعها. لكنها كانت كلما حزنت، تأتي وتسند رأسها على كتفي ثم تمتم في أذني:

ـ ما نعرفش علاش يا مريم، كلما تألمت، أشعر بالبرودة؟

ـ أنا معك يا يما.

ـ الحمد لله اللي راك هنا. نخاف من شي واحد مين نمشي، أن يكون الموت بهذه البرودة. ما نستحملوش.

ـ الموت يا يما يحرق القلب ما يبردتش.

جميل أن تشعر أن هناك في زاوية ما من هذه الكرة الأرضية

من يفكر فيك ويتألم لك ويهتز لآلامك وأشيائك الصغيرة. انطفأ كل شيء في عيني وعدت إلى دراستي في الأسبوع الموالي ونسيت نهائيا أن لي بيتا وأبا وأخوات. أعذر فقط أختي خيرة التي أكلها الهم فانتحرت وأحن كثيرا إلى أختي الصغرى التي ماتت بوباء الكوليرا وأجد أعذارا حتى لأختي الوسطى التي زوجت برجل أعمى يكبرها بنصف قرن والبقية يا ربي سيدي لوين راحوا؟ فجأة لم أجد نفسي معنية بأي شخص في الدار. ياه كم كنت غبية؟ كنت الوحيدة التي تسأل عنهم جميعا ولا أحد يسأل عني، أما زلت حية أم مت؟ تعشيت أم لا؟ نمت أم بت في الخلاء؟ مثلما كانت تفعل أمي.

أمي كانت شيئاً آخر لا يشبه إلا لنفسه، لا مقابل له.

يصعب علي أن أحدد إشراقها وأن أصنع لها صورة كاملة. شمسنا قاسية، ولا أحد يستطيع أن يواجه حرقتها مفتوح العينين. أمي كانت تفعل ذلك كلما اشتهت أن تبكي أو أن تستثير غيرة الشمس. الشيء الوحيد الذي ظل صافيا فيها ولم تقهره الأيام، عيناها. كلما اخترق شعاع ما ضباب السماء، جريت نحوها كالطفلة الصغيرة:

- يما يعيشك، خلّ عينيك مفتوحين شويه، هكذا.

- واش راح تشوفي؟ الهم قتل كل شيء واللي بقى كمل عليه أبوك. يا حسراه!

- أبدا. حتى شي ما يقدر يقتل هذا النور.

- العمر يا ابنتي صعب وقاس والدنيا ما ترحمش.

- غير الموت اللي يقدر على العينين. ما نيش عارفة من وين جبت هذه الألوان؟ تعرفين واش راني نشوف؟ جدي عبد المؤمن بو قبرين وهو يركب سفينة العبدة بصحبة خادمته مريم وأخته التي تجلس بجواره، ثم اخوته الستة وهم يدخلون إلى القمرة الواحد بعد الآخر، يطأطئون رؤوسهم حتى لا تصطدم بالعتبة. ثم يجلسون بجوار أكداس القمح والشعير والأفرشة. أرى جدي قدور وهو يحمل

بندقية الساسبو ويفتح النار على أولى القوافل العسكرية التي دخلت أرضنا لحرقها ونهب تربتها. حتى التربة يا يما تنهب وقت الحروب الظالمة. أرى خليطا من القرون والألبسة والخيام والبنايات والوجوه والشموس المختلفة والألوان. أرى ما لم أره في حياتي أبدا.

لم تفقد أمي ألق عينيها حتى في أقسى اللحظات وأكثرها عزلة وخوفا. كانت عندما تكتحل، تظهر كل التفاصيل التي تعطي لمحيط عينيها الذي يشبه لوز البلدة الذي يعشش بالقرب من مقام جدي، ألقا استثنائيا. حتى أبي الذي ظل يقهرها قبل أن تقتله بلاغة الصمت القاسية، لم يستطع منعها من رؤية الدنيا كما تشتهيها.

هل تعرف ما معنى أن تكون لك أم مثل أمي، يقهرها الزمن ورجل مبتئس حاول طوال عمره أن ينزع من عينيها تلك الشعلة الزرقاء والحية وعندما تموت لا تجد حتى من يرفع إصبعها للشهادة هي التي أعطت كل شيء؟ بزاف علي؟

كم أشتهي أن أكون ابنة أمي فقط ولا أحد لي سواها.

أمي بكيتها بحرقة يوم ماتت. عندنا في البلدة يقولون اللي يتيم، يتيم من أمه.

يوم مات والدي لم أبك. في لحظة أردت أن أمثل أمام الناس ولكن الضبابة التي غلفت وجهي منعتني من كل شيء. بقيت أياما صامتة حتى شعرت أن عدوى والدي قد مستني وبعدها نسيته تماما وانطفأت نهائيا ملامحه في ذاكرتي.

اليوم كلما حاولت أن أتذكره، أخفق. فقد انسحبت تفاصيل وجهه دفعة واحدة. أيعقل أن يمحى من الذاكرة وجه من أعطاك الحياة، بهذه السهولة إذا لم يكن في داخلك قدر من الكراهية لا تستطيع لجمه؟

- تعاتبني يا حبيبي اليوم على قسوتي تجاه نفسي وتجاه الحياة وتجاهك؟ تلومني على رغبتي في الزواج؟ أريد أن أرى

أبنائي وأن أذهب وأنا شبعانة منهم، هل هذا كثير علي؟ لا أريد أن يحصل لي ما حصل لأمي، ذهبت وهي لا تعرف إذا ما كان يجب عليها أن تحقد على والدي الذي لم يترك لها فرصة الشبع منا واللعب معنا. كبرنا كالقطط وهي لا تعرف. بعضنا تزوج وهي لا تدري أن شيئاً من هذا حصل.لا يا خويا، اسمح لي، ثلاثون سنة بزاف علي. مانقدرش.

ـ ....

ـ ياه؟ ما أقسى صمتك؟ ماذا يجب أن أفعل لأقنعك أنك تملأني وأنني أريدك وأشتهيك ولكني أرفض أن أكون امرأة موسمية. صحيح أني امرأة أنانية ولكنها تحبك. لا تنس هذا. لماذا تبخل علي بشيء يمكن أن يمنحه لي أي رجل. يكفي أن أرفع إصبعي. لكني أريد كل شيء منك لأني أحبك؟

هل يحدث لك أن تفكر أحيانا في غير ما نحن فيه؟ أن تفكر فيَّ قليلا في لحظات سهوك؟ أتمنى ذلك، لا يكلفك الشيء الكثير. وإذا لم تفعل حتى الآن، جرب وقل لي عن حرائقك التي تنهبك من الداخل، في الرسالة القادمة.

يا مهبول، لا تنس أبداً أني مجنونة بك.

13

ـ استحفظ على روحك شويه يا خويا. ما عنديش غيرك. ألبس مليح، ما راكش في الصيف.

ـ لبست معطفي والكنزة الصوفية.

ـ تعرف يا حبيبي، يحدث معي أن أستدرج الشتاء فقط لأراك تلبس معطفك الخشن. فهو يذكرني بالصورة الوحيدة لوالدك. فقد كان أنيقا جدا. معطفك يدفِّيني. يجعلني كلما هبت الرياح الشتوية المفاجئة أحتمي بك. أختبئ فيك كالقطة الصغيرة التي تبحث عن زاوية أقل برودة.

ـ ياه يا مريم تلمسين الجرح بكلامك، بخزرتك، بروؤس أناملك كعازفة لها ثقة عالية في نفسها. أنا كذلك مثلك، أحب هذا المعطف، ربما لأني أشم فيه رائحة المنفي وأحاول أن أستشعر قساوة الأحاسيس المبهمة التي كان يحسها وهو يعبر شارعا ما أو وهو يدخل إلى محطة أتوبيس أو مترو أو يحادث صديقا في زاوية ما، لاقته به الصدفة الطيبة... ؟ ألبسه وأراك تخبئين رأسك داخله تحت دهشة العيون التي تربكها الأسئلة.

ـ ياه؟ أنت واعر. أنتَ حاب تهبلني. تحاول عليَّ. من أين تنحت كل هذا الكلام الجميل؟

ـ ألا تعرفين؟ قولي والله؟

ـ والله لا أعرف.

ـ إنما هو وحي يوحى... ها... ها...

وأقهقه مثل الذي نصب لك شركا ليخرجك من صرامتك ومن جديك المفرطة.

ـ ألا يمكنك أن تكون جديا مرة واحدة في حياتك؟

ـ تعرفين يا مريم أن أول درس أعلمه لابنتي هو أن لا تكون جدية كثيرا أمام الحياة وأن تأخذها كما هي وما تقلبهاش غم على نفسها. شوية للرب وشوية للعبد.

ـ يا بخت المرأة التي تمنحك هذه البنت! كم ستكون سعيدة؟

ثم تنظرين إلي بعينين تتقاطع فيهما كل ألوان المساءات وانكسار الأضواء على الزجاج والطرقات المبللة منتظرة جوابا تشتهينه. تتمتمين:

ـ ابنتك؟ ومن أدراك أنها ستكون ابنة؟

تستدرجينني. أسخر. أخاف أحيانا أن تتحول المزحة الطارئة إلى قدر قاس. هذه كلها جملك:

ـ ألم أقل لك؟

ـ لا.

ـ قولي وحياتك؟

ـ وحياتك.

ـ إنما هو وحي يوحى.

ـ أنت لن تتغير أبدا. ما أوحشك.

البرد والأمطار والعزلة المطبقة، يقوون شهوة المشي في المدن التي تشعل أنوارها متأخرة.

أتساءل اليوم وسط هذه العزلة وهذا الانكسار، هل انتهت تلك السعادات الصغيرة التي كانت طابعنا اليومي؟ هل نسيت أننا كنا نصنع الفرحة حتى في أكثر اللحظات قسوة.

أتحسس تفاصيل الزمن المنزلق بين الأصابع كالماء. أسترجع وجهك الهارب. من الساعات الأولى للصباح حيث لا شيء يعكر صفو اللحظة وانتهاء بالمساء وهو يجر وراءه تفاصيل اليوم بكامله. أراك عصفورة تفتحين عينيك بهدوء، ثم وأنت تنهضين بصعوبة من سريرك، بقامتك الرشيقة وجسدك المنحوت بإحكام. تضعين قبلة على شفتي. في فمك بقايا رائحة عود النوار الذي بتنا نمضغه حتى الفجر ونجرب جدواه في الفراش ونحن نسخر من وصايا النفزاوي. يقولون إن عود النوار يقرب الأرواح من بعضها البعض ويعطي الأجساد رغبة لا تقاوم في الاندماج والاستمرار في الحب طويلا. ثم نهز رأسينا: هاه؟ يبدو أن الذين استعملوه قديما لم يكونوا مخطئين. الدليل. ثم تلمين ألبستك الداخلية المبعثرة، الحمالة والتبان ولباس النوم الذي يميل نحو خضرة طمسها ضباب الفجر، كنت أحبه عليك لأنه يعطي لجسدك كل انثناءاته. تنظرين إلي وأنت تخبئين ابتسامة ساخرة:

ـ شفت عود النوار ديالك واش دار في؟ هبلني.

أغمغم:

ـ لم يفعل أكثر من أنه منحنا قدرا من السعادة لننسى أنفسنا قليلا.

ثم تأخذين التنورة ذات اللون البني الغامق وأحمر الشفاه وعطرك وبعض الكتب المتراكمة في فوضى، على الطاولة العتيقة المحاذية للسرير: تغريبة بني هلال، سيرة عنترة، سيف بن ذي يزن، أساطير الأولين والحكايات الشعبية، الشعر القديم، مؤلفات نوال السعداوي الكاملة التي اكتشفتها متأخرة، التي تبعثرت كلها ولا أحد يدري كيف حصل ذلك.

ألبس بسرعة وأنتظرك. وحين أصيح لكي تسرعي قليلا.

ـ مريم، بسرعة شوية، الوقت يمر وسنصل إلى الجامعة متأخرين؟!

تحورين عينيك كمن يؤنب خصمه، ثم تتركين ابتسامة تتزحلق على وجهك كالموجة البحرية الهاربة.

ـ لحظة. على المحب يا حبيبي أن يصبر.

أصمت قليلاً ثم أجلس في الزاوية، على الكرسي المهمل وأبدأ في التطلع إلى حركاتك غير المنتظمة. أراك في فوضاك المعهودة مثلما يحدث معك عادة عندما تسافرين لوحدك، تصلين دائماً في الدقائق الإضافية التي تمنحها الخطوط لمسافريها، لا تغلقين الحقيبة بإحكام إلا داخل التاكسي ولا تضعين الماكياج إلا وأنت متكئة على مسند السيارة، وأنا لا أتوقف عن ملاحظاتي وأغلي:

ـ مستحيل أن تتغيري. هذا سفر وليس لعبا.

ببرودة غير معهودة فيك تذكرني بنفسي وكأن السحر انقلب على الساحر.

- Que veux-tu, c'est ça ta bien-aimée? Ta femme qui voyage tout le temps en catastrophe. Tu es obligé de me supporter et de m'accepter telle que je suis. Je ne pense pas que tu as beaucoup de choix. Tu es mon professeur en la matière. Il ne faut pas prendre la vie trop au sérieux.

- C'est ça. Je crois que cette fois-ci j'ai bien compris. Même très bien.

- C'est à dire?

- Tout simplement que tu es incorrigible.[6]

(6) ماذا تريد، هذه هي حبيبتك. امرأتك التي كل أسفارها حالات طوارئ. عليك أن تتحملني وتقبل بي كما أنا. ولا أعتقد أن لديك خيارات كثيرة. أنت معلمي ويجب أن لا تأخذ الحياة بجدية زائدة.
ـ تماما. أعتقد أني هذه المرة فهمت جيدا.
ـ وماذا فهمت؟
ـ بكل بساطة، ميؤوس منك.

ثم تنغمسين داخل فوضاك، تبحثين عن أحمر الشفاه الذي ينام عادة بين ركام الكتب المتراكمة، الأساور السبع الرقيقة التي اشتريتها لك من حقوق التأليف التي تلقيتها عن صدور كتابي الأول. حقيبة اليد العتيقة الجلدية، التي اشتريتها من أحد محلات *الصالحية*. الصالحية؟ قصة. يومها كان من المفترض أن ننزل مع بعض ولكن لخلاف تافه بيننا كل واحد سلك طريقة، ركبتُ رأسي واستغنيتِ أنت عني. رافقك جعفر، واحد من سكان *فيلا الإطفائية*. لم يكن يطلب فرصة أفضل من هذه. كنتِ تعرفين ضعفه نحوك ولكنك كنت تعطفين عليه وترين فيه طفلا لا يعرف أذى الناس. عندما تنغلق عليه السبل يبكي أو يطلب النجدة من غيره. عندما أردت أن تدفعي ثمن الحقيبة اليدوية، سبقك ولم يترك لك فرصة الكلام. قال أنا أدفع ودفع. حاولتِ. أقسم برأس والدته أن لا أحد غيره يدفع. لم تعلقي كثيرا. في الطريق سألك كثيرا عني. كان قلبك ممتلئا تجاهي. شعر بذلك. تتذكرين كلمته التي قالها وعرفت مغزاها. أرض الله واسعة والرجال كثيرون. نسيتِ الحادثة ولكنها تكررت كثيرا بين المسافات الفاصلة بين الإطفائية ومحطة البرامكة التي كانت تقودنا جميعا نحو الجامعة. وذات صباح وأنت خارجة من المدرج دعاك إلى شرب قهوة. لم تمانعي. كنت تعرفين أنه منذ حادثة الحقيبة الجلدية وهو يحاول أن يتقرب منك. هناك أعلن لك عن حبه واستعطفك بيتمه وأشعرك أن لا يستطيع أن يراك كل مساء تذهبين للنوم معي ويبقى هو في الصالة يستمع إلى تنهداتنا.

ضحكتِ وحاولتِ أن تنسي الحكاية. وعندما أصر، صممت أن تضعي حدا لوضع بدأ يرهقك ولم تعد لديك الطاقة لتحمله.

ـ بالمختصر المفيد واش راك حاب مني. أن ننام مع بعض؟ أن أكون صديقتك فقط؟ أن نتزوج؟

عادتك عندما تريدين حشر واحد في الزاوية الضيقة. صراحتك قاتلة. ارتبك وهرب الكلام من فمه وانعقد لسانه على نفسه حتى صار مثل الكرة.

ـ أ... أ... أر... يد... أن أتزوجك. أنا... أحبك.

ـ شوف يا ولد الناس، في الوقت الحالي، أنا أعشق رجلا مهبولا مثلي، يملأني عن آخري وحتى ولو كان يرهقني بسخريته وصمته، ما نبدلوش بمال قارون. ولكن إذا تخلص مني، لا قدر الله، سأتزوجك. مليح هكذا؟

برقت عيناه بشيء من الفرح والغباوة.

ـ مليح.

ثم انسحب نهائيا ومنذ ذلك اليوم لم يعد يذكر موضوع الزواج منك ولا يتمه.

لم يكن ما قلته أكثر من سخرية لتفادي وجع الرأس، لكن القدر كان يكشر أنيابه في مكان ما. يومها، عندما فاتحتني في الموضوع، اندهشت من تصرفه ولكني سرعان ما تمالكت نفوري وانزعاجي. قلتُ لك:

ـ مسكين. خذيه على قد عقله. مصاب بك.

ـ جعفر أو دجيف كما يشتهي أن نناديه؟ يحتاج إلى أم أكثر مما يحتاج إلى صديقة أو زوجة.

ـ يعشقك الله غالب. لا جناح على المصطلم كما يقول الصوفية.

ـ يا خويا؟ أنت هذا واش تعرف تقول؟ أكلت قلبك؟ ما تعرفش تغير؟ ولو كان نتزوجه واش راح يصير؟ تغار علي وإلا تقتلني؟

ـ طبعا نغير عليك ونقتل اللي يسرقك مني.

أدركت في النهاية بعد المزحة أني لم أقتل إلا نفسي.

تهدئين ثم تخورين مرة أخرى عينيك الغارقتين في البياض.

- Au moins comme ça cæest mieux. Tu me réconfortes mieux.[7]

(7) على الأقل هكذا أفضل. أنت تطمئنني أكثر.

قبل أن نغادر الغرفة، أستحم في عينيك، في شفتيك، في كل زاوية من جسدك. لم تكوني المرأة التي يشبع منها المرء. شراستك تبعد عنك من لا يحبك فقط. لك دائماً شيء جديد، يضعني في كل مرة أمام مأزق.

وأحاول بهدوء أن أتلمس رهافتك ورقتك الكبيرة وتفاصيلك التي تستقر في الذهن كأحجار الوديان الثقيلة. أشتاق إلى فوضاك بنهم غريب. ياه؟ كم يتحول المرء عندما يغيب؟ لا نتذكر منه إلا الاستثناءات التي كنا نرفضها فيه عندما كان حيا، فهي التي تميزه عن المخلوقات التي تملأ الدنيا. كنت هنا ثم فجأة لا أسمع إلا أصداءك وبعدها لا شيء. لا شيء.

أنت هي أنت. عينان هادئتان، تبحثان عن شيء ما يزال بعيدا، تصفقان من حين لآخر بخجل كبير. على اليد اليسرى، ينام سلك نحاسي صغير في شكل إسورة ذهبية. وعلى معصم اليد الأخرى بقية الأساور الرقيقة الأخرى. ست. أنف دقيق، نافر، كفرس جموع لا تروضه الفرسان. ترابط تحته، عبر خط مستقيم يتعمق كلما ضحكتِ، شفتان متقنتان وممتلئتان تبرزان أكثر كلما مسهما قليلا أحمر الشفاه البارد. ووجه طفولي، نبوي الخطوط والإشعاع، يغتسل وسط خمرة معتقة.

من أين تأتي بكل هذا الكلام دفعة واحدة؟

من قلبي. هو منجمي الذي يرحل معي عندما أخرج من هذه التربة.

لا؟ لماذا؟ أنتَ بالذات قلبك ليس لك وحدك. لكل من يتمدد مساء ويقرأ كتبك ويحاول جاهدا إلقاء القبض على وجهك ويتمنى أن يلمس يدك كالولي الصالح.

عندما نكتب نتقاسم مع الناس بعض أوهامنا وهزائمنا الصغيرة.»

- Non, ce n'est pas seulement ça. Une écriture qui ne fait pas rêver, n'est pas une écriture. Toi par exemple, avec tes mots, tu nous balances dans une vague de nuages bleus, roses et surtout violets.[8]

وحينما تنتهين من ترتيب نفسك ويصبح بيننا وبين التدحرج على إسفلت المدينة لحظة، تكتشفين نفسك للمرة الأخيرة في المرآة بشغف كبير كمن يفتح عينيه على صخب البحر لأول مرة. ثم تمسدين قليلا على شعرك وصدرك وخصرك. تلاحظين فجأة أنك سمنت قليلا.

ـ السمنة ليست جيدة أبدا. بديت نتبلبل. يا الله، خير من القصبة اليابسة. على الأقل عندك واش تقبض.

ـ لا، أنت هكذا جميلة ورائعة.

ـ أشعر بضيق الفستان قليلا. ما عليهش، أنا سعيدة، ما دمت تحبني هكذا.

ـ يا مجنونة الله يعقلك؟

ـ واش ندير بالعقل إذا كان يحرمني من الجنون معك.

عند العتبة، تتنبهين فجأة، في آخر لحظة، أنك نسيت المطرية الملونة بأشكال قوس قزح. المدينة ههنا، تعيش الفصول الأربعة في لحظة واحدة. تضعين كتاب لينين عن المرأة الذي أهديته لك في أحد أعياد ميلادك، في حقيبتك اليدوية ثم نخرج. لقد بدأت رحلة الصباح. الجامعة، البريد المركزي، السينما أو المسرح ثم التسكع في شوارع المدينة قبل أن نندفن في أقرب بار نستدفئ فيه بحرارة البخار وبيرة بردى المحلية.

تبتسمين ابتسامتك المعتادة، غزالة يعذبها الخوف.

ـ هيا نروح، الآن أنا لك، دير فيَّ واش تحب.

ـ بعد نصف ساعة سيدخلون المدرج ونحن ما زلنا هنا. لا وقت

(8) لا، ليس هذا فقط. الكتابة التي لا تدخلنا غمار الحلم، ليست كتابة. أنت مثلا، تدحرجنا بكلماتك داخل موجة من الغيوم الزرقاء والنيلية والبنفسجية تحديدا.

لا الكلام ولا للوم. مساء سنحضر مسرحية الزير سالم اللي أخذ عقلك وفي النهاية نمسح تضاريس المدينة حتى الفجر. يا الله بسرعة يالالة.

نخرج باتجاه محطة البرامكة ونلوح لمن تركناهم في صالون *فيلا الإطفائية*، للأصدقاء الذين تجمعنا بهم حيطان هذا المكان العتيق، ثم نخرج إلى قلب المدينة المرتبك. نبحث عن الواجهات، وفي الشوارع وفي أدمغة المارة الذين لا ينتظرون، عن شيء ما يزال ينقصنا في الأعماق وعن بقايا ابتسامة انكسرت على هذه الخطوط العريضة والجمل التي تتسلق بتكاسل. الحيطان المعوجة والهرمة، بالقرب من محطة البرامكة، حيث تركن باصات أتوستراد المزة.

«السادات ويا غدار».

«ونستون هي الكمال بالمتعة».

«أوريانت صولار كوارتز. الساعة التي تأسر الشمس وتضبط مواعيد صلاتك».

«ريكال بيكون، جبنة أبو الولد الأصلية».

«اليتيمة الفلم الذي أبكى الملايين، آخر إنتاج الموسم».

ـ الاستهلاك الذي لا يرحم والموت البطيء بين جمل الإعلانات التي تغتالنا في كل لحظة وهزائمنا التي نحولها بقرارات رسمية إلى انتصارات.

ـ هذا هو وطنك. ما هي البدائل التي صنعناها لأبنائنا، ما عدا خطابات الموت التي تقتلنا قبل أن تقتل أعداءنا؟ أنا أقول لك: صفر. لا شيء.

تدحرجت الكلمة في أعماقي ثم واصلنا السير بصمت. نكتشف المدينة، ونحاول أن نفتح أعيننا بصعوبة كبيرة على وجوه المارة والعابرين، متصنعين نوعا من الألفة مع المحيط الذي بدأ يتقاتل في يومياته الصعبة والقاسية.

وحين تمتلئ رئتينا الصغيرتين، بغازات المدينة، وبأتربة مرتفعات *قاسيون* الذي تعرى جسده الصلب والقاسي من كثرة الخيبات، نجد أنفسنا فجأة مصطفين مع طابور الواقفين في انتظار باصات الجامعة.

وداخل الباص المكتظ، تتطلع إلينا العيون بنهم غريب. أبحث عن سبب الدهشة، ربما كان شيء ما فينا يدعو إلى ذلك. أمسد على شعري وأدخل أصابعي كلها عميقا لأزربعه ويحافظ على استداراته الصغيرة. أتحسس مقدمة سروالي، مؤخرتي، حذائي، وجهك، فلا أجد شيئاً ذا أهمية غير يدي اليمنى التي تنام على خصرك بارتياح غريب. أغمض عيني لأراك في الصورة التي تقربني منك أكثر. أتذكر عود النوار. أضحك. أستعيد كلمات هذا الصباح عندما غادرنا السرير المكتظ بحماقات الليلة الفارطة. *واش دار فيَّ عود النوار ديالك*؟ أزداد غوصا في وجهك الذي صار الآن أكثر إشراقا وفي النهاية لا أستيقظ إلا على صوت الجابي وهو يصرخ بأعلى صوته عند نقطة التوقف:

ـ وقف. الجامعة. يا الله يا شباب فرجوني عرض أكتافكم. وصلنا.

ننزل. ننساب بهدوء نحو المدخل الرئيسي للجامعة ونختلط مع مئات الطلبة الذين يأتون من كل الجهات ليتقاطعوا صباحا عند هذا المدخل الذي يبتلع كل شيء، كل شيء بدون استثناء.

14

دقيقة واحدة ولنمض بعدها في تفاصيل الحياة. أنا الآن متعب ومنكسر. أجد مشقة كبيرة في تجميع أفكاري والوصول إليك.

دقيقة واحدة فقط يا طفلة الأشواق الحزينة ويا مدينة موجوعة القلب، تعج بالأطفال الفقراء ومساحي الأحذية، وبباعي الفول وأقراص الفلافل التي تحترق في الزيوت النباتية العتيقة بالقرب من *سوق ساروجا*، والنساء الجميلات على امتداد *شارع الصالحية*. يا طفلة ساذجة، تتقاتل في دمها الأسئلة القديمة والجديدة وروائح هذه الممرات الضيقة وهذه الطرقات التي يحدث أن تصير فجأة مهجورة، خالية حتى من أنفاس أبسط القطط والمخلوقات الأخرى التي كانت تملأها عادة حتى صارت جزءا مهما من الديكور العام للمدينة، من باعة وخمارين احتسوا مشروب البراندي أو المازوت كما كنا نسميه وجلسوا في الساحات العامة يستذكرون الفتوحات الغرامية الآفلة والهزائم العربية ويحددون الاستراتيجيات الكبرى لمحاربة العدو القومي. يبكون اللحظات المكسورة ويداعبون الأشياء الصغيرة التي تحيط بهم، الحشرات، الوريقات اليابسة التي يعبث بها الريح هنا وهناك وأعقاب السجائر المتناثرة عند أقدامهم والصحف العتيقة التي يحلو لهم أن يشوهوا صور الساسة التي عليها قبل أن يثقلوها بالبول.

كانت المدينة قد بدأت تخسر ملامحها ووجهها.

دقيقة فقط يا صديقي، أشعر الآن بوجع كبير في الرأس،

وبعدها فليبدأ ذلك الشيء الحار، الخجول، ينمو في خفاء ما كطحالب الوديان الراكدة. فالوجوه الغامضة في هذه المدينة التي علمتنا التاريخ وحاربت العدو القومي، لم تعد اليوم مثلما كانت. بطونها النحيفة صارت اليوم دائرية، بيوتها الطينية صارت عمارات وناطحات سحاب وحساباتها البنكية خرجت من هذه الأرض باتجاه المدن البعيدة. لم تعد أقلية، فقد تكاثرت حتى صارت مخيفة، في كل انعطافة يواجهك رجل يمسد على مؤخرته خوف انزلاقها ثم يقف في الزاوية المواجهة للبنك ينتظر السيارة السوداء التي تمر عليه لتأخذه لتبييض مال النفط والسلاح والمخدرات والبحث عن كل ما يبرر خسائرنا المتراكمة داخل مهرجانات الكذب.

كنت أخاف عليك وعلى عينيك من هذا الموت. فالمدينة يا مريم أكبر من طموحات الصبية الذين فتحوا أعينهم الصغيرة على ليل مشوه شبيه بوردة محروقة، وعلى بقايا جثة تفسخت على خشبة. وربما، من يدري؟ على خيط دقيق من أشعة نافذة لم تستطيع غيوم الأرض وضعها رهن الحجز. ليس سرا إذا كانت تتكسر داخل عينيك المهمومتين نقرات الأمطار، وحطام قطار هاجر فجأة ثم في منتصف الطريق، علته ألسنة النار.

ليس سرا كل هذا.

أحلامك اقتنصتها المدينة وتنام الآن بين ملفاتها السرية.

قلت لك وأنا ألملم أحزاني الصغيرة: يا روحي، أعذريني قليلا. أريد فقط أن أمد راسي وأنام وأدندن في خلوتي... يا نهر الشام... يا نهر الشام.

أنام قليلا لأنسى فقط هذا الهم الذي يأكلني بنهم كالدود الأزرق لكن برد المقابر لا يسهل المهمة، يقودنا دائماً حيث يشتهي هو، نحو النقطة الأكثر ألما وحزنا:

«*باب الريح*: أنا هكذا يا سيلفيا. الريح اللي تجي، تديني. هش

ومرهق. غيابك يتعبني ويقتلني. البارحة شربت كثيرا لأني بدأت أشعر باللاجدوى من كل شيء. حوالي الساعة السابعة تلفنت لجورج وأول ما بدأ يتكلم معي، عاتبني لأني لم أكلمه منذ عدة أيام. اعتذرت له وقلت له أني كنت مشغولا مع الأخ مراح الذي زارني من اللاذقية وعلمت منه أن والدك ينوي إرسالك للدراسة في أمريكا. جورج طيب ولكنه هو كذلك غارق في تفاصيل الحياة ثم أني أخشى أن أفتح التليفون، يطلع لي والدك، فماذا سأقول له؟ حزين لأن خطواتك صوبي قلت. ربما لأنك أنتِ كذلك بدأتِ تقتنعين أن والدك لم يكن مخطئا مائة في المائة. ربما يكون مقترح والدك للسفر إلى أمريكا قد راق لك. من المهبول الذي يرفض أمريكا من أجل رجل لم تمنحه الدنيا الشيء الكثير؟ أحيانا ينتابني الإحساس بأني وضعتك تحت رحمتي. من حقك أن تري الدنيا من خارجي، خارج إنسان ما زال يبحث في سؤال بدائي لا يقدم ولا يؤخر: لماذا تخلى والدي عني؟

أعذريني حبيبتي على هذياناتي، فأنا لا أملك إلا اللغة لمقاومة هذه العزلة القاتلة وهذا اليأس المستشري. أعذري هوسي بك وخوفي على مستقبلنا الذي لم يعد في منأى عن التلف».

من أوراق عيد عشاب

المقابر أمكنة للخلوة وليست مدنا خالية.

من قال هذا الخواء؟

لا أحد غيري. المقابر مدن ممتلئة، أناسها لا يفكرون مثلنا ولكنهم يعيشون صمتهم بمزيد من العزلة والوحدة. آلامهم كبيرة وميئوس منها. عندما نمرض، نحلم دائماً بالعودة. عندما ننام، نموت مؤقتا أو نموت قليلا. لكننا عندما نموت بالفعل، فإلى الأبد. الموتى متسامحون مع خطايانا، لا يطلبون منا الشيء الكثير. لا يحاسبوننا على سخافاتنا اليومية لأنهم أكبر منا أو ربما لأنهم لا يريدون أن يعرفوا ما يحدث لنا. غلط. غلط. الميت عندما يموت ما

يطوالوش رجليه ولكن قلبه يزداد اتساعا فقط. وإلا لما كان بكل تلك الطيبة التي تجعله مقدسا في أعيننا.

ألتفت نحو شيء مبهم.

خلفي كان يصعد نشيد يشبه شدو العصافير وهي تستعد للخروج من أرضها. فصول البرد والعزلة سرقت منها دفأها. مريم تذكري معي هذا: *أجمل شيء تشتهيه العصافير هو أن تموت وهي قادرة على الطيران. بعضهم يقول إن العصافير مثل الأشجار، تموت واقفة*. ألم تقولي هذا حينما غامت الدنيا في عينيك والتبست عليك السبل والأشواق؟ تتمتمين كالطفل المندهش أمام الكوارث التي خلفتها مزحته: كنتُ أمزح فقط. تمزحين؟ وكيف لم تقدري تبعات المخاطرة؟ كل نبوءاتك صدقت. تعرفين أن الأقدار تأخذ كل شيء مأخذ الجد ومع ذلك تتمادين في حماقاتك وغيك.

15

في هذه المدينة الغامضة بسحرها وبشيء فيها يستعصي على الفهم، صنعنا أولى خطوات هذا المصير. منحتنا دروبها الشعبية بسخاء لذة الاكتشاف والراحة. فقد كانت أولى المدن العربية التي تعارفنا فيها وتدحرجنا ذات ليلة في شوارعها التي تعيش مجبرة على آلام الولادات القيصرية والأحزان المكتومة. وكان عيد عشاب الذي سبقنا بعشر سنوات إلى هذا المكان هو الذي فتح لنا بوابات المدينة الموصدة والخمارات الصغيرة والأماكن التي تنام في الظل. يقول دائماً إن الذي لا يعرف خمارات المدينة وزواياها المظلمة سيمر وكأنه لم يمر أبداً على المدينة.

شيء ما في المدن العربية يجعلها حزينة دوما حتى وهي في أقصى لحظات الفرح.

ـ ربما الخيبات المتكررة.

ـ ربما بكل بساطة أننا حرمناها بتخلفنا من أن تكون مدننا ونصر باستمرار على تحويلها إلى حجارة ميتة. أنظري حولك وسترين أن كل العابرين على مدننا العربية لم يعرفوا كيف يحبون ناسهم وتحولوا في رمشة عين إلى انكشاريين صغار وماتوا قبل أن يصيروا كبارا.

ـ يستاهلوا، حاسبين الدنيا ضايعة. لكن مدننا ليست بكل هذه القتامة. فهي تمنحنا من حين لآخر السعادات القلقة على العكس من

الانكشاريين الذين استبدوا فيها، لم يمنحوا شعوبهم غير مزيد من الموت والرخص والتذلل لأسيادهم. ما تزال في مدننا بعض الرحمة التي تجعل الحياة تطاق قليلا.

- Il faut vraiment être aveugle pour ne pas voir qu'on est dans des villes qui meurent doucement et dans l'indifférence la plus totale. D'ici quelques temps il n y aura que des cendres, et ce sont ces habitants même qui mettront le feu dans la ville qui les abrite?(9)

ـ هم الذين صنعوا هؤلاء القتلة. صحيح ولكن أليس من الأفضل أن يرى الإنسان الأشياء الأخرى التي تمر علينا بسرعة وهي ليست بكل تلك الرداءة؟

كنتِ صغيرة، والعالم غابة جميلة ومخيفة.

وكنت هائما في عمق الأسئلة التي لا تفضي إلا إلى مزيد من الانسداد والحيرة والخوف.

كان اليوم أزرق صافيا، يشبه عيون الصبية الذين لم تلوثهم لوحات الإشهار والربح السريع. اقترحت أن نجلس على حافة حائط عتيق، من بقايا الحيطان التي قاومت الغزوات القديمة، كانت عليه بعض الحمامات تنقر النمل وتتحين الفرص للانزلاق نحو غيمة مسافرة. كانت هذه التفاصيل الصغيرة تأسرك، أمور ورثتها عن أمك التي كانت كلما رأت حماما يقطع سماء حقول القمح والشعير أو سطح البحر، متجها صوب القبلة، حملته أشواقها وتمنياتها. تقول إن الطيور تسمع حتى دقات القلب وتفهم حتى البكوش الذي خسر لسانه وأبجدياته المسموعة.

ـ هذه الحيطان تعطي الإحساس بنهاية العالم لولا هذا الحمام الذي يبعث فيها الحياة؟

---

(9) علينا بالفعل أن نتعامى لكي لا نلحظ بأننا داخل مدن تموت بهدوء وفي ظل الإهمال الكلي. بعد مدة قصيرة لن يكون هناك إلا الرماد وسيكون سكان هذه المدن أول من يشعل النار فيها وفي الحيطان التي تحميهم.

ـ هل العالم بكل هذا السوء؟

ـ في بلداننا، كلما سقطت حجرة لا أحد يرجعها، تبقى هناك في مكانها حتى تلحق بها أختها وهكذا إلى أن يندثر المعلم نهائيا.

ـ وحياتك صرت لا أعلم، لماذا كلما التقينا نهض الحزن بيننا بقوة؟ هل قدرنا أن نمشي ونأكل ونتنفس داخل هذه الشقاوة؟

ـ وهل نهرب من شيء هو فينا؟ ألا ترى بأن علاقتنا بدأت تسرق منا؟ أفرغت لك ما في قلبي فصفعتني بصمتك أو التمتمات التي لا تفهمها إلا أنت.

ـ قد يكون من الصعب تقبل بعض الأمور ولكن عندما تنكسر تجربة ما، هذا يعني أنها استنفدت حدودها ويجب أن لا نحمل بعضنا البعض مسؤوليات ليس لنا فيها أي ضلع.

ـ هل صرنا مثل هذه الحيطان الباردة؟

ـ لا. ليس إلى هذه الدرجة. ما يزال بيننا متسع للحب والحرية والجنون. لو فقط ننسى قليلا انكساراتنا الصغيرة.

ـ لو... للأسف، الدنيا لا تسمع دائماً لنداءاتنا الداخلية. أنت الرجل الوحيد الذي رأيتني أبني معه شيئاً استثنائيا ولكن يبدو أن طلبي جاء في غير وقته أو ربما ليس من حقي أن أثقل عليك بهذه الأسئلة. مجنونة. وحياتك مجرد جنون لا معنى له. إنس كل ما قلت لك، فقد كان هذيانا مني.

ـ يا مريم، أنا كذلك أحبك ولكني لست مؤهلا لأن أكون زوجا. أعرف أني سأخذلك بكلامي هذا ولكن أفضل من أن أخذلك وأنا زوج لك، ربما كنت لا أستحق قلبك. أنت أكثر عنفوانا مني وأكثر صفاء. بالنسبة لي كل شيء ما يزال ملتبسا ومرتبكا. أنا رجل لا يعرف نفسه، ما يزال يبحث عنها؟

التفت نحو الحائط القديم. لم يكن يشبه شيئاً سوى الفراغ.

رأيت الخيبة في عينيك عندما التفت نحوي. رأيت شوقا عميقا يذوي مثل الزهرة الذابلة. حتى هذه الخلوة التي اخترناها في هذا المكان الذي يذكر بمتحف مهمل لم تنفعنا كثيرا. كنا نظن أنها أحسن مساحة لصفاء الذهنيات ولكنها رمتنا داخل ذواتنا أكثر. فقد ظل كل منا يركض في حقائقه المطلقة ولم يكن خارجنا إلا ديكورا مهزوما ومنكسرا. انطفأت المصابيح الصغيرة التي كانت تملأ قلبينا وحل محلها الكثير من الظلام.

البرد. دائماً البرد. أحس بما كانت تحس به أمك. أشعر بنفس خوفها.

مريم.. شيء يشبه اللعنة صار يكبر فينا. هل وصلت تجربتنا إلى الانسداد. هل الحزن قدر لا يمكن تفاديه. كنت دائماً تقولين عندما ضمنا سرير البيت للمرة الأولى في حي *الإطفائية* الذي كنا نقطنه: من اليوم حبيبي سألغي كل مواعيدي مع الكآبة والحيرة. ستكون فضائي الأكبر الذي أركض فيه وأستعيد أشواقي وطفولتي وكل حماقاتي الصغيرة. ما الذي تغير اليوم بهذه السرعة؟

وحين هممنا بالنهوض ومغادرة السور القديم، اقترحت مرة أخرى أن نبقى قليلا لأنك لم تشبعي من وجهي ومن الأشجار التي كانت تظلل لحظتنا. وبصمت جلسنا. كانت عيناك ما تزالان ملتصقتين بالوجوه المنهمكة في شططها اليومي وبالسيارات التي تمر مسرعة والقطط والشرطة الغارقة في تسيير تفاصيل المدينة المرتبكة.

فجأة تسلقت عيناك الشاردتان بوجه طفلة كانت ترتدي فستانا مخمليا فضفاضا لونه يميل نحو زرقة بحرية هاربة باتجاه أفق ممتد على مرمى العين. وكطفل شقي يكشف النقاب عن كذبته الصغيرة، تراقص أصبعك بين شفتيك المرسومتين بإتقان. وكالعادة التفت نحوي باحثة عن إجابات مقنعة لتساؤلات قديمة:

ـ شوف! ما أحلاها.

ـ جميلة. كلما رأيت صبية تسرح في الطرقات بحرية، أشعر أن الدنيا ما تزال بخير وأن الله لم يتخل بعد عن منح الحياة لجنس بشري لا يستحقها كثيرا. الحياة استحقاق.

ـ أسألك؟

ـ وماذا كنت تفعلين حتى الآن؟ اسألي.

ـ هل تحبني؟

ـ ياه... كم هو غريب هذا السؤال؟ وكم هو محزن؟... بعد كل هذا تسألينني إذا كنت أحبك؟

ـ أريد أن أسمعها فقط. ربما للمرة الأخيرة.

ـ لماذا المرة الأخيرة؟ أحبك. سأكررها دوما كلما التقيت بك حتى ولو في آخر الدنيا.

ـ وأنا نموت عليك.

تكورت الكلمات في فمك كجمرات محرقة مخلفة وراءها حمرة خمرية على مساحة وجهك الخجول دائما. أحبك! هل لي كلمة غير هذه لأعبر عن اصطلامي بك واندغامي فيك؟ كم أنك طفلة، لم تكبر إلا قليلا. فأنا دائما، حين أقول بأنك أصبحت كما أشتهي وكما تشتهي دروب المدينة الصعبة، أفاجأ بك تضعين إبهامك في فمك، تتلذذين بمصه وكأنه حلمة أمك. ما تزالين غارقة في أحلام طوباوية، بعيدة، بعد هذه المدن العربية عنا. مدن لا يحلو لها النوم إلا بين أذرع التجار والسماسرة والعساكر والرقص عارية على وقع الأحذية الخشنة والسكاكين التي تحز رقابها.

مشوهون ومحروقون يا مريم كدمى سوداء لعب بها الأطفال حتى صارت مملة ومنظرها يدعو إلى القرف والشفقة. لا شيء ينقذنا من أنفسنا المرتبكة إلا ذلك الشوق الملتهب الذي يأتي من عمق الروح المنكسرة. ذلك الشيء الحار أكبر من مجرد كلمة تنزع من

القلب، لتسكن بارتياح دماغا لا يعرف اليأس أو توضع ببؤس في الجيب كأية عملة نادرة.

ـ التفاصيل الصغيرة تقتلنا وتطحننا بلا رحمة.

أشهد أني رأيت الكثير أنا الطفل الذي سلبوه حليب أمه في غفلة منه. شربه أدعياء النبوة والصالحون الكاذبون، والأولياء الملتحون. شاهدت أشياء دقيقة تسرح على خديك وتقلقك حد الإحراج. مسحة حزن منداة بالدموع المسروقة تملأ عينيك ذات الاتساع الذي لا يحد، تحاولين عبثاً تخبئتها ولكنها تسبقك. عبثاً تجهدين نفسك. تخسرين المحاولة وتسبقك الدمعة المشوشة. هذه المدينة، كلما شعر المرء برغبة احتضانها، مسخت إلى أسراب من الغربان السوداء. وكلما اقتربنا منها، هربت نحو مسافة أبعد.

مزاجك صعب ومزاجي مرتبك.

اقترحتُ مرة أخرى أن تقوم.

ـ المدينة جميلة، ماذا لو عبرناها في هذا المساء الجميل. أريد بالفعل أن أمشي كثيرا؟

ـ لنمش. اليوم رائق.

كنا نعبر المدينة صامتين. نتدحرج في شوارعها التي لا ينتهي امتدادها. زجاج الفنادق الجميلة والغالية التي نبتت بسرعة عجيبة. الواجهات المغرية التي تجذبنا نحوها، الروائح التي تنبعث منها. الأسعار التي تحرق الأصابع ولكننا نسأل دائماً لنجد مبررا يؤهلنا لمثل هذه الأسئلة وحتى لا نظل مشابهين لميتين يمشيان في شارع.

جميلة هذه المدينة لحد أن من لا يعرفها، يسقط على صدرها الملتهب مغمض العينين. كنا نتمادى فيها بحذر. كل المدن خادعة. ولا تقوم إلا عندما ينتابها الجوع إذ تستيقظ جائعة على طبول الحروب القومية الكبرى، تلتهم أبناءها، ماسحة في أثرها الأخضر واليابس. ويظل الراقص يرقص والحزين حزينا والميت ميتا وكية اللي جات فيه.

ـ هكذا هي مدننا كما امحمد الهمّ. تضحك ناكلك، تبكي ناكلك.

ـ.... ... ...

لا شيء. لأني لا أملك ما أقوله. أنت سيدة الكلام والتعبير المكشوف والحر وأنا سيد الصمت وغوايات العزلة. ألم أقل لك يامريم. أنت والمدينة شيء واحد. كلاكما يبحث وسط هذا الخوف المستشري عن وجهه البحري الأكثر نصاعة والأكثر حياة.

فجأة في الطريق المؤدي إلى شركة الإعلانات، شعرت أننا قريبين من بعضنا البعض حد الاندغام. ربما كانت بيننا تفاصيل صغيرة لم تقل بعد، كل واحد يضمها إلى صدره في انتظار الفاجعة التي تنضج على نار هادئة. أحيانا أتساءل إذا لم تكن سعادة الإنسان رهينة هذا الخواء المقلق الذي لا أجوبة له. ما زلنا صغارا، على الرغم من أن كلانا يتكور كالجنين في رحم هذه الطرقات الصعبة وهذه الشوارع التي شهدت ميلاد آلامه الشاقة التي تنذر بفقدان قادم. قلتِ وأنتِ تبحثين عن مهرب لخوفك:

ـ لا. لا. أرفض أن أسلم في الأمر بهذه السهولة. لن أقبل بهذا القدر المسلط علي بسهولة والذي يشعرني دوما بالفقدان.

ـ من يصنع هذا الخوف؟ أنت؟ أنا؟ الله؟ الصدفة الملعونة التي أيقظت فيك فجأة حنينا دفينا إلى الأمومة؟ لا أدري إذا لم نكن نحن سادة أقدارنا؟

ـ أرجوك للمرة الأخيرة، هزني بعنف؟ أيقظني من هذا السراب المخيف قبل فوات الأوان؟ لا تتركني أقتل تجربتنا الرائعة. من العبث خسران كل ما بنيناه.

ـ.... ... ...

ـ مرة أخرى تعود إلى الصمت. صمتك يؤذيني لأني أشعر وقتها أن ما تخبئه مفجع. لا تملك أية كلمة لنجدة هذا الحب؟

ـ ربما كانت الهزات العنيفة تقوي الأشياء.

ـ الزلازل العنيفة لا ترحم لا الهش ولا القوي.

تزداد الشوارع طولا وامتدادا ويحفر الصمت والحزن فينا أخاديده الواسعة. تهتز الكلمات يتيمة تحت لساننا.

تمتمتِ وكانت يدك في يدي تزداد برودة.

ـ تعرف لا أدري كيف ولكن أشعر بيدي باردة. أمي...

ـ أرجوك مريم، قللي من حساسيتك المفرطة. لا يوجد أي مبرر لكل هذه الحيرة. نحن مع بعض وهذا حظ كبير.

ـ حظ كبير...

نظرتِ إلي. كانت عيناك صافيتين على الرغم من الكآبة التي كانت تخيم عليهما. كنت جميلة ومدهشة.

ـ أشعر كأنك تحملني هذه الكآبة؟

ـ بالعكس يا مريم، أحملك كل ما حدث لنا من أشياء جميلة. هل يمكن أن نمشي قليلا بصمت؟

ـ وإذا تعبنا.

ـ من الصمت؟

ـ لا. من المشي.

ـ عيناك محطتان.

ـ يا ملعون، تفاجئني دائماً بأشيائك الجميلة حتى عندما أقنط منك. أنت تجردني من كل أسلحتي ضدك لإقناعك. كم أشتهيك وأشتهي لغتك وأخاف عليك منك ومني.

فجأة تغير وجهك وكأنك كنت تنتظرين فقط تلك الكلمة الهاربة التي تعيدك إلي. على امتداد الطريق، شاهدت ابتساماتك تنزلق وتذوب كقطع الثلج، ثم تتكسر على شفتيك. ابتساماتك دائماً هكذا، بسرعة تتقد وبسرعة تتهاوى كالأنجم الهاربة. تحلمين بغزو البلدان البعيدة، لكن في أعماقك تشعرين بأنك عاجزة عن ممارسة المغامرة

المعقدة لوحدك. تحلمين بالفساتين الرائعة وبناطحات السحاب التي تتقاتل داخلها الألوان والأحلام والمصالح الضخمة ويتخرم في أنفاقها يوميا آلاف الخلق البسطاء الذين يعيشون انهياراتها الداخلية يوما بعد يوم. تتمنين أن تصيري مثل أبطال حكايات جدتك التي ماتت وفي حلقها بقايا الخرافة الأخيرة. كانت جدك تحكي وتصدق ما كانت تحكيه. معها ترحلين، تدخلين بلادا تخرجين بلادا، تلتقين بكل الوجوه التي حلمت بها وأنت صغيرة.. كيف الأحوال يا أهل البلاد؟ أهلا بالأحبة؟؟ هل مرت مرة هنا العصافير وأشجار الياسمين؟ جئت من البلاد البعيدة لتخليصكم من شراسة الأغوال والأهوال وأتزوج بابن السلطان، هل من منافسة في بلدتكم؟ تنحني كل الرؤوس تعبيرا عن الولاء واعترافا بجمالك وأحلامك المجنونة. وتتخيلين نفسك تنشرين عدالة سيف بن ذي يزن وعنترة العبسي. كنت تتعشقين سيرتهما إلى حد الرعشة عند سماع اسميهما.

ـ جدتي الله يرحمها لم تكن تملك إلا الكلام. به تمرضني وبه تشفيني عندما تراني منكسرة. جدتي صارت في.

وفي النهاية، عندما تستيقظين من غفوة الجدة، وكجميع عشاق القصص والحكايات، تحلمين بفارس يمتشق شوقه الكبير وبقلب نابض بالأحرف الجميلة يحتضن يتمك وشقاوتك وخوفك من الزمن والدنيا من أن تموتي قبل أن تري جزءا من لحمك ينفصل عنك ويعطيك الاستمرارية في الحياة.

ـ كم الدنيا ظالمة وحقودة.

ـ يعني؟

ـ لا أريد أن أسمم عليك وعلي هذه الحالة الجميلة. يكفي ما صدر مني.

صغارا نأتي.

ولا شيء نمضي.

شدو العصافير وهديل الحمام، ميراثنا. نبحث وسط الأبجديات المنسية في القمامات، عن حرف براق، قاطع بحد السيف، وجميل، يثير فينا دهشة الخوف.

وحين نخسر فرحتنا، ندرك متأخرين كم كنا غرباء في هذه الدنيا القاسية.

وحيدين نأتي ولاشيء نعود إلى مراثينا القديم.

16

مريم أشتهي أن أراك مثلما رأيتك لأول مرة، مفقوعة بالضحك، دموعك مثل السيلانات. لم تستطيعي التوقف. عندما سألتك، قلت: Boof, juste un fou rire الله غالب، عندما أضحك، أضحك من قلبي. من لا شيء تنحتين القهقهات التي تسمع من بعيد. أريدك هكذا ولكن هل لي أن أحتم عليك حالة صارت مستحيلة الآن؟ كم أحزن عندما تمتلئ عيناك بالسواد المنهك والألم، وعندما تتشوه الابتسامات على شفتيك اليابستين وتبدأ كل الأشياء الصلبة في الذوبان كأحجار البراكين.

البرد دائما. الأمطار توقفت وأنوار المدينة اشتعلت.

في خلوتنا الصغيرة، تحرقين سيجارة شاحبة هروبا من بؤس اللحظة التي تؤذيك:

ـ انس الهم ينساك. خذ واحدة وبركة من الفهامة. يا حبيبي، دفء السجارة يخرجنا من الرخاوة والحزن. ياه كم تغيرتُ منذ تلك الرسالة الأولى المرتبكة التي سلمتها لك في رأس السنة وأنا خائفة من ردة فعلك. كم هو صعب أن يقول إنسان لآخر أحبك. كلمة من ثلاثة حروف تؤرقنا إلى هذه الدرجة؟

ـ لو لم تقوليها لتغيرت أشياء كثيرة في حياتنا. كنت أشجع مني وأكثر جرأة فقط. الدخان يا مريم. صحتك. ألم يقل الطبيب إن رئتيك وقلبك لا يتحملون التبغ؟

- يا سيدي! خلها على ربي.

- تهمني صحتك يا مريم.

- تعرف يما واش كانت تقول. اكسيني اليوم وعريني غدوا. لما يجي الموت خليه يدير في واش يحب. أما الآن أنا ندير في يمات يماين هذه الرئة وهذا القلب المهبول واش نحب. نبرد جنوني فيهم. نشبع من كل حماقات الدنيا.

- ولكن هذا ليس حلا.

- يا خويا لا عليك. المطلوب منك أن تحبني فقط وخليني نموت كما أشتهي. الموت هو أسوأ الأقدار المحتمة.

- أحبك. هل يجب أن أكررها عليك في كل لحظة لكي تقتنعي بأنك تملئين هذا القلب؟

- لا يمكنك أن تكون جديا.

- طيب وماذا أفعل الآن؟

وعندما تتهاوى الأسئلة وتترك مكانها للنكت العارية، لا نمتلك إلا أن نضحك عاليا، كعاشقين يكتشفان بعضهما البعض لأول مرة ويتصيدان لحظات السعادة. ثم نذوب وسط زحام الناس البسطاء الذين تركتهم المحلات والجولات المسائية فارغي الأيدي والجيوب. عندما تبدأ المدينة في غلق أبوابها، أراهم واقفين كأعمدة الكهرباء المتآكلة، متكئين على الحيطان أو على مقدمة الحافلات القديمة في انتظار إقلاعها، أو عند مداخل الدكاكين الصغيرة التي تبيع السكر والمازوت والغاز والزيت، يقومون بآخر المشتريات.

أنظر إلى عينيك.

- نعود؟

- لا. أريد أن أمشي. وإذا استطعت أن لا أتوقف سأكون سعيدة. إذا تعبت أنت أدخل وإذا كنت تحبني ابق معي قليلا.

- أحبك ومتعب وباق معك. مليح؟

- مليح جدا.

نغوص داخل تفاصيل المدينة الهادئة. تنام يدك الباردة في عمق يدي، عصفورا حزينا يبحث عن لحظة دفء. المدينة باردة وهي في مثل هذه الفصول لا ترحم.

- ياه! أين ذهب كل البشر الذين كانوا يملأونها حياة وزعيقا؟

- كلهم ناموا. وفجرا، تستيقظ همومهم وخيباتهم الصغيرة فيعاودون كرة الدوران حول أنفسهم.

- ومع ذلك طلباتهم للحياة متواضعة جدا.

- الإنسان العربي هكذا. يولد ويموت في الهم. وكلما رأى شعاعا صغيرا في الأفق، شعر بتخمة في السعادة وعندما يقترب يصفعه السراب القاتل. الإنسان العربي لا يعرف أنه كلما خطا خطوة إلى الأمام متحاشيا المزالق السابقة، وجد في طريقه من يأخذ بيده ويزج به نحو الحفر والمدافن.

- في مدننا شيء من السحر والغواية لا يعرفهما إلا الشعراء والسكارى والمجانين. هذه المدينة تهبلني خصوصا لما أكون معك. اسمع هذا النشيد وهذه الزقزقات وهذه الأصوات القادمة من بعيد؟ ألا تسمع؟

- بلا. الحكواتي والمسحراتي وبائعو البسطة والعربات الصغيرة المملوءة باللوز الأخضر والفول الذي يرى بخاره من بعيد ممزوجا برائحة الكمون والكروية والتوابل المختلفة. هنا حافظوا على كل شيء يعطي للمدينة حياتها العميقة. في أرضنا كل شيء جففوه حتى الماء ورحمة ربي.

- أنا مثلك في الألم. حزينة على أرضنا التي قتلها المناضلون والثوار. من فرط حبهم لها خربوها وشلوها بل قتلوها.

جملتك التي تسبقك كلما ملأك شوق البلاد والأحباب. دائماً كنت

تقولين هذا. وكطفل بدأ يفتح عينيه في مدرسة قروية مهملة، أحفظ ما تقولين عن ظهر قلب. وهذا ما يدفعني في بعض الوقت إلى الشعور بأن في قلبك خلجانا من الفرح والحب على الرغم من مزاجك القاسي الذي يتعكر بسرعة.

وحين يفاجئنا الفجر بنوره الخفيف ويبدأ عمال البلدية في إطفاء أنوار المدينة، ونهم بالعودة، تنكمشين على نفسك كقطعة صوف ملونة. أتطلع في عينيك الحزينتين، فأتذكر شقاوة ومتاعب اليوم بكامله من لحظة خروجنا، حتى هذه اللحظة ونحن واقفين على الرصيف، شبه سكارى بشوق المدينة، في انتظار سيارة أجرة. نتكئ على بعضنا البعض من كثرة المشي ثم فجأة نرى النور في بيت عيد عشاب في الطابق الخامس. نتهامس. نشتري قنينة عرق الريان من الزاوية المقابلة لبيته ثم نصعد إليه الخمس طوابق.

تتمتمين وأنت تلتقطين أنفاسك حتى الطابق الخامس:

ـ الله لا يوفقك يا عيد. ألم يكن بإمكانك أن تسكن غير هذا الملحق الملعون، بدون مصعد، مثل اللقلق؟ تحتاج إلى من يحبك كثيرا يا ابن الحلال لكي يقبل صعود كل هذه البلاوي.

تأخذين نفسا طويلا. أدق على الباب.

يفتح عيد عشاب الباب بعينين صاحيتين مثل الديك الذي لم ينم طوال الليل، في يده اليمنى كأس عرق الريان المعروف من رائحته القوية التي تُشم من بعيد.

ـ واش راك يا عيد؟ في البداية خفنا من إزعاجك ولكن عندما شفنا الضوء قلنا الأكيد إنك مازلت سهرانا.

ـ النوم والموت شيء واحد. لا أنام كثيرا. كنت بصدد إنهاء كتابة وقائع اليوم في مذكراتي. في يوم من الأيام أعطيها لك لتقرأها وتقول لي رأيك في تخريفي هذا.

ـ أن يقول الإنسان ما يشعر به تجاه الحياة، ليس سيئا. نحتاج

إلى هذا النوع من المصارحات مع أنفسنا من حين لآخر. بدأنا ندخل في دائرة كل شيء فيها صار ضيقا مثل النعل. لمن تقول حرائقك وأشواقك؟

ـ ما تزعليش مني يا مريم؟

ـ ليش أزعل منك؟

ـ أنا لا أقول شيئاً في المذكرات إلا هذه النافذة التي أتسلل من خلال ستائرها لأرى سيلفيا، وألعن صبحا ومساء كل أديان الدنيا التي تحرم قلبين من أن يلتقيا. الأديان عوضت شريعة الغاب بشريعة الغباء.

ـ الأمر ليس بهذه السهولة يا عيد.

ـ بلا سهولة بلا بطيخ. واش تشربون؟ مريم؟

ـ عرق. واحنا معك نقدر نقول غير العرق؟

ـ كان سيدي الأعظم محي الدين بن عربي الله يرحمه ويوسع عليه، يصنع العرق من تمور بلاد ما بين النهرين بيديه ويعتقه قبل أن يذهب نحو «*طوق الياسمين*» لرؤية النور ملتبسا بالأشعة والماء والضباب. بعد كل هذه السنوات، بدأت أتعلم الحرفة.

ـ شهيتنا في «*طوق الياسمين*».

ـ وعدتك ولم أكن متخطيا العتبات كما كنتَ تتصور. بل كنت داخل العتبات ذاتها وليس على حافتها.

ـ كنتَ محقا.

ـ الصدفة هي التي جعلتني أكتشف هذا الطوق وإلا كنت سأنطفئ من هذا البلد بدون رؤيتها. خادم مقام سيدي هو الذي قادني نحو هذه التفاصيل. سهام كانت تشتغل في بحثها عن الصوفية وعن ابن عربي تحديدا، لم يكن المرض الخبيث قد أصابها بعد وصممت أن تزوره وتزور ضريح الأمير عبد القادر وأن

تأخذني معها. خادم المقام هو الذي استلمنا منذ العتبة الأولى، في النهاية نصحنا بزيارة «*طوق الياسمين*» أو باب الأنوار. رافقنا في أحد أصباح الجمعة. ينصح خادم المقام بالزيارة فجرا، بالضبط في اللحظة التي يبدأ فيها الشعاع الأول في الشروق. بعد أن قطعنا الخلجان وحقول الدفلى التي كان سيدي يحب نوارها، داخل طقس أسطوري يبدأ بكيفية فتح الطريق وسط النباتات المتوحشة بدون إتلافها حتى طيران السرب الأول من النوارس وينتهي ببروز العوامة التي أركبنا فيها خادم المقام قبل انسحابه. العوامة لا تأخذ أكثر من اثنين: رجل وامرأة أو شخص واحد. الدليل الذي يجلس في المقدمة تكاد لا تراه من كثرة الضباب الذي يغطي جزءا كبيرا من الماء. وعندما تخترق الأشعة الضباب الرهيف، تصاب العيون بالغشاوة ويصعب فتحها وهو ما كان سيدي الأعظم يسميه بالفيض. قضت سهام بقية يومها مصطولة. لم تصدق عينيها أن هناك سحرا في هذا البلد لا يصله إلا من تخطى القوس الثاني. على كل يجب أن تزور المكان مع خادم المقام. سأكلمه. أنا أزوره مرة في الأسبوع ويمكن أن أفتح معه الموضوع. خليها عليَّ.

وعندما يغالبكِ النوم ونستعد لمغادرة بيت عيد عشاب، قبل أن تطب عليه صاحبة البيت فجرا لترى ما إذا كان قد نام عنده شخص غيره لتطالبه بالزيادة في الإيجار.

يطمئننا هو بسخائه وطيبته.

ـ لا تهتم. خليكم معايا. أنا اليوم مثل العريس. أتحرك، أمشي، أستقبل الأحباب، أُبيت عندي من أشاء بدون خوف أبدا. باختصار، أعيش حالة استقلال قلما أعيشها. الليل في بدايته والحجِّي راحت عند ابنتها في المخيم. امرأة طيبة ولكن مقلقة. الله يسامحها. منذ أن قاطعني الوالد، أصبحتُ ثقيلا عليها. المهم، اليوم بالذات ما فيه حدا راح يطب علينا في هذه الساعة إلا الأصدقاء الضائعين مثلنا.

ثم يفتح قنينة عرق الريّان التي أحضرناها له، يغسل من جديد الكؤوس التي شربنا فيها، يقول عيد إن طقوس الشرب يجب أن تحترم وإلا لا معنى للجلسة. كلما تم فتح قنينة جديدة، وجب تنظيف كل شيء من دارة وجديد، ثم يقطع قرص الشنجليش ويضع عليه نتفة من زيت الزيتون وقطرات من الليمون. يحضر بعض أقراص الفلافل، يغسل وجهه ثم يأتي ليجلس، مربعا رجليه، ويفتح السهرة وكأنها تبدأ لحظتها.

الفصل الثاني

الطفلة والمدينة

1

لو تدري كم أشعر باليتم في غيابك؟

كنت أظن أن الزواج سيفتح كل أبوابي المغلقة ولكن يبدو أنه مؤسسة لا تختلف عن بقية المؤسسات الأخرى التي لا تعمل إلا على تهريب عواطفنا وتعليبها والتصديق بالكذبة الجميلة التي نبتدعها باستمرار حتى لا نموت قهرا. أعذرني. منذ زمن لم أرك، ربما لأني أحاول عبثاً أن أدرب نفسي على نسيانك وأقول لنفسي الآن صرت في بيت رجل آخر وعلي أن أظل وفية له وأخادع باستمرار عواطفي الداخلية. أنت تعرف أن ما كنت تحذرني من خطره صار حقيقة. القدر أحيانا يحول سخرياتنا إلى حقائق. في حياتي لم أكن أتصور أني سأصبح زوجة لجعفر. ركض ورائي حتى سحبني نحوه. عرف الفجوة التي تركها في غيابك وجعلني أصدق أنا المجنونة بك أنه في النهاية رجل والرجال لا يختلفون كثيرا. لا أريد أن أقول لك أني أخطأت في تقييمي فتلك مسؤوليتي ولكني أشهد لك اليوم أني عاجزة عن مقاومة غيابك. هل تدري كم أحبك وأني كلما تذكرتك رابطت عند النافذة علني أراك. أنا منكسرة وميتة، لا تلمني إذ منذ ذلك الصيف الفارغ خرجتَ ولم تعد. قلت لي:

ـ أبارك زواجك. دجيف Djeff إنسان طيب وسيسعدك.

كنت تكذب على نفسك وعلي. كنت منكسرا أكثر مني. قلتُ لك:

ـ بإمكانك أن تبقى معنا في نفس الفيلا مؤقتا لأننا لن ننتقل إلا

بعد شهر إلى بيت صغير في الروضة في انتظار كراء شقة ملائمة بعد العودة من شهر العسل. وضع جعفر المادي جيد. لن نزعج الأصدقاء الذين يعيشون كلهم على منح الوزارة في فيلا الإطفائية.

قلت بدون تفكير مثل طفل يكشف فجأة عن كذبته المخبأة:

ـ تريدينني أن أبقى هناك وأنت بين يدي رجل آخر. فوق طاقتي. لا أملك الشجاعة الكافية للقيام بذلك. أعتقد أني لم أستطع أن أمنحك ما منحه لك جعفر. كل الخير أتمناه لك.

خرجتَ ولم تعد. ذهبتَ نحو حي شعبي وسكنت في عمق حي سوق ساروجا الذي تخبئه واجهة سينما السفراء والمحلات والمطاعم الكثيرة، تقضي جل وقتك بين الحمام التركي الذي كنت تجد فيه متعة للتأمل مساء والكتابة. حتى في الجامعة صرتَ بعيدا، متأخرا تدخل وتخرج قبل الجميع.

هل نقاطع من نحب هكذا؟ نظن. لا أجد شيئاً واحدا يكرهني فيك، بل كل شيء يقودني نحوك. مع ذلك كنت أتحاشاك مثلما كنت تتحاشاني. وافترقنا، أنا ذهبت نحو أثينا ثم باريس لقضاء شهر العسل وأنت دخلت إلى الوطن. كان قلبك ممتلئا وكنت حزينة عليك وعلى نفسي. في باريس لم أر شيئاً سوى ما رأيته أنا وأنت في رحلاتنا المسروقة. جعفر يتبعني وهو لا يعرف أني في نهاية المطاف كنت عبثا، أقتفي خطاك كالمجنونة.

حين عدت متأخرة جداً إلى مدينتنا، كنتَ قد احتليتني عن آخري ولم يعد الزواج إلا جزءا من الخطيئة الكبرى الذي وضعتني في طريق جعفر أو وضعته في طريقي. أول شخص فكرت في لقائه هو أنت. أنتَ فقط ولا أحد غيرك.

لم يبق أمامي إلا الاتصال بك عن طريق صديقتنا سيلفيا التي تطوعت للربط بيننا. كانت متأكدة أن ما حدث بيننا لم يكن إلا خطأ علينا تصحيحه بأي شكل من الأشكال. يوميا تؤنبني، حتى جعفر صار يكرهها.

ـ ولك مجنونة أنتِ؟ الله أعطاك كل خير وأنت تضيعينه بحماقة. ما تدفني حالك حية.

ولا أجد لها أجوبة إلا تحميل الأقدار ومزيدا من الكذب والسخافات التي لم تعد تقنعني أنا نفسي فكيف أقنع بها غيري.

ياه... كم كنتَ دافئا في تلك الليلة عندما زرتني في غفلة من الكل. لم تمسسني ولكني شعرت بحرارتك.

عندما تنتهي غفوتي وأعود إلى رشدي، لا أجد سبيلا سوى مقاطعتك ولكني سرعان ما يعاودني مرضي وأجدني فجأة أركض وراءك وأبحث عنك في المدينة. وكالمجنون، أعثر عليك داخل نفس الحرائق، تبحث عني. لم أسألك كثيرا. كنتُ أريد أن أقول لك بصوت عال: خذني إلى بيتك. أخذتني بدون أن تسألني. عريتني عن آخري وعريتك. بكيت على صدري طويلا وبكيت طويلا. اليوم كله قضيته بين ذراعيك أغوص في رائحة جسدك. في البداية كنت أخاف من الحمل ولكن مع تكرر الزيارة لم يعد شيء يهمني، بل صار يهمني أن أحمل منك. ولم أشعر أبداً بالندم تجاه ما فعلته معك. لأول مرة أشعر أني كنت صادقة في حبي ولم أكن أمثل مطلقا. كنت أريد أن ألومك لكن لم أكن أريد مطلقا أن أضيع هذه الفرصة.

كلما اشتقت لك، جئتك إلى بيتك في حي سوق ساروجا الذي لم يكن أحد يعرفه، سوى عيد عشاب وسيلفيا، صديقته الشابة المسيحية التي ظل يعشقها من وراء الستائر قبل أن تمنحهما بيتك للقاءات عابرة من حين لآخر، كلما غبت عن البلد أو ذهبت نحو الحمام التركي القريب من بيتك. صرت كلما مررتُ عليك، من الباب يأخذني نحو جسدك كالمفتون. في النهاية تسحب من تحت رأسك مذكرات عيد عشاب وتقرأ علي بعض كلماته المشنوقة المنكسرة. أحسست يومها وأنت تحدثني عنه، أن عيد عشاب لن يقتله العرق ولا البراندي أو المازوت كما كان يسميه ولكن ستقتله المستحيلات: امرأة دوخته، لم يستطع أن يجاري حماقات أهلها بعد أن رفضوا تزويجها له بحجة إسلامه، أب غني لم ير وجهه إلا في الصور وهو

في لباس المحرم يقوم بمناسك الحج، وموهبة فنية لم تجد من يفجرها، ووطن ظل يشبه الضباب والأدخنة الداكنة.

موجوعة بك أيها المجنون الذي لا تستطيع امرأة فهمه مثلي.

موجوعة بحبك. أما زلت تتلقى رسائلي بشوق كما كنت تفعل دائما؟ العادة قاتلة ومع ذلك نحن أحيانا في حاجة ماسة إليها. في حاجة لأن أمارس معك أبسط الأشياء اليومية، كأن أقول لك صباح الخير. صباح الخير يا روحي. لم أتوقع أني سأجدك هنا.

اغفر لي أني لم أكتب لك شيئاً في المرة الماضية. أنت معي دوما. أنت في الأعماق. مقالك الماضي في الجريدة قرأته ولكني أحسست كأنك في الأخير قطعت نفسه. كأنك كنت مستعجلا على إنهائه لا أدري لماذا. ربما كنت مثلي مشغولا بوجه يملأ عليك كل خواتك. لا تزعل، سأمر عليك الأحد القادم ربما استعطت رؤيتك. كم أريد أن أشتهيك وأن أعشقك لكن قدرا غامضا ينحتني من الداخل ويمنعني بل يعذبني ويتفنن في ذلك.

هل تعرف أيها الحبيب الغالي أني بدأت أخسر الحياة وصار الموت حالة يومية تعاش بقسوة. أشعر بالعبث اليومي وبالخسارات الكبرى. لا أريد أن أثقل عليك. ستقول لي أيامنا محدودة ومن الأفضل أن لا نلتصق بحالة لا أحد يستطيع أن يهرب منها. على الأقل مادام الوضع هكذا، ليبق الموت في هامش العزلة والنسيان.

يا مهبول؟ أما زلت تشك؟ أحبك... أحبك... أحبك... و أنت لا تتوقف مطلقا عن سخريتك:

ـ صحيح يا مريم؟

ـ الذي حدث أنا مسؤولة عليه. لو لم أحبك ما جئتك. أتشك؟

ـ لا. ولكن ليطمئن قلبي.

ـ ياه؟ فعلاً أنت ميئوس من تغييرك.

مر على عودتنا أكثر من السنة ولم أعد أسأل كثيرا عما يحدث

لي لو كشف أمري معك وأنا اسرق اللحظات. الحياة نهب مستمر. أتدرك أني كلما بكى طفل في الجوار، تحسست بطني؟

في البداية لم أرد هذا الحمل. أسميته الكبول. كل ما يأتي من زوجي لا يمكن إلا أن يكون كبولا لا ذنب له. لأني كنت أظنه ثمرة جعفر، هذا الرجل المتهالك الذي كلما عدت إلى البيت سعيدة، ينظر إلى عيني بعمق ثم يذهب نحو شانه. لكني بحسابات صغيرة تأكدت من أنه منك كما أردتُه. التحاليل التي أجريناها أكدت سعادتي. كنت أريده منك لا منه. عندما عرفت أنها صبية، زاد فرحي. لأول مرة أشعر أن الله كان يدللني. سارة، هكذا سأسميها، سأقول لها عن كل شيء عندما تكبر وستغفر لي حبي المجنون لك. أشهد أنك الرجل الوحيد الذي مارست معه هذا الجنون.

سارة هي صِدْقي الوحيد مع نفسي وسط هذا النفاق المعمم.

لعنتك تتبعني.

ياه... لا أدري إذا ما كان عليَّ أن أزعل منك أم أعضك أو آكلك أو ماذا أفعل معك وبك؟ كم كنت غبيا يوم وقعتَ تحت وطأة فلسفة فارغة وحدك كنت تعرف جدواها وحماقة سرقتني منك وسرقتك مني. ستقول لي هفوة؟ مزلق غير محسوب؟ أقول لك وأنا أضع الأملاح على جراحاتي لكي أتمكن من تحمل قساوتها ليلا عندما ينفتح كل شيء نحو المبهم وحتى لا تصير واسعة وعفنة وتصبح مداواتها مستحيلة، لم يكن من حقك خسراني بتلك البساطة ولم يكن من حقي توريطك في نفق عظيم أدركتَ سخافته قبلي.

ياه... ما أقصر حيلتنا؟ علينا أن نخادع العالم كله لنحصل على شيء كان يمكن أن نحصل عليه كما نشتهيه لو عرفنا كيف نتصرف. شيء ما في الإنسان يقوده دوما نحو حتفه وتلاشيه.

ومع ذلك، ما زلتُ هنا، على هذه العتبة التي لم أردها، أواجه رياح اليأس وأحلم أن أراك كلما أشرقت الشمس وكلما غربت.

مريمتك الصغيرة التي تعيش دوما فيك ولك وبك.

2

الذاكرة مثل العاصفة أو الجنون، عندما تستيقظ لا أحد يستطيع إيقافها، تجرف كل شيء في طريقها بلا رحمة. كانت الأوراق القديمة التي تشبه مخطوطا من مخطوطات مكتبة الظاهرية تتزاحم في ذهني الواحدة تلو الأخرى. أحاول تنضيدها وتنظيمها ولكنها تتسابق لاعتلاء الذاكرة.

«*باب الجنون*: اليوم رجعت إلى البيت منكسرا. ذهبت لأرى سيلفيا وأهلها. خبأت رأسي بين يدي وزدمت عليهم ولم أعد أسأل عن النتائج. قلت في نفسي قبل الدخول أنا خاسر خاسر، على الأقل أقول واش اللي في قلبي. حتى سيلفيا فوجئت بوجودي. هذه المرة طلبت يدها رسميا من والدها. قالوا لي دينك. قلت مسلما ولكني أحب سيلفيا. ثم كرروا: دينك؟ قلت بلا دين إذا كان هذا يحل المشكل. والأولاد؟ قلتُ: تسميهم سيلفيا إذا شاءت، بيار، جون، هيلين، ماري، ميمون، محمد، لا يهمني مطلقا. تهمني سيلفيا والبقية كلها تفاصيل. قال أبوها كلكم تقولون نفس الكلام؟ المشكل أنك مسلم. قلتُ سأذهب إلى الكنيسة وأعتنق المسيحية أو اليهودية فأنا قرأت العهدين القديم والجديد وأستطيع أن أكون ما تشاؤون. قال أبوها: دينك يأمر بقتلك في مثل هذه الحالة، ألا تعرف؟ قلت أعرف وأعرف أسوأ من ذلك. لكن الدين، كل الدين، هو ما نحمله من خير للناس. كنت صادقا وعفويا ولكنه رفض. جورج لم يتحمل مناقشتنا المجنونة، خرج ولم يقل شيئا. سيلفيا نظرت إلي ثم إلى والدها

وخرجت بدورها ولم أبق إلا أنا ووالد سيلفيا وأمها والصمت الذي كان يشبه الموت. قلتُ: ما هو المطلوب مني؟ قال والد سيلفيا: أحسن ما تفعله هو أن تترك ابنتي. حتى ولو رضيت أنا إرادة أخرى تتجاوزني لأنك مسلم بكل بساطة.

خرجت بدوري. كان الشارع مثقلا بالبشر. هاتفت عاشور وصحراوي وذهبت عندهما. كانا عكري المزاج. شربت معهما قليلا من المازوت(البراندي الرديء مخلوط بالكوكا) وخرجت من جديد إلى الشارع. مررت بعدها على رابطة طلاب المغرب العربي. وجدت إعلانا كتب عليه: على الطلاب غير الممنوحين تسجيل أسمائهم للحصول على مساعدة. كنت بحاجة إلى ذلك. والدي نسيني في هذا القفر. منذ أكثر من ثلاثة أشهر لم يبعث لي شيئا. أحيانا أتساءل إذا كان من حقي انتظار زكاته هذه التي تأتي ولا تأتي. ومع ذلك أشعر به بعيدا عني وأني بدأت أقتنع أني بدون أب. أعضاء إدارة الرابطة كانوا غائبين، فلم أستطع فعل أي شيء سوى استلام الرسالة التي وصلتني من سهام الطيبة التي رفضت كل الرجال. تقول دائماً إنها ستموت قريبا ولا تريد أن تحمل على رقبتها آلام رجل طيب. هي كذلك حياتها تزداد تعقيدا. وضعها يتغير كالريح والسماء. الله يكون في عونها، بين ابن عربي والصوفية من جهة، وهذا المرض الخبيث الذي يأكلها بصمت من جهة ثانية. ورجعت إلى مكاني الطبيعي، وراء الستائر، في الجانب الخلفي للنافذة المطلة على غرفة سيلفيا التي كانت مطفأة ولم تكن بها حياة».

من أوراق عيد عشاب

من أين يأتي كل هذا النحيب وهذه الأصوات التي تنحدر بي نحو مهاوي الفقدان؟ من أين يأتي كل هذا الكم من اليأس والخيبات المتتالية؟ جرح عيد عشاب وسيلفيا كان ينزف في.

ثم ماذا أيها الطفل المصنوع من حجر الخوف والوحدة ومن

ليالي الغربة التي تأكل أطرافك يوميا، الأشواق الإنسانية ومتاعبها ليست بالبساطة التي يرسمها لك عقلك المرهق. افتح عينيك أكثر ياصديقي وسترى أن المسألة معقدة حد الخوف منها وجميلة حد الجري وراءها حتى التهلكة.

هل بدأنا الحكاية؟ أم مازلنا على الحافة؟

أية حافة؟ ياه!؟ حافة القصة التي جمعتنا ثم رمتنا كل واحد في زاوية. ربما كانت حافة التفاصيل الزائدة. لا يا صديقي لا توجد تفاصيل زائدة. كل ما نعيشه من أشياء صغيرة لو جُمعت لأعطت كونا كاملا ينبض بالحياة.

هه ومن بعد؟

ثم ماذا بعد يا شقية الذاكرة وشهية القلب، ما يزال بينها وبين المدينة ليل من الغموض والمعابر الصعبة والمستحيلة.

أطفالا كنا، نتعشق فيروز والشيخ العفريت وموسيقى رافي شنكار وأغاني البلدة القديمة التي ما يزال وقع طبولها الإفريقية يدغدغ أجسادنا كلما ركنا إلى قليل من الراحة.

يا عشاق الزين سامحوني،

ياك القلب مكين،

يا بويا حنيني طاب قلبي من كلمة لا ... لا.

نتشرب هم الغربة في هذه البلاد التي تعشق بحدة وترتجف تحت وقع الأحذية الخشنة كطائر قزحي الألوان مهدد بالذبح العلني. مسكينة، مثل جميع المدن العربية، تفتح مجبرة قلبها ورجليها لكل القادمين الطيبين والمرشوين والغامضين والسماسرة. تحاول جاهدة أن تقف على تاريخها القديم الذي منحها كثيرا من الحروب وبعض النور ولكنها لا تستطيع. لا أحد يمهلها وقتا تعود فيه إلى نفسها. كل واحد يشتهي أن يسحبها نحوه مثلما يفعلون مع الله. الغني يبيع ويشتري فروها والفقير مزق جلدها حتى أدماه من كثرة

التشبث به. مدينة ليست ككل المدن، تحتضن بسرعة غرباءها ولكن ضعفها أنها تنسى كذلك بسرعة. يوم دخلت شوارعها في ذلك الشتاء البارد من شهر فبراير، أول شيء شممته كان رائحة المازوت القوية. ضحكت بعفوية:

ـ غريب هذا المازوت. هذه المدينة لا تشبه مدن ألف ليلة وليلة كما كنت أتصور.

وضع أحد الأصدقاء يده على فمي:

ـ أسسستتت... المدينة لا تحب من يقول كلاما مثل هذا. إعط لنفسك وقتا وستحبك إن أحببتها.

وأحببتها بدون أن أسألها عن رأيها. لم يكن يهمني كثيرا أن أعرفه. كان يكفيني أني كلما حزنت أو انكسرت، منحتني أشواقها وباراتها وزواياها الشعبية الضيقة التي أشرب كأسي الجميلة فيها تحت النواصات التي لا تطفأ طوال الليل.

لم تكن مدينة عادية أبدا. بسرعة صارت فيَّ.

3

الدراسة والبعد والغربة.

كنا مجموعة من طلبة الدراسات العليا، يتقاسمون هما واحدا في فيلا قديمة بحي *الإطفائية*. أسمانا المناضل، كما كنا نسميه، صديق رأسه تعج بالتناقضات وأوامر أمه التي لا يستطيع أن يعصاها: *ناس الكومونة*. دماغه متعب بمزيج من الطيبة والرفض للظلم والحلم. كثرة الشعارات اليسارية لم تعلمه إلا رفع يديه عاليا والتلويح والصراخ ملء فمه حتى يتطاير الزبد منه في كل اتجاه.

«وإنها لكذلك حتى السحق النهائي للإمبريالية وعملائها».

«عاش رجال الكومونة، ليسقط خونة العهد».

«عاشت الثورة الدائمة التي تقض مضجع الخونة».

المناضل، نموذج غريب، كلامه لا يحد وطيبته تتقاطع أحيانا مع السذاجة على الرغم من طينته العالية. ذو وجه نحيف، تتدلى منه لحية حمراء كثة، وشاربان طويلان مثل فلاح لبناني. ذات مرة أوقفته دورية أمنية وكانت المدينة تصفي حسابها مع الدين الذي صنعته:

ـ هويتك.

نظر إلى الضابط طويلا ثم قال وهو يبتسم، واثقا من كلامه:

ـ أعرف لماذا أوقفتني. لحيتي لم تعجبك؟ هل هذه هي لحية الإسلامي؟ ثم بربك يا أخي ألا ترى أنها حمراء؟

عندما عرف الضابط أنه غريب الديار، تركه وهو يردد:

ـ حمراء وإلا خضراء، الهوية هي الهوية. الله معك. لا تمش كثيرا بالليل.

ـ بلاد العرب أوطاني...

وأخذ ينشد كل الأناشيد التي تعلمها بالمدرسة والتي بقيت عالقة برأسه ولم تغير السنوات والعمر فيها شيئا.

رد الضابط وهو يغلق باب السيارة العسكرية:

ـ ولك حبيبي يكفي، هيْ الأسطوانة منعرفها. خاطرك.

المناضل لم يتوقف عند هذه الحدود، فقد كان كلما نزل إلى النادي أو الرابطة، يضع تحت إبطه عصا ملونة مثل العصا التي يحملها عادة الحكام الأفارقة.

«يحيا رجالات الكومونة الصناديد».

رجال الكومونة بالنسبة له هم نحن. مجموعة *فيلا الإطفائية*. بينما في الواقع كنا بعيدين عن هذا الحلم الذي ألصق بظهرنا، بعد الأنجم الجميلة التي نتحرق شوقا إلى الركض على تربتها كل ليلة.

خليطا من البشر كنا. لا شيء يجمعنا إلا هذه العزلة والرغبة المحمومة للدراسة والحب واكتشاف هذه المدينة التي لم تقل كل ما في قلبها لذويها.

لنبدأ من البداية.

الأول فينا، لخضر، كان يطمح إلى أن يكون ثوريا يغير العالم وينسف الأنظمة العربية العميلة دفعة واحدة. تجول داخل التنظيمات الفلسطينية اليسارية، من الجبهة الشعبية إلى الجبهة الديمقراطية إلى جبهة النضال إلى الحزب الشيوعي... وعندما اشتعلت النيران وبدأ الحصار الإسرائيلي لبيروت، ترك الجميع وهاجر إلى بلد غير معلوم. كان مغرما حد الموت بطلعة كارلوس ويقسم برأس أمه

وأبيه أنه عرفه شخصيا بل وتغذى معه في أحد مطاعم بيروت المنزوية في الوقت الذي كان فيه الناس يقتلون على الهوية. كان يهوي تارة طلعة الجنرال ديغول وديمقراطيته وتارة أخرى وفي جو آخر يصبح تشي غيفارا، مغيرا وجهه وشكل لحيته، وحتى المرأة التي يمشي معها لمزيد من التمويه للمخابرات العربية والإسرائيلية التي كان يشعر دائماً أنها وراءه، تقتفي كل خطواته.

الثاني، عفّان، كان زميلا طيبا، جاء من شرق البلاد. حفظ القرآن عن ظهر قلب ولوحة اللوغاريتم وسحر الأبجديات ونحو ابن جني وشقلبات سيباويه، وغسل الألواح بالصلصال حتى أبيضّت يداه. اشتغل إماما في إحدى القرى البعيدة عندما كان يافعا قبل أن يستقر به المقام في العاصمة في أعالي بوزريعة. اكتشف في النهاية أن هذه العلوم العريقة لم تغيره كثيرا وثبتته فيما لم يكن يريده مطلقا. لم تعلمه إلا السجود عند نعال الفقهاء والذين سبقوه في شرب العلم. ذات صباح جمع في ساحة الحي كل الأصدقاء والأقارب وتحت دهشة الجميع أحرق ما تبقى من ألواح الغيب وبنى على هذا الركام رجولة كان يشتهيها منذ زمن بعيد. الزمن القاسي دفع بعفان لأن يرتحل نحو صوفية قلقة جعلته يندفن بين الكتب والأوراق بحثا عن وجه الله الذي كان يتسرب من بين الأبجديات كالبخار والهواء.

والثالث، سامي الأكبر مثل بطرس الأكبر. سميناه كذلك لكبر قلبه واتساع صدره. البعض كان يناديه Le Saint. طيبا كان كالكلمات الدافئة ووفيا لدرجة مدهشة. مستعد لنسيان نفسه مقابل رضى الأصدقاء. علمته قسوة الدنيا وجروح الطفولة كيفية التحايل على المصاعب وتجاوز المتاهات المغلقة. أبناءه الذين ينتظرون في الضفة الأخرى عودته بفارغ الصبر، يعدون الأيام على رؤوس الأصابع متى تنتهي غربته لكي يشبعوا من وجهه. يحاول جاهدا أن يخرج بسلامة من الدوائر الضيقة، محافظا على نقائه البدوي وصفاء سريرته. لم يكن يطلب من الدنيا الكثير سوى أن تمنحه وقتا

كافيا لإسعاد عائلته وأحبابه الذين أعطوه كل شيء ولم يطالبوه سوى بأن يظل وفيا في الغربة لحليب قريته وقيمها.

بجانب هؤلاء كلهم، كانت ماسة. أحسننا جميعا وأكثرنا اندفاعا نحو الحياة. امرأة تسمع الندى عندما يسقط ليلا وتتحسس أشعة الشمس قبل شروقها وتكتب الشعر. ماسة، طفلة لا تشبه البقية. لا ترى عيناها سوى الرجل الذي أحبته وعشقت طلعته وأقسمت أن لا تعشق غيره حتى يرث الله كنوزه. رجل قالت عنه الكتب المخفية والخطوط المبهمة، إنه سيقع ضحية المعدن والنار. عندما ماتت، تركت فراغا مخيفاً فينا كلنا. ماسة ماتت بين ذراعي الفلسطيني الطيب، فوده وهي توزع جريدة المعركة أيام الاجتياح الإسرائيلي لبيروت قبل أن يلحق بها بعد أيام معدودة.

ثم نبيلة، طفلة الماء. ابنة الجنوب التي تموت على البحر وكل حلمها أن تسكن بجواره، عندما تشيخ. كانت مرتبكة كالريح. لا تستقر على حالة. بين المد والجزر كموجة هاربة. الحياة بالنسبة لها، ركام من الخسارات المتعاقبة، لا تقبل الفصل والخيار. إما أن تعاش ككل، أو ترفض جملة وتفصيلا. رأت كل الألوان وكوابيس الدنيا. وعشقت وجوها عديدة ثم استقرت على الرجل الوحيد الذي لم تحبه في حياتها للتخلص من ملاحظات المحيط القاسي. نبيلة منذ أن تزوجت خرجت من *فيلا الإطفائية* مثلها مثل مريم فيما بعد، وهي تحمل في قلبها حقدا لا يوصف ضد الظروف التي رمتها في هذه الدنيا. كلما شربت قليلا، هددت بالانتحار وحرق نفسها حية ثم تنام. في الصباح عندما تستيقظ، لا تتذكر مطلقا أي شيء مما حدث لها ليلة البارحة.

ثم عيد عشاب وسيلفيا اللذان لم يكونا من سكان الفيلا ولكنهما كانا ممن فتح لنا الأزقة والدروب المغلقة عندما وضعنا أقدامنا المرة الأولى في هذه المدينة. عيد عشاب كان قد سبقنا إلى الغربة قبل عشر سنوات قبل أن تشربه هذه الأخيرة بشهية كبيرة في كأس

عرق ممزوج بأقراص مجهولة. كان يعرف أن مصيره شُمّع بهذه المدينة. حتى عندما رجع إلى مدينته تبسة، مسقط رأسه، لم يمكث كثيرا. لم يتحمل ثقل المدينة ونفاقها فرجع بعد أقل من شهر.

ثم كنت أنتِ، سيدة الشأن الكبير ونصاعة الرخام.

صغيرة كنتِ، ساذجة وطيبة، بقلب طفولي تحركه أبسط الأشياء. دموعك تنهمر بسرعة غريبة تحت ضغط نزوع ديني يستيقظ فيك لحظة الضعف. لكن أمام لحظات الحب، تطلقين كل السير القديمة وتنسين تماما أنك أمام طابو علقوه على رقبتك منذ يومك الأول في هذا العالم. عندما تسترجعين أنفاسك المتعبة، تحاولين جاهدة أن تجدي مبررات مقبولة لحالات الضعف التي تعتريك. أنت تدركين مسبقا، أن كل ذلك لا يعدو أن يكون مجرد محاولة يائسة لإقناع نفسك بأن ذنبا لم يسجل عنك. متى كان الحب يتطلب غفرانا. الحب هو المعصية الوحيدة التي يغض الله عنها الطرف.

ـ واش درت أنا قدام الأخريات؟ ثم ماذا؟ من حقي أن أعيش. لا أدري بالفعل إذا كان الله هو الذي نظم الحلال والحرام أم البشر هم الذين وضعوا الحدود بحسب أمراضهم؟

ـ من المعتوه الذي يتجرأ على حرمانك من حقك في الحياة؟

ـ ما أكثرهم. على كل حال لم أقترف معصية في حق الله ولا في حق نفسي.

ـ اللي يسمعك يقول قلبتِ الأرض على السماء. ماذا فعلت؟ أنك حبيتِ؟ وين الضرر؟

ـ خلاص ما دامت الفتوى قد جاءت منك، أنا مرتاحة.

ثم تقهقهين بشكل هستيري.

ـ شفت كيفاش وليت؟ طفلة تحاجي وتفك.

وجعفر الذي حين التقى بالجميع للمرة الأولى ورأى مريم، قال هذه المرأة لي. اللي يدور بها انحي له روحه. ضحك الجميع من هذا

الكلام الساذج بسخرية، لكنه ظل جادا طوال الأيام والشهور والسنوات التي أعقبت علاقتنا حتى حصل على ما أراد. شاب مرتبك. يريد أن يشبه الجميع. أن يكون كل شيء ولا شيء في نفس الوقت. على حق دوما وعندما يناقضه واحد منا، يسترشد بمقولة صناع التاريخ العالمي والوطني الذين حصل له شرف مكاشفتهم والتعرف على بعضهم كما كان يردد دوما. لا أحد من مجموعة *فيلا الإطفائية*، كان يأخذ كلامه مأخذ الجدية.

والمشحاح أو *ابن خلدون* كما كنا نسميه وكان يشتهي ذلك ويفرح كثيرا كلما سمع كلمة *ابن خلدون*. التحق بالمجموعة في وقت متأخر. كان يرفض أن يسهم مع الجماعة في الأكل. لم يكن يدفع إلا ثمن الإيجار. وصمم أن يعيش كالذئب على البصل والخيار والجزر. ذهب في هذا الموضوع إلى أقصاه. صار ينظِّر له بكل استماتة. يقول بأن مفعولها استثنائي على صحة الإنسان. في الليل ينفصل في غرفته ولا نسمع إلا صوت أسنانه وهي تقضم بصعوبة خضره المفضلة كالقوارض. عندما يتجشأ، ويمضغ علكة أمريكية لإزالة رائحة البصل، يخرج ليشرب معنا الشاي. لم يكن شيء يهمه إلا الاستيقاظ باكرا وعد النقود وتنضيدها ووضعها في الوسادة في انتظار تحويلها إلى فرنك فرنسي وبعثها إلى قريته لتوضع في حسابه الخاص.

جماعة بينها حليب النبل ورغوة الشوق. حين التقينا لأول مرة كنا مثل الاخوة، بيننا أشواق البلاد والرغبة في الدراسة والنجاح في الحياة. كنا أول دفعة للدراسات العليا اختارت هذه المدينة. أحيانا نسقط في تناقضات جوهرية لم يذكرها زميلنا المناضل، المغرم بملء فراغات القول بكلمات الصحف والشعارات التي لم تعلمه إلا رفع يده اليسرى بشكل مقوس والصياح وسط الأوجه الكثيرة.

«يحيا رجال الكومونة واليعاقبة. ليسقط عملاء فرساي».

كنا تارة في عينيه نشبه الكومونيين عندما يكون سعيدا

وراضيا علينا. وتارة أخرى تتحول سحناتنا الضعيفة إلى رجال فرساي المتوحشين. والواقع أننا كنا خليطا من التفاصيل الدقيقة. كل واحد فينا يعيش عالما مركبا هو وحده ينتمي إليه.

جماعة صغيرة كنا، لم يقدها إلى هذه المدن العتيقة صرير أبواب السجون الحديدية ولا أصوات الرصاص المرعبة، كنا فقط ندرس ونتمنى من القلب والعين، أن نختصر هذه الغربة ليعود كل واحد فينا إلى ضجيج المدن الثقيلة، أو إلى بلدته الصغيرة التي تنام متأخرة وتستيقظ مع صيحات الديكة.

كنتِ إحدانا. مريم الشريفة إحدى سلالات الولي الأندلسي الصالح. في قلبك نبض المدن الساحلية وشموخ الجبال المطلة على البحر التي أقام على تربتها سيدي عبد المؤمن بو قبرين كل صلواته، وهسهسة السواحل الموحشة التي لم تمسسها أيدي بشر. لم تكوني عظيمة ولا جميلة للحد الذي يدفعنا إلى اللجوء إلى الاحتراق في طقس بوذي انتحاري عجز صاحبه عن مقاومة الأوجه الآسرة. كنت أنت فقط وكان حضورك كافيا لأن يجعلك سيدة كل سهرة أو كل لقاء.

طيبة كنت، وطفلة تعشق الألبسة الوردية وكتب الحكايات الشعبية والقرآن والشعر العربي القديم وقسمات وجه الخنساء المنكسرة. ما يزال في دماغك، ذلك الشيء المبهم المحترق، الذي يدفعك تارة إلى الأمام وتارة أخرى خلف كل الناس الذين يتدافعون قرب عينيك كالنمل.

حين جلست في أيامك الأولى في هذه المدينة تقرئين الكتابات الصفراء والتحقيقات التي كنت مولعة بها، لم يكن لديك وقت للحديث مع أي إنسان آخر. تختارين زاويتك الضيقة في *فيلا الإطفائية* وتنكفئين على نفسك. كل ما كان يمارسه البشر كان يبدو لك تافها ومقززا. وحين نتحدث عن الحب وعن العلاقات الإنسانية، تبتسمين بسخرية وأنت مشتعلة كعود كبريت:

ـ الرجال متشابهون، يمارسون نفس الدور. كلش كيف كيف. مِنْ تكون بعيدْ يَجْريوْا وْرَاكْ ومن تلتفت لهم ينساوك. هاذوهُمْ الناس. هكذا دائرينْ. الله غالب.

ـ الرجال كالنساء، فيهم القبيح والمليح.

ـ كل ما أعرفه، هو أنه لا يوجد رجل يستحق أن نحبه بصدق. كلهم عندما يجدون البدائل، ينسون حبهم الأول.

ـ معقول؟ ألا يوجد رجل يستحق حب امرأة؟

ـ وريه لي؟ ما الفرق بينه وبين حمار يبحث عن دابة. عندما يصلها، يركبها ويذهب نحو غيرها. الحمد لله، أنا على الأقل مليحة مع ربي، ما دَرْتْ علاشْ نخَافْ.

كنتِ ساذجة والأكثر من هذا، عنيدة.

وكنتِ صادقة كذلك لأن هذه التصرفات كانت تنبعث من جوهرك ومن يأسك.

وعندما تخسرين رهاناتك الصغيرة، تلعنين الدنيا وخالقها ومحبيها. تنحدر دمعات صغيرة من عينيك. تحفرك كأملاح البحر. تمتد أصابعك مرتدة إلى وجهك. ثم تلوين رأسك في اتجاه آخر حتى لا يعلم الناس لحظة هروبك وضعفك. كنت تعشقين الأتربة والورق الأصفر والناس الذين سكنوا الكتب، رجالات الجاهلية وأيام العرب وحروبهم، سيف بن ذي يزن، عنترة العبسي، الخنساء، البسوس والغبراء، داحس، وجوه القرآن، ونوال السعداوي، والأساطير الجميلة التي دفنتها جدتك في دماغك قبل أن تموت.

لم يكن ما يجمعنا كافيا لأن أواجهك ولكني صممت أن أفعل. ذات ليلة كنا مرهقين من الدراسة. فقد هبلنا الدكتور أسعد بتخريجاته عن إبرة. فعل: أبر... الأبر... البر... البئر... ثم يواصل لدرجة أن نتساءل إذا لم يكن الرجل واحدا من اثنين: إما عبقريا خارقا أو مجنونا ساحرا. وكنت مصمما على إسماعك ما لم تكوني مستعدة لسماعه.

- مريم، أنت متعبة وهذا..

- يوصلك إلى الانغلاق والتكوم على الذات. سمعت هذه الجمل قبل هذا الوقت.

- لست ميالا إلى التنظير، ولكنك تقتلين نفسك وشبابك.

- إنها قناعتي يا خويا. أنتم كل واحد لا يشبهكم فهو على خطأ.

- من قال هذا التخريف؟ أنت حرة في تفكيرك ولكنك تنتحرين.

- والحل؟

- افتحي عينيك قليلا فقط. الدنيا ليست بهذه القتامة.

- أنت لم تقل لي ماذا يجب علي أن أفعل؟

- ....

وفي ذات المساء، حين امتد الكلام بيننا كالوديان الجافة ذكرتك بحياتي الصغيرة، البسيطة. قلت لك أنا كذلك كنت عاشقا للكتب الصفراء ومؤلفات سيدي علي النفزاوي الذي عرى الأجساد ووضعها أمام نفسها لتقرأ ضعفها وإنسانيتها، ومبارك الخضير الذي قضى ثمانين سنة وهو ينتظر العلامة التي تأخذ في طريقها كل شيء ويتخفى وراء الكلمات هربا من الموت. وسيدنا التيفاشي وسيدي الجيلالي بن رضوان التلمساني والكتب التي ذكرت باستفاضة تفاصيل الموت وعذاب القبر، والألباني وأبو معشر الفلكي وابن تيمية ومحنته وسيد قطب وإعدامه والطبري الذي لم أكن أفهم ما يقول ولكنني لم أكن أحبه كثيرا ولم أكن أرتاح له. تخريفه كان يرهقني... وأهوال القيامة التي تتبعتها من الصعود من أسفل الجبل الأسود حتى قمته زحفا على الوجه ثم ابتداء عذاب القيامة مع انفجار براكين الجبل والارتماء داخل حمم الموت الملتهبة، وكنت حين أنهي القراءة أرتجف كحائط محشو بالتبن والطين وروث الأبقار ونفايات الكلاب والآدميين. وصليت وحيدا في خلاء موحش على الصخور الباردة وفي أيام الأعراس. ونزعت القميص أيام

الشتاء وبحثت عن المغفرة بالصلاة عاريا وبتقبيل نعال فقهاء البلدة. وحفرت قبري ذات يوم اتهمت فيه بالجنون، بأظافري فقط في مدة استمرت معي أكثر من ستة أشهر، سعيا وراء التقليل من عذاب القبر. هل تعلمين ما معنى أن تحفر قبرا بأظافرك؟ وحين كنت أضعف أمام النساء الجميلات في ماخور عيشة الطويلة، العاجزة عن المشي، كنت دائماً ألبس جلبابي الأسود، وأتكوم على نفسي بعد أن أغتسل، وأبدأ في قراءة آيات الكرسي وسورا من القرآن الكريم وأقنع نفسي بأن الله غفور رحيم. وحين أجبر على إعادة الكرة، أصلي ركعتين وأستغفر الله، وألعن الشيطان الوسواس الخناس الذي يوسوس في صدور الناس وأقسم أن أقتل حواسي. وبعد أيام أكرر نفس الفعلة مع جارتي الطيبة المطلقة.

مع الزمن، لم يعد الله معنيا بنا وبمشاكلنا، ما عنده من ويلات الناس يكفيه. نسينا وتناسيناه قليلا.

هذه الأشياء الصغيرة التي تأكل من الداخل كالدودة لم توصلني إلا للموت المقنع بالحياة وبالخجل والخوف من أي شيء وربما حتى منك أنت. حتى صرت، كلما رأيت امرأة جميلة أشعر بركبتي ترتجفان وبقلبي يخفق بعنف، فلا أجرأ حتى على الكلام معها.

- من أين ورثنا هذا البؤس؟ سلطناه على أنفسنا بأنفسنا. ثم نمنا داخل السعادات الكاذبة قريري العيون ومنتشين بأوهامنا وإخفاقاتنا الدفينة. هل أنت في حاجة لأن أقول لك أني خسرت علاقتي مع الله ومع نفسي.

كل الأشياء الجميلة أشعر تجاهها بصعوبة لمسها خوفا من أن تتفسخ في يدي. مع أني مدرك مسبقا بأنها لن تكتسب حيويتها إلا بمحاولة فك رموزها المبهمة والاستحمام في دفء مياهها.

تتساءلين:

- طيب، من أين تأتي إذن كل هذه الحماقات التي فينا؟

- من ترتيب العالم السيئ للغاية.

- من صنع هذا السوء؟ الله؟

- لا. الناس الذين احتكروا الغيب والبلاد.

- أنا لا دخلي بهؤلاء. أحب الله.

- الله صار يشبههم ويتماهى في ضعفهم. الله الذي نحمله فينا يشبهنا بالتمام. لا أعرف إلاها يختلف عن حامله. السيئ الجبار ربه يحمل كل صفاته والطيب المسالم ربه لا يؤذي نملة. الآلهة بعدد البشر الذين يمشون على هذه الأرض.

- وهل هذا يكفي لحل معضلة الوجود.

- لا يهمني كثيرا حلها بقدر ما تهمني حياتي. إننا لن نعيش ثانية. لهذا لست مستعدا للخسارة الفادحة. لا.

ويستمر الحديث حتى الساعات الأولى من الفجر.

ويوم فتحتِ عينيك، متأخرة قليلا، كانت تفاصيل الدنيا قد تغيرت والزمن صار أكثر إشراقا بألبسته الزاهية التي لم تكوني ترينها.

هل أضيف؟

لم تدللني الحياة كثيرا ولكني أجبرتها على الأقل للاستماع إلي وإلى أنيني الكبير. في التطوع الطلابي، بدأت أمسح جسدي من تشوهاته القديمة. وذات صباح من الأصباح، كانت الثلوج تملأ بلدة *تنيرا* - *سيدي بلعباس*، وجدت نفسي واقفا أمام فلاح أو جالسا معه، نبحث رغم شقاوة الأيام الفائتة، عن الدروب الوعرة الموصلة حتما إلى النهايات السعيدة. صحيح أن جزءا من حماقاتي القديمة ظل يأسرني، لكني اكتشفت في بلدتي التي كنت أكرهها، وجوها طيبة مثل التربة، وعاشقا بربريا جميل القد والعيون، في الليل يوزع المناشير وفي النهار يلبس الورود ويحمل فأسا عتيقة، يحرث الأحراش ويفلح الأتربة السوداء ويرغمها على الإخصاب حتى ولو ركبها اليباس.

- لا أدري من هذا الغبي الذي حول القناعات إلى دين؟

- هي ماذا؟

- اجتهادات بشر يمكن أن توصلنا كما يمكن أن تعمينا عن رؤية الدنيا.

لم أكن مستعجلا لأن أرى طيورا جميلة تحلق في عينيك العاشقتين. بيني وبينك كانت تنمو أشياء جميلة ورائعة روعة هذا العالم المتآكل الذاكرة والقلب، وصلبة مثل *جبال زندل* العملاقة التي كنت مهووسة بها لأن جدك *عبد المؤمن بو قبرين* قطعها كلها سيرا على الأقدام قبل أن يجد هضبته التي بنى عليها مقامه. كنت أدرك مسبقا أن قلبك يعج بأمواج عملاقة، تحركها الأنواء والأشواق الدفينة وحار مثل النار والوطن الذي ما يزال تميمة تتدحرج على صدرك، تدغدغ نهديك كلما نسيت تربته. مربعك كان صغيرا وأنت التي أحطته بالنار والشبابيك والأقفال. مع أن إمكانات التحليق والخروج من دائرة الضيق، كانت واسعة سعة هذه العيون الليلية الهادئة والرائعة روعة الحناء البدوية التي تصبغ شعرك ورؤوس أظافر رجليك.

حتى عندما صرنا أصدقاء، لم يكن شيء يفرقنا إلا أسئلة الموت أو لنقل الانشغالات الوجودية التي كنا ندخلها من زوايا الأسئلة التي تقود في النهاية إلى حتمية الاختلاف. أو على الأقل هذا ما كنت أراه. كان يبدو لي الزواج مثلا أرقى أشكال التصفيات الجسدية. تصفية تتم برضى الجميع. العمل الانتحاري الأكثر نقاء.

- بوف... فات الحال يا صاحبي. عندما نصل المنعرج ولا نعرف كيف نتفاداه، الانزلاقة يمكن أن تقذف بنا في عمق الوادي.

- جربي وسترين، الدنيا ما تزال جميلة وتستحق أن تعاش. والعمر لا شيء. ومضة نور. المهم أن تعرف كيف نقبض عليها.

ـ عن أية ومضة تتحدث؟ كل شيء بدأ يموت. ثلاثون سنة ياروحي؟ لم يبق الشيء الكثير.

ـ ما زلتِ طفلة.

ـ أنت تقول الشعر والحب، لكن قسوة الحياة شيء آخر. وحياتك شيء آخر غير ما تظن.

4

ثلاثون سنة يا حبيبي!؟ ثم ماذا بعد هذا العمر؟

ـ لا شيء سوى أن الدنيا بنت الكلب، تلعب بنا كما تشتهي. ولا أحد في مكانه. امرأة تحب رجلا وتريده رفيقا للعمر، فيرفض. وهي، يريدها رجل آخر كزوجة بكل جوارحه، فترفض وتبحث عمن تركها. ورجل آخر يحلم فقط أن يقبل منه أهل صديقته تزويجها له ومستعد حتى لتغيير دينه، فيرفضون؟ بربك؟ ألم تصب الحياة بجنون العبثية واللاجدوى؟

«*باب الصبر مفتاح الأحزان*: نعم. لا شيء تغير ولا شيء جديد. نويت في هذا اليوم أن أكتب رسالة للوالد وسهام التي بدأ وضعها يشغلني كثيرا منذ أن عادت إلى الوطن لتموت على أرضها بسبب المرض الخبيث، لكني لم أستطع لأن القرحة زادت علي أكثر. البارحة رأيت خيوطا من الدم حينما تقيأت. إني أعيش على مساعدات الرابطة وليرات الأصدقاء بعد أن صمت الوالد نهائيا. منذ استقراره بالمدينة المنورة وتزوجه هناك صار شحيحا. صحيح أن عمله شاق. فهو مضطر للبحث باستمرار عن الأعشاب الطبية التي يأتي بها من الخليج ومن بلاد الهند والسند وكاشمير وباكستان وأفغنستان والصين وغيرها، هذه هي تجارته التي ورثها عن جده الأول الشيخ المختار التبسي بحي الزاوية، لكن كل ذلك غير كاف. كان في الماضي القريب، كلما مر على البلاد، يتصل بي، يبقى معي ساعة أو ساعتين ويترك لي نقودا ويسافر. اتصلت اليوم بجورج خابيان

هاتفيا. الوحيد في عائلته الذي يفهمني وأعتقد أنه يحبني بصدق. أصبت بخيبة كبيرة. فقد أخبرني بسفره هو وأخته سيلفيا إلى بيروت لقضاء العطلة الشتوية. علي إذن مرة أخرى أن أتعلم كيف أصبر. سيدي الكبير ابن عربي يقول إن الصبر مفتاح الأحزان، سأعمل برأيه وأشرب حتى تعود سيلفيا، من حقها أن تخرج قليلا من هذا الوضع البئيس الذي ورطتها فيه».

من أوراق عيد عشاب

مرة أخرى تخطئين.

ها قد عدنا إلى الحكايات القديمة التي تتآكل في الداخل كالمعادن الصلبة وتتحرك إبرا مسمومة في كل مفاصل الجسد الذي يرتعش للنكتة كما يرتعش لآذان جميل.

حتى يبدأ العشق من عينيك في النمو كشجيرات العليق، كان لا بد من جسر صلب لا تقهره الأثقال. فكانت مصاعب الحياة وهذه الشوارع المكتضة والحوارات التي لا تنتهي والمماطلات، والهروب نحو فضاءات المسرح والسينما والسيرك، ورنين أجراس الكنائس، والمشاكل اليومية، وسهرات الأصدقاء التي كانت تنتهي في أغلب الأوقات بالسكر والتقيؤ والمشاحنات، على الرغم من البدايات الجميلة و*فيلاً الإطفائية*، وهمّ الغربة الذي يدخل الجسد كحبات المطر الباردة، نتشربه مرغمين كهواء هذه المدينة ورائحة المازوت وقهوة الصباح الممزوجة برائحة الهيل. أمور على تناقضها، كانت تسهم في توسيع عالمك الصغير، في بناء الجدران التي تحولت فيما بعد إلى كتل عالقة عبثاً بالمغارات الباردة.

ـ كم أحلم أن أنسى نفسي وأطير عاليا.

ـ إلى أين؟ هل ضاقت الأرض إلى هذا الحد؟

ـ ضاقت، وضاقت معها سبل السعادة.

ـ كل شيء مترتب على إرادتك.

ـ إرادتي؟ لا أدري إذا كنت أصلا موجودة. كل شيء مخرم ومكسور كأنما مرت عليه دبابات وجرافات.

ـ... ... ...

ـ... ... ...

فجأة تتسع عيناك لترى النور المتسرب عبر كوات القبو الصغيرة. تتأملين الشمس وهي تخترق الجدران الباردة. يفيض القبو نورا. تشعرين بسعادة غامرة سرعان ما تنكسر على رشقات البارود والرصاص والانفجارات القادمة من بعيد، ربما نواحي البريد المركزي. تنهارين كبناية عتيقة. ترتعدين مرغمة، عصافير هددتها أصوات بنادق لا تخطئ.

تعذبك هذه المدينة.

يعذبك سنك وهذه الأصوات الثقيلة. تتمتمين:

ـ ماذا لو أموت برصاصة طائشة؟ حسنا فعلت ماسة، فقد اختارت موتها بجرأة بجانب الرجل الذي أحبته، على أطراف الملعب ببيروت. رفضت أن تساوم في حقها. اختارت الموت في بلد كانت تراه فقط في البطاقات البريدية أو من خلال صوت فيروز التي كانت تعشقها حد الجنون واختارت رجلا كانت رجله على غيمة بيضاء يصر أنها أرضه التي تستحق أن يموت من أجلها.

ـ ماسة اختارت قدرها ولم تطلب من الحياة الشيء الكثير. ركبت نفس الغيمة التي عشقها الفلسطيني الطيب بدون أدنى تردد. التردد يقتل العواطف والأحاسيس.

ـ لا أعتقد أن ماسة كانت آلة وإلا لبقيت في *فيلا الإطفائية* تنهي تعليمها. لم يكن الذكاء ينقصها مطلقا.

ـ لا. ليس هذا قصدي. هناك أناس مرشحون بالفطرة، بالثقافة، لا أدري، لفعل أشياء يعجز عنها آخرون. أن تقبل أن

ترهن حياتك بغيمة هذا يعني أنك لا تعير اهتماما للحياة كما يفهمها عامة الناس.

ـ... ... ...

يعذبك هذا التزاوج الذي يأكلك من الداخل كالنار الفارسية. تحبين وتريدين أن يكون حبك كاملا وأن يولد من يومه الأول كبيرا؟ الخوف من العكس هو الخطير، أن يولد الحب كبيرا وينتهي صغيرا كذيل سمكة.

ـ ما المانع؟ الحب الكبير يجب أن يولد كبيرا.

ـ المهم أن يظل كبيرا، وإلا سيموت بسرعة.

ـ لماذا تريده أن يموت إذا انتهى بالزواج والأولاد؟

ـ هل هذه هي السعادة والكبر؟

ـ جزء منها.

ـ يا حبيبتي، هل نمنع أنفسنا أولا من اختبار ذواتنا؟ الحب جنون ولكنه كذلك لحظة وعي تمارس بمسؤولية. أنت نفسك تقولين مثل هذا الكلام.

ـ يصبح سياسة وأيديولوجيا.

ـ لماذا نعلق على السياسة والأيديولوجيا كل أسئلتنا ومآزقنا؟

ـ يا ربي ما أقساك...

5

أعدد في خلوتي رسائلك الكثيرة. أشياء كثيرة تغيرت منذ تلك الرسالة الأولى المليئة بارتباكات الطفولة والخوف. هل نحن كبرنا وبالتالي خسرنا طفولتنا أم أن الدنيا لم تعد تطيق الحماقات الأولى التي نزعل منها ولكن سرعان ما نغفرها؟

كان اليوم ممطرا. أتذكره جيداً لأنه لم يكن يوما عاديا. أنت تعرفين جيداً وقع الأمطار في. تهبلني وتحولني إلى طفل في عمر الورد. كنا نتدحرج في الشوارع الخلفية لباب توما، حيث محل عمو طوني، بائع العرق اللبناني الجيد، عرق توما.

مطر، مطر، مطر. تذكرت فجأة قصيدة السياب.

دندنت... ثم التفت نحوي:

ـ مسكين السياب ما عندوش الزهر. أعطى كل ما عنده لكن الأصدقاء تركوه والله بالفعل تخلى عنه.

ـ هل وجدت عظيما فعليا في التاريخ مات ميتة مرتاحة؟ كلهم ماتوا في النسيان الكلي والإهمال لكنهم في قلوبنا. نتذكرهم اليوم في الوقت الذي لا أحد يتذكر أصحاب المال الذين ملأوا الدنيا ضجيجا واشتروا العباد والذمم.

ـ يبدو أنها الوسيلة الوحيدة التي ينتقم بها الفقير من الغني. عليه أن ينتظر الموت لكي يسعد. يا خويا؟ وعلاش ما يعيش الإنسان سعيدا وعظيما وغير محتاج؟

- Des fois c'est vraiment incompatible.[10]

لأمطار الشتاء وقع غريب فيك. تعشقين الركض تحت السيول وترفضين المطريات. تشعرين كأنها تحرمك من متعة السماء وكرمها. خصوصا سماء شحيحة كالتي نعيش تحتها. لكن ذعرا ما في المدينة يشبه الهوس، منتصبا في الطرقات وفيك، نهض فيك فجأة.

حييت عمو طوني وانتحينا زاوية نصف مضاءة. فاجأنا هو بنفسه كعادته:

ـ كيفكم يا شباب.

ـ كالعادة عمو طوني، كاستين مدوزنين على كيفك.

نظر إلى مريم. لم يرها أبداً على هذه الحالة:

ـ مريم؟ شو بك عمو؟ إذا زعلك هالزلمي، قولي، لا تتحرجي، أخرب له بيته.

تتمتمين:

ـ لا يا عمو طوني. وحياتك ما فيه شي، بس تعبانة شوي.

ـ يا الله ها الكاستين من عندي.

يضعهما مع صحن الشنجليش المقطع في صحن صغير، ثم يختفي ويتركنا في الزاوية المظللة بالأخشاب المنقوشة ونواصة صغيرة وأكياس الدقيق والحبوب الجافة.

شجون مريم تسبقها دائماً ولا تستطيع مطلقا تخبئتها، في خزرتها، في كلامها وحتى في حركاتها. لم تتكلم ولكنها أخذت قطعة صغيرة من الشنجليش، وضعتها تحت لسانها.

ـ م... م... م... ما أطيبها.

(10) أحيانا من الصعب الجمع بينهما.

ـ شغل بيت لك عمو مو لعب.

فاجأنا عمو طوني وهو يضع على الطاولة رأسي سلاطة خضراء، ثم انسحب.

ـ كأسك مريم.

ـ كأسك. أرجوك حبيبي، خذني كما أنا. أحيانا أحزن بلا سبب.

ـ طيب، غيري هذا الوجه.

ـ ماذا تريدني أن أفعل؟ حزينة. لا أعرف لماذا الأمطار في هذا الفصل تؤذيني؟

ـ حوار البارحة؟

ـ ربما. اليوم بكامله كان ذهني شاردا ولم أفهم شيئاً مما قاله الأستاذ في الجامعة. وحياتك لا أتذكر شيئاً من دروس اليوم، لا درس الدكتور عفيف البهنسي ولا شطحات الدكتور أسعد علي اللغوية الجميلة ولا حتى درس الأدب الأندلسي للدكتور رضوان الداية ولا حتى النقد الفرنسي للدكتور إبراهيم كيلاني.

ـ لا تعقدي الموضوع كثيرا. أحبك ولكني لست مستعدا للزواج ولا لإنجاب الأطفال. ما زلنا أطفالا يا مريم نحتاج إلى رعاية إضافية.

ـ لا أريد أن أعود إلى موضوع الليلة الماضية. إنه يؤذيني. ولكن لا تنس أن عمري يزحف نحو الثلاثين. إذا سمعت امرأة تقول لك إن أمرا مثل هذا لا يعنيها كثيرا، أعرف أنها تكذب عليك وعلى نفسها. ربما كانت التربية هي السبب ولكن هذا هو القماش.

ـ حق مشروع ولكن يجب أن لا يتحول إلى حالة لا شيء بعدها.

ـ ربما كان حبي لك هو نقطة ضعفي الكبيرة. كم أشتهي أن أقضي معك بقية عمري بدون أن أزعجك بقلقي ويأسي، ولكنك كل يوم تزداد بعدا.

ـ تعرفين يا مريم، لقاؤنا كان طفوليا وبريئا ولم يبن على كذبة الزواج. كل ما أعرفه أني أحبك. أحبك جدا...

ـ يا أحمق، أعرف أنك تحبني. هل تتصور واحدة مجنونة مثلي تبقى مع رجل إذا لم يتوفر هذا الشرط؟ لكن من يستطيع أن يثبت حبه في نقطة البدء؟ لم نعد نفس الشخصين اللذين لاقتهما صدفة الدراسة أبدا.

ـ ....؟

تهرب الكلمات من فمينا. تصمتين. أتأمل عينيك وأتساءل في أعماقي هل أستطيع العيش بدونك. ربما أنا كذلك كنت أكذب على نفسي. ترشفين من كأس العرق مرة أخرى. تلتقي نظراتنا. تنكفئين. تنظرين إلى عمق الكأس. ينسدل شعرك مغطيا وجهك بالكامل. أمد يدي. أرفع الخصلة التي كانت تمنعني من رؤية عينيك الحزينتين.

ـ مريم، ربما أنا نفسي مانيش فاهم روحي. خذيني أنا كذلك كما أنا. لست أقوى منك. ربما كنت أكثر هشاشة.

ـ آه... كم أريد أن أعيش معك كما أشتهي أنا وأنت. أن لا أحد يحاسبنا على حريتنا. ولكني تعبت. كلما ذهبت في العطلة علي أن أبرر أمام كل محيطي المتآكل أشواقي لك وحنيني.

ـ خلينا على الأقل هذا المساء نستمتع بهذه اللحظة. منذ شهور لا حديث لنا إلا هذا المشكل. بدأنا نخسر حتى ما تمنحه لنا الحياة طواعية.

ـ إذا كان هذا يريحك، أعدك، لن أتكلم في هذا الموضوع.

ثم نتهاوى بهدوء شيئاً فشيئا داخل كأسينا. أسمع نداءاتك. تمدين يدك نحوي. تتركين ابتسامة متعبة تنزلق من شفتيك.

ـ تعرف، العرق يلعب لي بسرعة برأسي كما البيرة. أنا لست محترفة، أنت وصاحبك عيد عشاب فلستوني. تحمل مسؤوليتك ياخويا إذا سكرت.

ـ مستعد، أسكري فقط.

تقهقهين... يختلط صوتك بزخات المطر التي كانت تنقر النافذة الخشبية المغلقة. تنتصبين فجأة.

ـ نخرج. المطر.

ـ نخرج.

عند الباب يوقفنا عمو طوني. يطبع قبلة على جبينك.

ـ هيك بحبك يا بنتي. فرفشي شوية. كيف حالة عيد؟

ـ وضعه أفضل. القرحة تتعبه كثيرا.

ـ راح أمنعه من شرب العرق لمدة شهر. الله معكما.

ـ شكرا عمو طوني.

قلناها في نفس الوقت وخرجنا. كانت المدينة ممطرة والشوارع مثقلة بالمياه.

ـ المطرية.

ـ تعرف أني أحملها ولا أستعملها. أريد أن نمشي كثيرا. أن نمشي بدون توقف.

ـ المطر يغري بكل الغوايات. يا الله.

ـ أعرف أني بدأت أرهقك؟

ـ أبدا، أنت تعبرين عن حالة موجودة في داخلنا، لكن هناك من هو أكثر استعدادا لعيشها فقط.

تتمتمين. كلماتك تمتزج بوقع الأمطار. شعرك غارق في المياه. لا تابهين أبدا. تقطرين. وجهك لباسك. تدورين في مكانك كطفلة تكتشف أن لها قدرا لا يحد من الحماقات.

تفكرين ثم تنزلقين على الطرقات كقطع الثلج.

ـ قل أنك تحبني وتموت علي وأنك لن تسلم في بسهولة.

ـ أحبك. أحبك والبقية أتركها في قلبي. من يسلم فيك لا يستحقك مطلقا حتى ولو كنت أنا. مليح هكذا؟

ـ مليح.

تختبئين تحت معطفي الخشن. تتحركين كفأرة داخل لباسي.

ـ هذا المعطف أحبه وأنا سكرانة.

تمسحين أنفك من قطرات المطر التي صارت ثقيلة وأكثر صفاء. تفتحين عينيك بتثاقل وتنظرين إلي كحمل صغير وبسذاجة ضامرة تعمقين أسئلتك.

ـ أتريدني أن أصبح مجنونة بك؟

ـ كنت أظن أني مجنون المطر لوحدي ولكن الظاهر هناك من هو أهبل مني.

تتلعثم الكلمات في الحنجرة. تصمتين. ثم، كوردة في مهب الريح، ترتعدين. تنحنين ثم تستقيمين. تعبث يداك بالمنديل البنفسجي الصغير. لا أدري بالضبط ما الذي ذكرني بمحطة القطار والسكك الحديدية التي تمتد على مرمى العين والغادين والرائحين بحقائبهم ونحيبهم وأصدائهم. ربما كان السبب الذي يوقظ في هذا الحنين الملتبس بالأحزان والأشواق هو المحطة القديمة التي كانت عائلتي تتخبأ فيها كلما كان المطر غزيرا وامتلأت دارنا ماء. أسمع نقرات المطر وهي تسقط نقطة نقطة على الأغطية. تتمدد يد أمي إلي. توقظني. أسمع صوتها: *نوض، كمل رقادك في المحطة القديمة*. المحطة أهملت منذ الاستقلال ولم تعد حتى القطارات التجارية تتوقف فيها على الأقل للتزود بالماء، كما كانت تفعل أيام زمان أو بالوقود.

ـ *النو يا النو هولتني*

حبيبي جاي وأنت هبلتني.

ـ النو ومعها مريم، يصبح الهبل مضاعفا.

وتحت المطر الذي لم يتوقف بعد أن اشتد وقعه، أقبلك طويلا. خائف من افتقادك. أتحسس برؤوس أصابعي شفتيك، شعرك، يديك، وكأني أفعل ذلك للمرة الأولى. يداخلني إحساس المسافر أو المقدم على فقدان كبير. أنفض رأسي وأحاول أن أطرد الصورة المنكسرة. أقبض على يدك اليسرى بقوة حتى أتأكد أنك مازلت هنا، ثم ننساب بهدوء على طول الشوارع الخالية التي لا يتوقف امتداها.

ـ المدينة ليست سيئة إلى هذا الحد.

ـ لأنها عندما تغتسل بالمطر تصير شهية.

في منتصف شارع ما تتساءلين مرة أخرى. لم تعودي تفهمين نفسك كما تقولين دائما. شيء ما فيك يفضحك حتى عندما تضربين عن الكلام.

تتحرك الأشياء الغامضة في ذاكرتك. تتخيلين العالم مثل اللعبة، تتغير فيه الأشكال باستمرار.

أوه. كم أنت طيبة وهشة مثل هواء الفجر.

هو الوهم يا صديقتي الطيبة الذي ينتابنا جميعا في لحظات الضعف عندما يكون تعويضا مقنعا للضعف الذي نواجه به رداءة الواقع اليومي. أنت تعرفين مسبقا أنك لا تستطيعين مقاومة لحظة الحب وأنا في أسوأ حال من وضعك. لكنك مع ذلك مصرة في النهاية على الصلاة ركعتين واستغفار الله ورسوله على ارتكاب المعاصي. أية معاصي؟ فتعوذين بالأشرار والشياطين التي تزين الحرام وتسود الحلال. ليس لديك خيار ثالث. إما أن تحبي، والعصافير قد تحيا بفعل الحب أو تنهارين كوردة برية شحت عنها السماء، فينتهي كل شيء. تعرفين أن وجه المدينة يمكن أن يكون جميلا لكنك مصرة حتى الموت على بشاعته الأبدية كلما هاجمتك الانكسارات الغامضة.

الأمطار جميلة وحضورك يملأ خوائي، لكني عندما أعود

وأحاول أن أنام، سأعلن الحداد بالصمت لأني لم أستطع أنا كذلك تغيير حزنك الداخلي. فكلامك لا يستطيع أن يتبرأ من حنينه الذي ورثته عن أمك المنكسرة التي لم تعش إلا البرودة.

ها أنتِ مريم ما تزالين مثقلة بالعطور النادرة والألبسة الإيطالية الفضفاضة وسجائر مارلبورو الأمريكية الطويلة الأعناق، والألوان البنفسجية وتعتقدين اعتقادا كبيرا أن الدنيا لا تعطى إلا مرة واحدة. ما تزالين طفلة تعشقين الكتب الصفراء وتموتين في سيرة البطل الهمام سيف بن ذي يزن، وتغريبة بني هلال ورحيلهم إلى بلاد الغرب وحروبهم مع الزناتي خليفة وما جرى لهم من الحوادث اللطيفة الظريفة والحروب الهائلة المخيفة وقصة مغامس مع بنت عمه شاه الريم وقصة البروديل ابن رشد، ملك العريش ونزول بني هلال وغرقهم في أرض المخضة وغيرها من الأخبار العجيبة والقصص الغريبة. تحبين كل هذه الأشياء التي تؤكد لك أنك مازلت في الطريق المستقيم والمقدمات الطللية للقصائد الجاهلية ولا تتساءلين.

مريم، ما يزال بيننا متسع من الوقت للحب والطفولة. كل هذا الزمن لم نكبر إلا قليلا. وكلما حاولنا، وجدنا أنفسنا في عمق الحياة نتعلم من جديد وباستمرار. تفادينا كل المنعطفات القاسية وهذا المنعطف يبدو مستحيلا. ليس من حقنا قتل أجمل شيء فينا، القدرة على الحياة. الناس في هذه البلاد وفي بلادنا فقدوا حتى الشهوات البسيطة وتحولوا إلى كائنات مقتولة في أعماقها.

6

كل التفاصيل تندفع بسرعة نحو القلب بالجملة.

حين التقينا لأول مرة لم أكن فارسا عاشقا، بربري العينين، ساحر النظرة والمحيا، أتى على جميع قلوب النساء ولم تكوني أنت يا مريم ابنة أمير حكم البلاد والعباد بالعدل، لم يوقظ سيفه إلا لمحاربة المظالم ودرئها. كنت فقط امرأة من ضوء مشع دوما أو سيدة الأنوار كما سماك أحد الأصدقاء من الذين سحقتهم السياسة وقضى العمر كله يشتم الأنظمة العربية أملا في أن يجد يدا رحيمة تسحبه نحو السجن وتعطيه صك المناضل الذي اشتهاه كثيرا ولم يحصل عليه. كان المشرفون على النظام يعرفون خطره جيداً وأنه ليس أكثر من ثرثار مبتئس، يمتهن مجانية الكلام الذي يضحك الأصدقاء قبل أن يزعج الأعداء.

وبسيطا مثل نهاري وليلي، كنتُ. لا أشبه إلا نفسي. شعر مكزبر يميل نحو صفرة محروقة. عينان تشبهان لوز أمسيردا البري، تتناسل فيهما ألوان البحر والتربة والشمس. قامة ممتدة كخروبة الأجداد وأقدام ملتصقة بالأرض بقوة. يغطيني مانطو يميل لونه الأساسي نحو خضرة باردة، كنت تعشقينه مثلما تعشقين الأمطار. هذا أنا، هل نسيت شيئا؟

ـ نسيت أن تقول لي إنك تحبني. أصبحت مريضة بك وبالأمطار. آه لو تعرف ولكنك لا تعرف.

ـ أنت مبللة كثيرا.

ـ الأمطار التي تحيي الرعشات الداخلية، لا يمكنها أن تقتل.

ركبتك هذه الحالة من جراء حكاياتي القديمة، وتعمقت أكثر يوم داهمتنا أمطار غزيرة في محطة القطار، لم نكن ننتظر سقوطها. كنا نذهب إلى المحطة كل أسبوع ونتأمل وحيدين امتدادات السكك الحديدية التي تغوص كسيف عتيق في قلب السهول والجبال.

خفت عليك من البرودة، فوضعتك تحت معطفي الخشن وحاولت أن أدفئك. ثم جرينا في الأرصفة حتى وصلنا إلى عمق المدينة واختبأنا تحت مظلات المحلات العامة، ننتظر توقف الأمطار أو قدوم سيارة أجرة.

عندما أرهقنا الانتظار، بحثت عنك داخل قلبي.

كنت نائمة مثل قط صغير استشعر الدفء فجأة بعد برودة قاتلة.

وحين فتحت عينيك من غبش النوم، كان الصحو قد أتى.

وماذا بعد؟ زد شوية...

إضافة إلى هذا المعطف الخشن، حذاء الكلارك الذي لم يغادر رجلي منذ أيام الجامعة التي مرت بسرعة لدرجة أنه أصبح جزءا مني. حين أراه معلقا في المحلات أشتهي أيام الجامعة الأولى، أصدقائي الذين عرفتهم والذين كنت أقطع معهم المدينة البعيدة طولا وعرضا. يتعبون ولا أتعب. وأقنعتهم مع الزمن أن حذاء الكلارك هو خصلتي الوحيدة. اشتروه وظلوا يتعبون ولا أتعب.

يتيمة الأم كنتِ ومن أب صمم على الانتحار صمتا بعدما رأى أن الضرر الذي تسبب فيه للأقرباء لا شيء يشفيه ويوازيه في الأسى إلا الصمت. صمت حتى غادر الدنيا ولا أحد يعرف سر صمته.

ويتيم الأب كنتُ ولا شيء غير ذلك.

والدي بكل بساطة خرج ولم يعد. عندما سألت الجدة وأمي المتعبة عنه، قيل لهما أنهم رأوه يركب الباخرة الذاهبة نحو مرسيليا وبعد زمن أخبرَهم هو بنفسه أنه وجد عملا وأنه بخير. كان والدي يظن أن باب السماء قد فتح ولكنه كان في كل يوم يزداد انغلاقا عليه، في غفلة منه قبل أن تجهز عليه عندما يصير في قبضتها.

«*باب الغياب الأكبر:* والدي الحبيب اليوم فكرت فيك طويلا لأني فكرت في الموت. لا أدري لماذا أنا ملتصق بك إلى هذه الدرجة؟ حتى دراهمك لم تعد تعنيني، لقد أصبحت أعيش مثلما تشاء الحياة لا مثلما أشاء أنا. لكني أتساءل يوميا في يقظتي وفي نومي، أما زلت حيا؟ أما زلت تفكر في؟ حياة الخليج صعبة؟ أفهم ذلك ولكني ابنك. أنت لم تعلمني هذا الفراق الفجائي. كان عليك أن تعودني مثلما تفعل الحيوانات مع صغارها. السنوات تمر وأنت لا تظهر وأسئلتي في الرابطة عن بريدك صارت تقليدية والأجوبة باردة: ما عندك والو يا السي العيد من عند الوالد. حتى الحجي التي تحبك ربما لدراهمك، تسأل عنك ولما طال غيابك، لم تعد تدلعني كما كانت تفعل بحضرتك. ترتاب في كل حركاتي ولا عمل لها إلا تصيد زواري. هل تعلم أني أشتاق إليك وبدأت أنسى وجهك؟ لقد صرت أعيش في قفر مثل الذئب. اليوم فقط خرجت من مستشفى المواساة. كدت أموت. سيلفيا بكت كثيرا. قالت: عندما رأيتك تتقيأ الدم وتضرب رأسك على الحائط، ظننت أنك ستموت. ثم قالت وهي تغطيني قبل أن تخرج: حبيبي قلل من حماقات العرق، أرجوك. إفعل هذا على الأقل مشان خاطري. والدي الحنون، لماذا كل هذا الصمت؟ هل آذيتك وأنا لا أعرف طريقا للشر؟ كلماتك اللطيفة كانت لي كالبلسم الشافي، تجعلني أتصالح مع نفسي وأعتز بها فلماذا الآن غابت وانتفت. فإذا كنت أجتهد وأقاوم مصاعب الدنيا فلأني تعلمت ذلك منك الكثير. وجودك بجانبي يمنحني قوة التغلب على الصعاب.

أختم رسالتي هذه التي لن تبعث أبدا ولا أدري إذا كان سيُكتب لك قراءتها، وأنا أستدر عطفك وحنانك. سيدي ابن عربي وجدي

الأول سيد الزاوية، الشيخ المختار التبسي كانا يقولان دوما إن الأب مثل الروح عندما تخرج يتهاوى الجسد. ويبدو أن جسدي بدأ يتهاوى ويموت بصمت.

ابنك الوفي دوما لك حتى ولو نسيته في هذا القفر».

من أوراق عيد عشاب

عندما كان والد عيد عشاب ينطفئ في قفر الربع الخالي وينجب هناك أبناء آخرين من نساء أخريات فرضتهن عليه سبل التجارة والتحرك بعيدا عن الديار، وكان والدك يضرب عن الكلام حتى الموت متناسيا محيطه وأمك التي أكل المرض والغبن جسدها، كانت أنوار المدن الساحرة والمستحيلة تأكل جسد والدي الذي دخل تلك البلاد مليئا بالأحلام والأشواق وخرج من شوارعها الجميلة جثة هامدة. فجيعات الغربة لم تكن متساهلة مع أحلامه ولا متسامحة مع تماديه في خيالاته.

7

حبيبي الغالي، كم أنت بعيد؟

وكل يوم تزداد بعدا وتوغلا فيَّ مثل المدية الحادة.

وكم أنا مرهقة وحزينة من أجل نفسي وللوضع الذي آلت إليه حالنا، وحزينة جداً من أجلك، لأن رأسك يابسة كالحجرة. الحب ليس فقط ما نشتهي، هو كذلك ديمومة. ربما هذه قوته ومقتله. الذي علمك كيف تحب، لم يعلمك كثيرا كيف تحافظ على أشواقك حتى النهاية. ستقول لي، الحب مثل الكائنات الحية، له بداية وله نهاية. المشكل ليس هنا ولكن فيمن يصنع هذه النهاية. لماذا نزاحم الأقدار في حماقاتها؟ لماذا نقتل شيئاً بإمكاننا أن نحافظ عليه ما دمنا نحب بعضنا بعضا؟ هل كثير علينا أن نكون مع بعض؟

يحدث معي أحيانا أن أسقط في التهويمات وحب الركض وراء غيوم هاربة كانت تركبها الأميرة الجميلة في أحجيات جدتي الكثيرة. وحين أفشل في تحقيق شيء، أحزن بعمق وينتاب قلبي الإحساس بأني فقدت شيئاً ثمينا قد لا يعوض أبدا. لقد صرت في حاجة ماسة إلى الارتباط بأي شيء يمنحني فرصة التعلق بك والتفاؤل وعدم التنازل للأقدار التي أصبحت تنافسها في سلطانها القاسي.

الإدمان على الحزن يا حبيبي صعب في هذه المدينة الريفية التي جعلت من السعادة والبؤس ميادينها الأساسية. غريبة الأطوار

هي هذه المدينة. حتى الحزن يتحول عندها إلى لباس عصري يرتديه الفارغون والذين يعوضون الفعل بالجملة الثورية المبهرة. كم أشتهي أن أخرج من هذه الدائرة التي تأسرني.

شقاؤك صعب. وأسئلتي بدأت تزداد تعقيدا كلما استحضرت أوضاعنا الخاصة ولم أعد أرى لها أفقا. أنت مثلي، تؤمن بما تحدثه تفاصيل الحياة فينا، من معجزات. لكن يبدو أن الله والملائكة قد غضبوا على المدينة وعلينا ولن ينزل أي نور أو أية حياة على أسوارها، فقد انسحبت الملائكة والناس الطيبون منها. أحبك ولكني لم أجد بعد أجوبتي لما يعذبني. عمو طوني في ذلك اليوم أحس بحزني. رجل يقرأ كل شيء من العيون. عنده حق، لا شيء أثمن من العين لفك الأسرار. نحن لا نحزن شهوة في ذلك ولكننا نحزن لأننا لا نملك أجوبة لأسئلتنا المستعصية. كلما كنت معك نسيت همومي الصغيرة ورأيت حبات المطر التي تملأ قلبك لكني كلما غادرتك، عاودني الخوف من الآتي الذي لم أعد متيقنة بملامحه. هل تعلم أيها الحبيب الغالي أن لحظاتنا المسروقة تأسرني. أراك الآن ونحن نندفع بشوق مجنون تجاه بعضنا البعض، داخل فيلا الإطفائية التي جمعتنا ذات يوم، وفي غرفة ضيقة اخترتها أنا وأنت لتكون لنا ونحرر البقية للأصدقاء الآخرين. غرفة ضيقة توفر لنا فرصة تعاطي كل حماقات الدنيا، لعب الورق، والشطرنج وممارسة الحب والجنس بالشكل الذي نشتهي وفي الوقت الذي نحب. في النهاية نتضاحك عاليا كالسكارى، بشكل هستيري ونتساءل كيف وصلنا إلى جرأة التعري في أعين بعضنا البعض. من أين جاءتنا تلك الشجاعة النادرة؟ وعندما نتفطن بأن الأصدقاء يمكن أن يسمعونا، نتكتم قليلا ثم نحاول عبثاً أن ننام. شيء فينا يستعصي على النوم. عفوا، يستعصي على الموت.

هل تسمعني الآن أم مازلت غائبا؟

حبيبتك مريم التي لا تغمض عينيها إلا عليك.

8

ياه! كل هذه الدقة وكل هذا التفاني في الإنجاز المدهش؟ لا بد أن يكون الله وهو ينحتك قد استغرق وقتا طويلا. أحيانا في خلوتي، يبدو لي الله مثل الفنانين، عندما يحب شيئاً يعطيه من نفسه وعندما لا يكون كذلك، ينزع عنه من روحه. أنتِ حباك بكل تأنيه وحبه والدقة المتناهية في عمله.

- أنتَ تبالغ. لست أكثر من امرأة مثل بقية النساء، فيَّ الجميل وفيَّ قدر لا بأس به من القبح لا يخفى عليك أبدا.

- تعرفين يا مريم، أنت المرأة الأولى التي لا أرى حرجا في رؤية جسدها عاريا وأتعرى على مرآها. لا أدري مصدر عقدتي؟

- علماء النفس يقولون إننا نسقط جسد الأم أو الأب على من نشتهي. ربما كانت عقدة الذنب هي المصدر الأساسي.

- ربما أو هكذا علمونا. الله غالب. لا أدري كيف وصلت إلى تجاوز كل هذه العقد المتراكمة في معك. معك وحدك.

- أنا نفسي لا أتعرى بسهولة. معك كل شيء مر بسرعة.

في البداية كنا لا ننزع ثيابنا إلا ونحن داخل الفراش.

ثم تغير فجأة كل شيء بسرعة. صرنا نتعرى وكأننا نلعب. نتعاطى الأفراح الصغيرة وعند اللباس تراقبين عيني، هل ما تزالان تحت سواد أصابعي أم راوغتك وفتحتهما في غفلة منك وملأتهما

بجمال جسدك، ويوم اكتشفت المرأة العظيمة من وراء هذا الجسم الحي، كنا قد تحولنا إلى طفلين شقيين كلاما وفعلا، لا يهمنا البتة إن تعرينا على مرأى من بعضنا البعض أو بقينا بألبستنا.

ـ هاني وين قدامك، عارية مثلما أنجبتني أمي، فهل تحبني هكذا؟

ـ ياه؟ إذا كان الله عاشقا ممحونا بك، لابد أن يغار عليك.

La main qui t'a taillée était merveilleuse, elle ne peut être que celle d'un Dieu pas comme les autres, très passionné par les femmes.
- Et pourtant, ce même Dieu m'a totalement délaissé.[11]

أمد يدي. تصعد الموسيقى من قلبينا. تتأوهين. أشعر بحرارة جسدك. تتحرك أصابعي مقتفية تنهداتك والموسيقى التي لا تتوقف. أدفن رأسي في صدرك. تقبضين بقوة علي. تنفتح شفتاي على الحلمتين الموردتين. تتلوين ويصبح جسدك حارقا مثل النار. أسمع صوتك يأتيني من بعيد؟ لابد أن تكون امرأة مجنونة هي التي علمتك كل هذه الخبايا في جسد المرأة. لابد.

ثم نتكور داخل الفراش. دماؤنا تغلي. نختلط ونصير كائنا واحدا. ننسى في النهاية أننا وسط دوائر مغلقة تشدد ضغطها على ذواتنا ونترك أنفسنا نغيم داخل المطلق.

ثم... تتوقف الموسيقى. تفتحين عينيك شيئاً فشيئا. يظهر بياضهما الصافي. تتحسسين جسدي. أصابعك رقيقة. تأخذين يدي. تضعين الشاهد في فمك. تعضينه قليلا لتتأكدي أني معك. أشعر بالألم اللذيذ. مازلنا هنا ولم نتحول إلى ذرات ضائعة في الفضاء.

تنظرين إلي. تتمتمين:

ـ ياه... معقول أن هناك نساء لم تلمس رجلا في حياتهن؟

(11) لا بد أن تكون اليد التي نحتتك رائعة. ولن تكون إلا يد إله استثنائي، مغرم بالنساء.
ـ ومع ذلك، نفس هذا الإله نسيني تماما.

ـ أكيد. مجتمعنا لا يوفر إلا هذه النوعيات.

ـ كم يضيعن من حياتهن. نقوم؟

ـ مثلما تريدين؟

ـ لماذا الحياة معقدة إلى هذا الحد؟ ولماذا العمر لا ينتظرنا قليلا ريثما نحل مشاكلنا ونواصل؟ لماذا يسرق من حقنا؟

تحاولين نسيان كل شيء وتتذكر إلا هذه اللحظة. نسيان هوس السنوات المرتعشة التي تتخيلين أنها ذهبت مع الريح أو أصبحت مثل النجوم الهاربة، تموت مختنقة بيأسها، تنزعجين فتنكسر في داخلك أجنحة الطيور المسافرة وتتساقط محروقة كل العوالم الجميلة. تختمينها بحجز نفسك في حجرة باردة كليل شتوي ثم تحاولين النوم عبثا.

ثلاثون سنة يا ربي سيدي؟

ثلاثون سنة والحياة مجموعة من الممارسات المكرورة. وهل الزواج يوقف الرتابة والموت البطيء؟ تتساءلين، ثم تهزين رأسك بعنف كبير كالذي ينفض كيسا أفرغ من محتوياته الأصلية وبقي به كم من الزوائد العالقة والأجسام الملتصقة بحواشيه. الكثير مما يحتل رأسك يحتاج إلى مجهود كبير للتخلص منه لأنه يرهقك ويتعبك ويحرمك من الحياة الدنيا. تحاولين ولكنك تتوقفين إذ تشعرين أن مخك أصبح يرن مثل القطع النقدية وأن رأسك صار كشحارة امتلئت حتى أصبح من الضروري كسرها.

ـ مع أني لا أطلب الشيء الكثير. حبيبي، تعرف أني في معظم الأحيان أسخر من الدنيا، لكنها قاسية كالنار، فأجدني في أغلب الأوقات أبحث عن صدر حنون، لا أفتقده ولا يفتقدني. ربما كنت مثالية. صدقني أنه الواقع، الدنيا عادية ولا تستحق منا كل هذا العذاب. كانت أختي خيرة تنصحني بالحذر من الرجال وانتحرت المسكينة وهي لم تعرف رجلا في حياتها. ظلت تكرر نفس الكلام:

إياك من أولاد الحرام؟ الرجال متشابهون، لا يستحقون دموعنا أبدا. في السنة القادمة ابحثي عن وجه جميل وأرغميه على الزواج منك. أنجبي منه أطفالا حتى يصبح رهن إرادتك مثل خاتم سليمان. اركبيه إذا استدعى الأمر، ورطيه، ولكن إياك ثم إياك أن تسلميه جسدك قبل أن يشتريه منك بعقد الزواج.

ـ اليوم، المسافة التي صارت تفصلني عن أختي خيرة ازدادت مع السنوات والهوة تعمقت وها أنذي أمنحك جسدي بإرادتي لأني بقدر ما أحبك، أشتهيك ولا أطمح مطلقا أن أكون قديسة مثلها أبدا.

يقهرك حضور خيرة في ذاكرتك. تتألمين لها. تصمتين.

تنظرين إلى السقف بعينين صافيتين مثل حبتي مطر. تشعرين بالغبن يأكلك في العمق. كنت أخاف عليك أن يظل هذا القهر ملازما لك حتى الموت. كل شيء فيك يتبدل بسرعة. ذهاب خيرة ترك فيك فجوة كبيرة من العبث. صحيح أنها ارتاحت من اللاجدوى ولكن ألم يكن من الممكن أن ترى الحياة بشكل آخر؟

ـ يبدو لي أن الله لا يعرف جيداً أصدقاءه وأحبته.

ـ مثل البشر، يضيعون وقتا كبيرا في البحث عن اللاجدوى ويتركون الحياة تعبر. والحياة لا تنتظر أبدا.

ـ ما العمل إذن؟

ـ لا شيء. من حين لآخر علينا أن نتذكر أن وجودنا مع بعض حظ كبير وليس أمرا هينا ولو بدا من حين لآخر عاديا ومستهلكا. سيأتي علينا زمن لن نجد في حتى هذه الفرصة.

تعود نغمات الموسيقى الناعمة. تدخل المسامات بهدوء كحبات المطر الدافئة. تنظرين إلي قليلا. تحفرين قسماتي ثم تغمضين عينيك مثل الدمية. تعضين بلذة أكثر على إصبعي الصغير ثم تنامين على ذراعي الأيسر، قريبة من قلبي، تماما في النقطة التي تعودتِ أن تسندي عليها رأسك.

9

كيف أصبحتَ اليوم؟

منذ مدة لم نلتق. كيف هو مخبأنا الصغير في حي سوق ساروجا؟ كيف هو عمو طوني الذي لم يرنا مع بعض منذ مدة طويلة؟ كيف هو أبو هيثم، الكندرجي الطيب الذي يؤجر لك البيت؟ هل يزورك الأصدقاء أم مازلت مقاطعا لكل محيطك لتكتفي فقط بسيلفيا وعيد عشاب؟ يبدو أننا ضعنا يا حبيبي. لا أعرف إذا ما كان علي أن أحقد عليك أم أعبدك؟ طوال هذه السنوات لا أنا استطعت التخلص من وجهك ولا أنت استطعت أن تحسم أمرك مع نفسك؟ سارة عندما تكبر سأحكي لها عن كل شيء. كل شيء وستغفر لي حماقتي التي مارستها مع الرجل الوحيد في الدنيا الذي هز كل يقينياتي.

الطبيب أصر علي بعدم الحركة لأن ذلك كله سيؤذي سارة. كما أعرف سخريتك، لو تراني، ستضحك مني كثيرا. لقد صرت مدورة كالتفاحة. سارة بدأت تتحرك في بطني وتضرب برجليها وكأنها تريد الخروج بسرعة. جعفر لم يعد يقترب مني كثيرا ربما لأني لم أعد شهية أو ربما لأنه مل من المحاولات اليائسة. بعد شهر من القطيعة معه في الفراش، حاول معي البارحة، ثم حاول فرفضت، كنت مسكونة بك. ثم حاول فانصعت لأن خوفا ما انتابني لا أدري مصدره. حتى عندما أرضيته لم أكن إلا معك.

كيف أنتَ؟

رسائلك تصلني عن طريق صديقتنا المشتركة سيلفيا. تعرف أحيانا أغار من حريتها. أجد أنها تشبهني كثيرا. حل عينيك؟ نخرب لك بيتك لو كان تدور بها؟ أمزح. سيلفيا طيبة ومتفهمة وكبيرة القلب وتحبنا وتموت في صديقها عيد وأعرف أنك تساعدهما قدر ماتستطيع.

لقد كنت مريضة ولزمت الفراش مدة طويلة. ولذلك تغيبت عنك. كل هذا لم يمنعني من التفكير فيك. كلماتك هي التي تخرجني من قلقي ومن يأسي. وقنوطي. مقالك الأسبوع الماضي لم أطلع عليه لست أدري ماذا كتبت فيه. لقد فاتني. حتى جعفر لم يعد يشتري الجريدة التي بها مقالاتك، أو يشتريها ويمزقها في الطريق قبل أن يصل إلى البيت.

ياه؟ كم أنت غبي؟ بعد كل ما كتبت لي تسألني؟ أنت الوحيد من يفهمني فهل يعقل؟ حتى ولو كانت حماقاتي كبيرة فأنا لا أملك إلا أن أحبك. القلب الذي وسع الحب الكبير يسع الغفران الكبير. الحب مثل الموت مخيف. هكذا أنا اليوم. ماذا بقي لي أن أقول بعد جملك الكبيرة. سأعيش عليها وأعمل بما تشتهيه. أنت الآن الوسيلة الوحيدة للحياة وسارة. ها أنذي فيك. أستمع إليك: مريم، امرأتي الهاربة من حلم مجنون، افتحي عينيك على وسعهما ولو مرة واحدة في حياتك. وسترين أن الدنيا جميلة وتستحق أن تعاش. جربي، فلن تخسري شيئا. غير قيود الثلاثين سنة التي تأكلك في هدوء. وعقدة الكبر ونصائح أختك خيرة التي انكسرت قبل الأوان، والضباب، الضباب الذي يعمي البصر والليل المتهالك في عينيك المرهقتين اللتين لم تعد تبرحهما هالة المتاعب. جربي فقط وسترين.

أنا ما زلت هنا، في المكان الذي تركتني فيه آخر مرة، عند المنعطف المؤدي إلى اللاجدوى أو إلى الجنة، لا أدري، أنتظر بدون أمل كبير في رؤيتك... أنتظرك...

أرأيت واش راك داير في أنت وعود النوار ديالك؟

علمت أنك ستسافر لمدة عشرة أيام. اذهب وعد لي بالسلامة. سأنتظرك دائما. أرجوك لا تطول كثيرا، فوجودك وحده بهذه المدينة، يعطيني الإحساس بالطمأنينة والراحة. سألد بعد مدة قصيرة وكم أتمنى أن تكون حاضرا في المستشفى وأن تكون أول من يرى سارة وهي تفتح عينيها على الدنيا.

معذرة أيها الحبيب الغالي، أنا دائماً أخطئ حيث أريد أن أكون استثنائية في حبي لك. لا تزعل مني. تحمل حماقاتي كما فعلتَ ذلك دائما. من جهتي لا أفعل شيئاً مدهشا ولكني أحاول وسط هذه العزلة أن أجعل الحياة ممكنة التحمل.

وين تروح مني؟ مهبولتك دوماً وأبداً.

الفصل الثالث

بداية التحول

1

أتساءل اليوم وسط هذا الخواء المخيف هل بقي للسنوات معنى؟ لا أشعر الآن إلا بالحياة وهي تهرب مني كالعصافير الضالة. لقد ابتعدت الحياة وصار الموت قريبا منا. حتى أغاني فيروز التي كنا نعشقها وسيمفونيات موزارت انسحبت فجأة. كلما بحثت عن وجهك الضائع بين الوردة والسكين، لا أجد إلا أصداء كلماتك وهي تودع السنوات الماضية برمشات عيون حزينة وعاجزة عن إيقاف انهيارات الزمن. شيء ما ينخرنا من الداخل لا نستطيع أمامه أي شيء سوى إعلان فشلنا الكبير.

لست شقيا رغم أني ورثت الحزن عن كل أجدادي الذين مروا من هنا. الشقاء ليس مهنتي لكني عندما أكتب علي أن أشعر بعمق الخسارة وقسوتها.

من يتذكر باريس ذات سنة خلت؟ أنا أتذكرها. إني أسمعك الوليتها وأنت تسرحين شعرك الساحلي الجميل أمام مرآة عالية. أراك معلقة على النافذة المطلة على الطريق السريع، في ذلك الحي الجامعي الكئيب. في الليل شربنا واكتشفنا أن لنا جسدين يستحقان أن يُحتفى بهما. وعندما عدنا إلى مدينة الشوق كنا حزينين. كان دفء الغربة كافيا لإيقاظ الأعماق الدفينة.

وأنا أعبر الشارع الخلفي الذي يمتد من لوكسمبورغ إلى سان ميشال رأيت وجهك هاربا نحو مخابئ الروح. إلى أين؟ إليك أيها

البعيد؟ هل هناك غيرك في هذه المدينة؟ تركت كل شيء وجئت معك؟ هذا لا يكفيك لتعرف كم أحبك وكم أشتاق إليك حتى وأنت معي. أسمع صوتك. يأتيني نقيا كشمعة. وأنام عليه على الرغم من بحة الفرحة والانكسارات الدفينة.

أقرأ رسائلك الأخيرة المجللة بالسواد والحب والخوف. أرتعش أمام الكلمات وأمام حالة الصحو التي تخطين بها حروفك. يا بختك ما أقوى قدرتك على التمييز. أنا منذ زمن لم أعد ذلك الكائن الذي يقلب كل شيء ويقوده نحو ما يرضيه. آخذ الدنيا كما تأتي ولا أفلسفها كثيرا ولو أن اللوثة كما تسمينها التي جاءتني من قراءاتي، ما تزال في. لا نتخلص ممن أحببناهم ومنحونا فرصا كبيرة للسعادة والفرح داخل الكلمات، هكذا. أدخلني سارتر داخل السؤال العادي وحفره معي حتى فاض الجوهر كما يفيض ماء العين وفتح ماركس عيني على محيطي وعندما أردت أن أشيح بوجهي قبض على رأسي ومنعه من الحركة وجرني رامبو نحو الجحيم، كنا نمشي ولم يكن يأبه للحرائق التي كان يخلفها وراءه وكسر نيتشه كل يقينياتي وجردني من كل أسلحتي القديمة ولم يعطني إلا قطعا مفككة وطالبني باستعمالها وجعلني كافكا أكثر هشاشة من أية لفحة صباحية، أنكسر وأقوم ثم أنكسر وأعاود القيام بصعوبة.

لقد تغيرنا كثيرا أيتها الحبيبة والحياة أيضا لم تعد كما كانت، ببساطتها وعفويتها واندفاعاتها. أحس وأنا أقرأ ما تكتبينه أننا لا نرتاح إلا داخل شهوة الفقدان. خسرنا كل شيء إلا مبادرة الكتابة والحنين إلى الكلمات التي تدخل إلى القلب مع موسيقى الليل والياسمين التي كنا قبل زمن لا ننام إلا عليها. أما زلتِ تفعلين ذلك إلى اليوم؟ أمازلتِ تقولين لنفسك أو لجعفر إنك تخافين من الصمت والموسيقى تزيل وحشة الأشياء وتملأ المكان بالحياة؟ أم أن شروط الزواج تملي عليك قسوتها وتقودك حثيثا نحو قبول شروطها القاسية؟

يقول المجربون الذين خسروا العزوبية ثم الزواج بعد ذلك: الزواج محنة، الداخل له مفقود والناجي منه موعود؟

تتمتمين ردا على سؤالي:

ـ وقيل أنتَ ما تعرفنيش؟ منيش بنت البارح. مهبولة وسأنتهي بنفس هبلي. ما نعرفش نرقد بلا موسيقى. ما نقدرش نبقى مع رجل ما يعرفش يسمع. الله غالب يا صاحبي. أصلا عندما يعم الصمت في البيت أشعر بالظلمة التي لا تقهرها إلا الموسيقى.

ـ هل يوجد غير الموسيقى من يعطينا شهوة الحلم والذهاب بعيدا في حنيننا؟ نتحمل قسوة الحياة وصرامتها، لأن الموسيقى من حين لآخر تفاجئنا بعنفوانها ودهشتها وتشعرنا بطفولتنا الدائمة وإلا من يملأ هذا الخواء المفجع الذي يزداد اتساعا فينا كل يوم؟

أفتح رسالتك الأخيرة. أشم عطرك. أشمك. أرى جسدك وهو يتخبأ من وراء الحروف الواقفة حتى لا أراك عارية. عبثاً تهربين من نظراتي. تركضين من هنا وهناك واضعة يديك على عانتك مثل حواء. تموهين. تتلوّين داخل حرف القاف، تستقيمين من وراء الألف، تحدودبين مثل حرف الدال ثم أراك تتمددين مثل الباء... ثم أخاتلك لتجدين نفسك وجها لوجه معي. وين راح تروحي مني؟

قبلة... حبيبي... روحي... ثم الغوص في حالة نسيان كلي.

أراك في كل تفاصيلك. أحاول أن أنام.

يهرب النوم من عيني وتحضرين أنتِ.

2

صباح الخير أيها الغالي.

صباح الأشواق حبيبي المنفي في دمي.

سعيدة أنك لم تتأخر كثيرا. بدأت بسرعة أفتقد كلماتك التي عودتني عليها وسط هذه العزلة التي اسمها البيت. ما زلت كما تركتني في المرة الأخيرة، مدورة كالتفاحة ولا أخرج إلا نادرا. جعفر، المتحمس الوحيد لحبه لي، بدأ يقلق. أحيانا أشفق عليه ولكني لست سيدة قلبي. أعتقد بمجرد ولادتي سأتركه وربما هو نفسه سيفعل نفس الشيء إذا تخلص قليلا من أنانيته ومن غيرته منك. سأخبره بالحقيقة حتى ولو آذيته. لا شيء يجمعنا سوى حماسه ولا حديث لنا إلا أنت ومرضه بك الذي صار مزمنا وعصابة أصدقائه الذين يأكلون وقته ولا يجدون متعة إلا ذمك وشتم كل من يحبك. يحسدونك لأنك أنت. أشعر أحيانا أن غيرة الرجال قاسية لأنها جافة. لست أدري الموجة المجنونة التي قادتني نحوه. كنت أريد أن أنتقم منك فانتقمت من نفسي وربما منه كذلك. الوحيد الذي لم ييأس من صدي له. أغفر لي حماقاتي، لم أكن أريد أن أثقل عليك. نجلس أحيانا لنكتب شيئاً فنجد أنفسنا في مواجهة جمل لم نكن نتصور أنها ستقفز أمامنا بسرعة وتفرض نفسها علينا.

سيلفيا هي التي أخبرتني بعودتك من سفرك الأخير ولهذا سارعت بهذه الرسالة. منذ زمن لم أر فصل الربيع معك. منذ عودتنا من باريس في تلك السنة التي صارت اليوم بعيدة، ذهبت السعادات

الصغيرة التي كنا ننهبها كلما كان ذلك ممكنا. ها هو شهر ماي يعود بعصافيره. يحرك كل مكامني. لم أعد أراه إلا من وراء النافذة وأنا أحاول أن أتحرك حتى لا أصير ثقيلة. لماذا يؤرخون بالسنوات وليس بالشهور الجميلة. تخيل كم مر من شهر منذ خلق البشرية؟ كم أشتهي مثلا أن أقول أنه في ماي المليار والسابع والعشرين من سنة كذا... وُلد فلان؟ سأشعر بأن هذا الشهر المرقم بهذا الشكل هو ملكي.

هذه الأيام، بدأت أشياء كثيرة تضايقني. أصبح الموت يسكن معي. يأكل بجواري في نفس الصحون وأحيانا يتعدى عليَّ علانية. أخاف فقدانك. قلبك مرهف وشفاف وأنت لا تأخذ أي احتياط فيما يتعلق بصحتك. أحيانا أتساءل ماذا يحصل لو فاجأني الموت أو فاجأك قبل رؤية سارة؟ سألعنه ولن أدخل القيامة المهيأة لي وسأحتج على الله. ليس من حقه أن يسرق مني أمومتي. ثم أهدأ وأقول، سمعت هذه الأحاسيس من كل امرأة تتهيأ للولادة. أمي كانت تقول إن قبر النافسة يظل مفتوحا أربعين يوما. لست الأولى ولا الأخيرة التي ستسلك هذا المعبر الذي اخترته ودفعت ثمنه. تخيل امرأة تدفع ثمن رجل تحبه بشكل معلن؟ يبدو لي أن هذا لا يحدث إلا في القصص الرومانسي فقط.

لقد صرت بعيدة عنك. لم أختر هذا القدر التافه ولكنه جاء. معذرة عن كلماتي السابقة إن كان فيها ما يؤذيك. المهم كيف حالك؟ طمئني؟ مقالك النقدي الأخير اطلعت عليه وفهمت من تقصد. أولئك الكتبة الذين يبيعون ويشترون. قناعاتهم شعارات وأقنعة ولكن لا تأبه سيسقطون مثل اليباس وأوراق الخريف من أعين الناس لأنهم خاسرون. مع ذلك أنا أتلذذ بنصوصك الأدبية أكثر. لو خيرت، لقلت لك توقف. النقد يكتبه اليوم العاطلون عن الحلم ويستهلك وقتك. سيقوم النقاد على رأسي ويشتمونني لأنني تعديت على مساحاتهم ولكنهم لا يستطيعون منعي من أن يكون لي رأي كأية قارئة مجتهدة. سيقولون عني ما تعودت سماعه قبل أن نلتقي، ولكن غير مهم. خليك

وسط جنون الإبداع. كلماتك التي تنحتها، تمنحنا فرصا لا تعوض للحلم. وحياتك كلما قرأتك شعرت بالدفء وبشيء من السعادة. أستعيد شيئاً ضاع مني ولو ظل في دائرة المبهم. ألم تقل لي ذات مرة ونحن في شبه غيبوبة في «طوق الياسمين»، داخل العوامة، على الحافة المظللة من مصب نهر بردى:

- L'écriture doit d'abord nous faire rêver, si non elle ne sera qu'un ensemble de petits mots sans grandeur.[12]

وإلا ما جدوى الكتابة خارج الحلم والجنون؟

أنت أعرف مني في هذه الأمور ومع ذلك أسمح لنفسي للدخول في عوالمك الخاصة، ولكني لا أستطيع أن أكون معك حيادية حتى وأنت بعيد عني وربما لم أعد أعني لك ما كنت أعنيه قبل سنوات. لأدري؟ فأنا هكذا. كلما قرأتك اهتز فيّ شيء عميق لا أستطيع تحديده وانتابتني السكرة. عندما لا أشعر بذلك أكتب لك لأخبرك بأن شيئاً ما في غير مكانه.

أحبك وأفكر فيك كثيرا.

مهبولتك التي تحن إليك وتتمنى عبثاً أن تنساك. مريم.

(12) على الكتابة أولا أن تمنحنا فرصة للحلم وإلا فلن تكون إلا مجموعة من الكلمات التي لا شأن لها.

3

كنا ههنا نقف. تماما، في هذا المنعطف المؤدي إلى طريق بيروت. برد الشتاء في هذه المدينة لا يعمل إلا على إيقاظ الجروح القديمة. المطر. أخبئ رأسي بين يافطة معطفي الخشن وأراك تأتين بكل طولك وعرضك وأنت تعبرين ممر المشاة متأخرة قليلا عن الموعد.

«خليتك تستناني؟ عذرا حبيبي».

قبلة، ثم نعبر الشارع باتجاه عمق المدينة.

مرة أخرى يأتيني ذلك الشيء المبهم الذي يستعصي باستمرار على فهمي. يتسرب داخل الدم كالرغبة.

اكتشفنا بعضنا بسرعة وكأننا كنا متعارفين قبل هذا الزمن. أول مرة التقينا، قبل أن تتخطي العتبة وتكتبين الرسالة الأولى، كانت أسئلتك غريبة. تشبهك. لم أكن أملك ما أقاوم به فضولك.

ـ إذن أنت تكتب؟

ـ أخربش. لكن في كل الأحوال لا أكتب إلا ما يسعدني أولا.

ـ تعرف، أني عندما قرأت لك في الصحف الوطنية لم أكن أتخيلك هكذا.

ـ ياه؟ وقيلة أنت مسلطة ضدي. كيف كنت أبدو لك؟ خيبت ظنك.

ـ لا أدري لماذا ولكني تخيلتك دائماً أكبر من هذا السن وأكثر قصرا واستدارة.

ربما حدث معك ما يحدث مع الكثيرين. كنت تتوقعين رؤية رجل أشقر. آسر الجمال. حارق العينين. قهر جميلات الحارات الشعبية وغواني البيوتات العالية. يمتطي صهوة براق أبيض كالحليب. طيب وصدره باتساع الموانئ التي لا ينفذ ركابها ومسافروها. ويزوق وجهه بلحية كثة ورثها خطأ عن «*تشي غيفارا*» وبشاربين طويلين مثل «*سالفادور دالي*»، شقا صدر البحر وعواصف الرمل وبنظارتين صغيرتين مثل نظارتي «*أنطونيو غرامشي*» وعكازات إنجليزية، وشعر مصبوغ الأطراف ببياض يعطي الإحساس بالشيب والوقار.

لم أكن شيئاً من هذا. كنت أنا فقط.

ـ لم أكن أتوقعك هكذا. أنا لا أمزح.

ـ الله غالب. وماذا كنت تنتظرين؟

ـ رجلا غيرك.

ـ من سوء حظك.

ـ يفترض أن تكون شخصا آخر.

ـ مثلا.

ـ أن لا تشبه هذه الخلائق البشرية.

وضحكتِ، ظننتني أسخر منك، حين صارحتك لأول مرة بأني كبرت بين الأغنام والذئاب وأن وجودي بهذا المكان هو مجرد صدفة وكان يمكن بكل بساطة أن أكون مهربا للمخدرات أو مجرما أو راعيا، لا شيء كان يؤهلني لأن أكون ما أنا عليه اليوم. وطفلا بائسا تربيت، قبل أن أدخل هذه البلاد التي تفتح عينيها على الغادي والرائح. وعملت فلاحا عند أحد أعمامي في أرض جافة لا تنجب إلا اليباس. كنت مولعا بالجري وراء كلاب الحارات الضيقة ومطاردة

القطط الضالة لأني كنت أظنها كلها مريضة وأنها هي التي أصابت كلبي الصغير بعدوى الكلب مما تسبب في موته. ومهووسا بممارسة لعبة الحرب مع سكان الأحياء المقابلة. كنا دائماً ننتصر لا لأننا كنا الأشجع ولكن لأننا كنا الأكثر عددا، وأتذكر جيداً أننا ذات يوم ألقينا القبض على طفل من الحي العدو فأكلناه الزبل وروث البقر والأعشاب المتوحشة التي تسكر وتدفع إلى القيء. كاد أن يموت بين أيدينا لو لم ينقذه السي ابن زيان، شيخ القرية الذي رقّص الجن ودوخ النساء وكنا نخاف غضبه.

ـ زد تمسخر بي. واش من بعد؟

ـ أشياء لا قيمة لها.

وقلت لك أني تربيت في أحضان الجدة لأن والدي قضى كل عمره في الغربة. عشقته حتى أكلته. أبي ابتلعته مناجم الشمال وأشواق المدن المضاءة التي لم يكن يراها إلا في البطاقات البريدية التي كان يرسلها لنا. فقد قضى العمر كله في ظلال المدن الكبرى يبحث عن شمس ظلت بعيدة، بعيدة بعد هذه الأنجم التي تشرق وتنطفئ كل يوم بالآلاف وبالأعداد التي لا تحصى. وذات ليلة باردة دفن تحت ردم المنجم ولم يعثر له على أثر. بينما كانت البلاد تحتفل باستقلالها، كانت أمي تبكيه وتبكي أرضه التي ورثها رجال غامضون.

قهقهتِ. لا تصدقين أذنيك وعينيك.

ظننتني أتمادى في السخرية.

ـ إيه يا سيدي وماذا حدث بعد هذه الكوارث؟

ـ لا شيء. كبرت واخترت الحياة على الموت والسهولة.

تحترق أشياء كالأوراق العتيقة في دماغي. ألزم الصمت لحظة. إنها البداية. لم يحزنني الأمر كثيرا، مع أني كنت أشعر من حين لآخر بأشياء تفور في دماغي كالبراكين الخامدة. فقد كان هذا القلب الذي

ورثته عن القرى المعلقة في الذاكرة، أكبر من أن يحاسب طفلة مازال بينها وبين إدراك ضعفها عمر محفوف بمخاطر شجيرات القندول والأشواك المسمومة والنباتات اليابسة التي تقدد لحم الأرجل. مع كل ذلك، كنت جد معجب بصراحتك التي قد تصل حد القسوة. كانت عوالمك جد ضيقة مثل عين إبرة ولكن صراحتك أذهلتني وضايقت يقينياتي.

التفت نحوك وسألتك بنفس العدوانية والشراسة وكأني كنت أدافع عن مساحة كنت تحاولين احتلالها في.

ـ إيه؟ ولالة واش تكون.

ـ لا شيء. Un rien du tout أنت لا تعرفني. أنا لست كاتبة. أنا قبل أن آتي إلى هذه المدينة كطالبة دراسات عليا، كنت مديرة. أسير معهدا بكامله وكان علي أن أكون امرأة ورجلا في الوقت نفسه. الرجال لا يرحمون وخزراتهم تعريك كل صباح. كل من فشل مع زوجته يأتيك صباحا يجرب معك. كنت دائماً أقولها لهم: الذي يفشل مع زوجته لا يمكنه أن ينجح مع امرأة أخرى. شوفوا أرواحكم أولاً. ينكمشون. الرجل يقبل بسرعة خسارته، ليس مثل المرأة التي تعطيك الانطباع بالخسارة ولكنها تظل في خفاء ما تبحث عن أكثر الأسلحة فتكا.

ـ ذكرتني بأنك لم تكوني سهلة لأن الحياة لم تمنحك فرصاً كثيرة مثل غيرك. وكان يكفيك أن تفرضي نظرتك على الآخرين. أحبك الكثيرون، لجرأتك ولشجاعتك أو ربما فعلوا ذلك نفاقاً حتى يسلموا من شرك. كانت شقق الأساتذة الشرقيين المفروشة والملونة بأحلى الألوان والموسيقى التي تنبعث من زوايا موهومة، تدوخك وتمنحك فرصا صغيرة للحياة. تعشقين كل ما يعطيك الإحساس بأنك أصبحت كائنا لا يخضع لطقوس هذه الأرض. كنت ضمن شلة لم تكن تطالبك بالشيء الكثير. أن تتقاسمي معهم بعض الحنين والأشواق والانكسارات العربية. كانوا يسيسون كل شيء وكان

زملاؤك من الجزائريين لا يعرفون شيئاً في السياسة. كنت تظنين أن كل من ينتقد الوضع السياسي للبلاد هو عميل لقوى أجنبية قبل أن تكتشفي أن الدنيا كانت أكثر تعقيدا من حالة التبسيط هذه. المشارقة فتحوا عينيك على التفاصيل الصغيرة التي لم تكوني ترينها.

ـ شفت؟ لا شيء يثير في حياتي.

ـ الناس ليسوا مجبرين أن يمروا بنفس المسالك.

ـ آه؟ نسيت أن أقول لك أني مولعة بالأدب العربي القديم وليفي شتروس الذي اكتشفته مؤخرا. أشعر أن في الخرافة تفسير لحياتنا ولكن كذلك لكل ما تركناه يموت بغباء. وأنت تقرأ هذا الشعر تشعر أنك أمام عوالم قائمة بذاتها. عمران، لا يمكن أن يكون ثمرة سنة أو قرن ولكن ثمرة تراكمات لا تحصى. لا أدري لماذا تركنا أشياءنا الجميلة وسلمنا فيها بسهولة؟

ـ ربما لأن الحياة لم تعد على ما كانت عليه. شيء يمس كل الآداب العالمية.

ـ ومع ذلك. نحن دائماً نبالغ.

ـ ما دمت تحبين هذا الأدب اسمعي قليلا.

انتحيت جانبا. ابتعدت عنك قليلا وفعلت ما يفعله أصحاب الحلاقي عندما يستعدون لقص قصصهم. صفقت ثلاث تصفيقات حارة ثم بدأت أتحرك في مكاني:

«يا السامعين ما تسمعوا إلا سمع الخير. كان بكري، في الزمن الأول حيث كل الأشياء كانت تتكلم قبل أن يصاب بعضها بالخرس. كانت هناك قبيلة يقال لها بنو هلال. كانت منازلهم في أيامها الأولى غريزة المياه، كثيرة الأعشاب والخيرات حين نزلت بها المجاعة. فغاضت آبارها ويبست أعشابها وذوت أشجارها ولم يعد للحبوب فيها أثر ولا خير. وظلت الحالة على هذا الحال سنوات لم يبق بعدها لبني هلال صبر ولاجلد، فاجتمع مشايخ القبيلة

وقصدوا مضارب الأمير حسن ابن سرحان وتحدثوا إليه بما آلت إليه الأحوال وطلبوا منه مغادرة الأرض إلى مكان خصب تتوفر فيه المياه والخيرات، قبل أن يموت أفواج القبيلة من الفقر والحرمان. وما كان منه إلا أن أعطى الأمر بطي الخيام والتوجه نحو الغرب حيث الخصب والحياة...».

ـ يزي. وقيل أنت لا يستطيع المرء أن يكون معك جديا؟

ـ مريم؟ لا تأخذي الأمور بهذه الحدية. الحياة ليست بكل هذه الصرامة. عندك حق. وأنا مثلك أحب الشعر والخرافة والقصص القديم. فقد تربيت عليها. لكن للحياة منطقها وقليلا ما تسألنا عن رأينا فيما تريد فعله.

التقينا على أسئلة حادة وافترقنا على نفس الأسئلة وكأننا طوال الزمن الفائت كنا فقط نتدرب للحصول على إجابات فشلنا في إنجازها. ما تزال إمكانات الخصب قائمة داخل ذاتك التي بدأت تتكسر كأحجار الوديان الجافة. لم تكوني في حاجة إلى قطع مسافة بني هلال المرعبة لتدركي كم كنت مخطئة قبل هذا الزمن حين ضيقت الخناق على الحياة. حياتك.

حين ذكرتني بمخزون قلبك وذاكرتك المرهقة أدركت، وكنا قد التقينا في هذا القبو المظلم الذي يتسع للنمل من خلق الله، كم أنك ما زلت هشة وناعمة، وكم أن عينيك ما تزالان كعيني صغار الأرانب مغلقة ومندهشة من نور هي مجبرة على اكتشافه. الأيام التي مضت كالبرق، كانت عاجزة عن تسريب النور إليهما.

وحين أعرتك كتبي، ووضعتها بين يديك، بدأت تكتشفين أن الدنيا ليست فقط الحرام والحلال أو السير القديمة ولكنها بعض الجنون والحرية والحب. بعد زمن قصير بانت لك فجأة سيرة سيف بن ذي يزن مهزوزة، وتحولت طيبة الملك أفراح إلى سذاجة وغباء كبيرين. لم أقل شيئاً ولكني كنت أعرف أن قلبك كان يزداد اتساعا

كلما دخله هواء جديد. ثم أقسمت أنك في العطلة القادمة ستتطوعين لصالح الثورة الزراعية كما كنت أفعل، وتدخلين البلد وتضحين بعطلتك الصيفية. وستقنعين أهلك بحقك الذي لا يناقش في خدمة البلاد والأحياء الشعبية.

رفرفت أجنحة قزحية في عينيك.

وأصررت على أن المسألة جدية.

وحدث أن سألتني ذات مساء وأنا ملتف في برنوس أسود قديم ورثته عن رجل كان يطمح في أن يكون فقط مواطنا صالحا، لكنه لم يظفر بهذه المواطنة التي احتكرها وامتصها الرجال الغامضون الذين قدموا من بعيد. من وراء النار والبحر والانتصارات التي أتت بهم ووضعتهم على أجساد الذين مزقتهم الحروب والفتن المتتالية.

ـ أنت مثلا. كيف أصبحت بهذا الشكل؟

ـ تعبت على نفسي.

ـ هل سأخضع لنفس المتاعب حتى أصبح مثلك؟

ـ لكل واحد معابره.

ـ لم أفهمك جيدا؟

ـ التجربة والحلم والإصرار على الحق في الحياة.

ـ هذا ما كان؟

ـ فقط لا غير.

تساءلت في خلوتي لماذا مريم تعذب نفسها؟ عندما نريد أن نشبه شخصا آخر، هذا يعني أننا بدأنا نعشقه وأن القلب بدأ يخفق لشخص بعينه. شعرت بك تقتربين بخطى حثيثة نحو قلبي وكنت من جهتي أركض لأبتعد عنك ولكني في كل مرة كنت أزداد قربا منك. ظلت أنفسنا تقاوم حبا ولكننا باستمرار، نثبت خطوة تقودنا نحو نقطة اللارجوع.

حكيت لك عن كل اللحظات التي ساهمت في تحويلي على الرغم من هذا الضعف الذي ما زلت أحمله والذي علي أن أقهره. وأعجبت في ذات مساء بحركة التطوع الطلابي لأنها تمنح فرصا استثنائية لاكتشاف الناس، وجوهر الأرض التي استقبلت أولى الصرخات المكتومة التي نولد بها. وذكرتني بأختك الكبرى خيرة التي فتحت لك كل الأبواب وأغلقت باب السياسة. قالت لك أكبر مضيعة للوقت أن نركض وراء الأفكار الفاسدة التي تشيعها السياسة والساسة.

ـ يبدو أن خيرة لم تترك لك أية فرصة لتكوني أنت.

ـ خيرة ضحية كل شيء. لقد تكاتف الجميع على قتلها. الأهل، المحيط، المجتمع والذين صوروا لها الحياة بالشكل الذي دفعها إلى الانتحار حرقا.

ـ يجب أن تخرجي من هذه الدائرة.

ـ خيرة عبدت لي الطريق، أو على الأقل هكذا كانت تظن. وضعت أمامي الصلاة، الزواج، ولكنها لم تقف في أي يوم من الأيام ضد دراستي. كانت المسكينة مزيجا من أبي وأمي وخالتي وجدتي ولهذا لم تتحمل طويلا.

ـ خيرة لا يمكنها أن تكون إلا هي. ثمرة لكل هذا الخليط. لم تتح لها فرصة واحدة في حياتها للحياة كما يشتهي عمقها وإلا لما كانت كما هي وربما ما انتحرت.

ـ غريب، أنت تقول شيئاً عاديا ومع ذلك فوقعه علي يبدو غريبا. كل يوم أشتهي أن أستمع إليك أكثر. أنت وقيل سحار؟

ـ سحار لمن أرد أن يسمعني وربما أن يحبني.

ـ أحبك... عفوا لمن يحبك.

كالطفل الذي يكشف فجأة عن كذبته، ارتبكت ثم تماسكت. صمتت قليلا. هزت الكلمة مكامنها للمرة الأولى. منذ تلك اللحظة

تأكدت أن في قلب مريم شيء من الرعشة والهشاشة نحوي وبعد أيام قليلة كتبت رسالتها الأولى.

ـ أنت لا يمكن إلا أن تُحب.

أحبيني يا مريم بالقدر الذي تشائين، لن تجدي أمامك إلا ابن الوديان وصديق الخلاء والذئاب والبراري والمدن الحية والقرى المعلقة في القلب. ابن القرية المرمية على الهوامش التي نسي واضعو الخرائط ذكرها. لن أكون أبداً حتى ولو اشتهيت ذلك، سيف بن ذي يزن، وهو أحد الذين أحببتهم. لن أشرب لبن غزالة حمراء اليمن ولن تطاردني رماح سيف أرعد. تذكري يا صديقتي أني كبرت مثلما يكبر آلاف الخلق الفقراء فلن تأخذني ملكة، جبال القمر ومنابع النيل، زوجة الملك الأبيض من ملوك الجان، إلى حضن الملك أفراح. رضعت من ثدي أم أذبله الفقر والجوع والمارة الغامضون وذوو الأحذية الخشنة الذين كلما سمعت أصداءهم اهتزت كالطائر المذبوح. لم أرضع مع الجنية عاقصة، ولست قادرا على الجلوس على ركبتي يا شامة وأقوال لك في لهجة وحش الفلاة بعد أن قطعت القفار والمفارز الخطيرة.

«ما يبكيك يا أجمل ما في الدنيا؟»

وتنظرين إلى وجهي، يبهرك جمالي الروحاني الذي ورثته عن قمرية، أمي، التي قتلت زوجها وسقطت بين سيوف ملك الأحباش وحكمة سرقديوس.

أنا أيها الشاب المليح بنت ملك وسلطان. وقد تزوجني عفريت من الجان. أنا شامة وهذه أسوار مدينتي وهؤلاء أهلي وأقاربي .

ويصعب علي يا صديقتي الغالية، أنا البدوي، ضعيف السحنة والذراعين، أن أنزع يد المارد المختطف وأدميه في مقتله. فالجن لايسيل منها الدم وإنما الدخان لأنها خلقت من نار. أنا أصغر من كل هذه الشهوات التي تملأ ذاكرتك وبصرك. لا أملك لا سحر ولا قوة ابن ذي يزن ولا حتى سوطه.

أحبيني بالقدر الذي تشائين لكن لا تري في عيني صهيل جياد أهل حمراء اليمن. خذيني كما أنا، ذئب ضائع في برية اسمها المدينة. ليس لدي صبر مغامس الذي أرهقه حب شاه الريم. فبنو هلال يا صديقتي على طيبتهم، خطيرون وقتلة. سيوفهم لا تعرف الأغماد.

أحبيني، عندما يفاجئنا الموت لا نتذكر إلا الوجوه السمحة التي منحت لنا القلب والجسد والروح بسخاء وغضت الطرف عن الحماقات الصغيرة التي لا تغير كثيرا في نظام الأشياء. الأيام وحدها شاهدنا وفرصتنا لضرب أجمل موعد مع الحياة.

قولي أحبك، ما الذي يمنع قلبا من أن يهتز لدمه؟

4

أليست الدنيا جميلة وتستحق أن تعاش بعمق؟

أظن أنها كذلك.

ـ عندما يمتلئ القلب لا أكتم صراخي: آه يا يما الحنانة وعلاش أنجبتني بنتا؟

قلتِها بحزن ثم تمددتِ على ظهرك بعياء ورشقت عينيك في السقف كمن يبحث عن مرفأ مستحيل.

ـ مريم لم تعودي كما كنت. شيء فيك انسحب بسرعة.

ـ ماذا تريدني أن أفعل في عالم أضيق من حذائي. العمر يركض وأنا لم أفعل شيئاً بحياتي.؟

ـ وهل انغلقت الدنيا إلى هذا الحد؟

ـ يقتلني هدوؤك وراحة بالك. إذا كنت ترى غير ذلك، قل لي؟ وحياتك متعبة. أشعر كأن هناك قوة طاغية تسحبني إلى الوراء لاأملك حيالها أية طاقة.

هذا الصباح لم يكن كغيره من الأصباح. لم نخرج كما هي العادة دائما. بصعوبة تسللنا من دفء الفراش وتزحلقنا إلى النافذة. أيدينا على قلبينا. نخاف أن تفاجئنا العجوز أم عمر، صاحبة البيت ذات ليلة كفأرين. في حوزتها نسخة ثانية من المفتاح. تجد لذة

كبيرة في التجسس على كل حركاتنا. ستقلب علينا الدنيا رأسا على عقب. فنحن عندما دخلنا بيتها أقنعناها بصعوبة أن الفتيات يأخذن حجرة فيما بينهن ويأخذ الشباب كما كانت تسمينا، الحجرة الثانية و الثالثة التي كانت كل واحدة منها تحتوي على أكثر من سريرين. نمارس كل شيء بخوف كان يترسب ويكبر في الأعماق.

كانت الشمس تطل بخجل كبير وراء بناية هدمتها الحروب الفائتة. أطفال البيوتات الواطئة الذين يستيقظون وينامون على قرحة الجوع، كانوا يلعبون في الساحة الكبيرة التي اتسخت بالنفايات والأتربة السوداء التي تنبعث منها روائح المازوت وأوراق الصحف القديمة. الأمطار الخفيفة التي بدأت تتساقط بشكل مغر، توقظ في شهوة الخروج إلى الشوارع التي تنام على ظهر الأقبية، والجري والنط كصغار الأرانب، في كل الاتجاهات.

المدينة ليست ساحلية ولكنها تعطي إحساسا غريبا بأنها ساحلية وأن البحر ينام على أطرافها الأكثر انحدارا.

نظرتِ إلي من تحت عينين شبه مغمضتين.

ونظرتُ إليك برغبة من يريد أن يعرف.

ولحظتها تمنينا لو كنا طائرين صغيرين نحلق في فضاء لا حد له. نغني. نرقص. نشرب حتى السكر. في حاجة لأن ننسى العالم قليلا. ونجري بدون توقف.

«هل جرب أحد منكم الجري تحت الأمطار ثملا؟».

«*باب المستحيل*: أنا. نعم أنا.في اليوم الذي خرجت فيه سيلفيا من صمتها. التقينا في بيت أحد الأصدقاء. كانت تبكي. قالت سأهرب معك. ضحكتُ. قلتُ ليكن ولكن إلى أين؟ قالت عند والدك في المدينة المنورة، مادام غنيا ويعيش في بلاد بعيدة. قلت: والدي؟ لم أعد أتذكر إلا لون النقود التي كان يبعثها لي كل شهر للدراسة. اشتقت

إلى وجهه الذي غاب فجأة. أكثر من ذلك، سترجعين من الحدود الوطنية أو الحدود السعودية وسأتهم بالتشجيع على الزنى ولن يرحمنا أحد ويصبح المشكل الصغير كارثة تنضاف إلى إخفاقاتنا الكثيرة. كان جورج معنا ويحب سيلفيا كثيرا. قال لها: يا حبيبتي تريثي لك شوي، مو هيك الشغلة. بدك تقنعيهم وحكاية برا هيْ، مو ضابطة. البابا ما راح يتركك تعيشين مثلما تريدين. ضحكتِ مرة أخرى ثم قلتِ بكل بساطة، نذهب لأية كنيسة ونتزوج. قال جورج، هذا اختيار أزبل، أنت ما تعرف المسيحيين في هيك مسألة؟ ثم خرج ولم يعد. أول مرة أبيت مع سيلفيا. لا أدري ما الذي جعلني تلك الليلة أسكر بدون عرق حتى الفجر حينما غادرت سيلفيا المكان قبل إطلالة صاحبة البيت اليومية. عندما انطفأتْ سيلفيا عند العتبة، خرجتُ وراءها وأنا أصيح كالمجنون: هل جرب أحدكم الجري تحت الأمطار ثملا؟ أنا. سمعت صوتها ولكنها كانت بعيدة».

من أوراق عيد عشاب

وتمنينا لو كنا طفلين، نلبس ألبسة وردية ونخرج باكرا أيام الأعياد، قبل كل الأطفال وننط في الأزقة من باب لباب، نتباهى بما كنا نرتديه ونحمله في جيوبنا من نقود.

لكن يحدث معي أن أحس بأشجانك حتى عندما تريدين كتمها. أن أشعر بابتساماتك وهي تنطفئ عندما يصيبها ذعر قبلي قاتل. من لحظة لأخرى، كانت ترعبك الأصوات الغامضة التي تأتي من أماكن مختلفة فتتخيلين العجوز أم عمر عند الباب. تصيح، تتكسر صياحاتها بين شفتيها المعوجتين. ترتبكين. ثم فجأة تتقلصين فتتحولين إلى قطة تتبع ظلال الأزقة هربا من أصوات البارود.

يا لطيف من أم عمر. دكتاتور صغير من أسوأ الطرازات. لم تعلمها زياراتها لجدة ونيويورك ولندن وروما والإمارات، إلا

البؤس والتخلف وتدقيق أنفاس المخلوقات. لو كان الأوكسجين بالنقود لقتلت جميع المخلوقات وحرمتهم من التنفس إلا لما يدفعوا. مع أننا يوم أدخلنا عليها العقاري لأول مرة، كانت طيبة وقامت بنفسها وهيأت لنا القهوة العربية، لكنها سرعان ما تحولت إلى حيوان عجوز يتشمم كل شيء ويتصيد الحشرات. فهي كما قالت تخاف من القيل والقال. وأكثر من ذلك كله، تخاف الله ورسله وملائكته ولم يكن يزعجها مطلقا أن تنهبنا. تعلمت بدوري اللعبة التي صرنا جميعا نتقنها. كلما رن جرس الباب، انقلبت الأوضاع، يقفز الشباب نحو الحجرتين وتقفز البنات نحو الصالون أو حجرتهن. تطمئن العجوز على النظام العام. تتأكد ثم تشرب شايا وتحكي أيامها الخوالي وقصة والدها الذي مات مع الدفعات الأولى التي دخلت فلسطين للدفاع عن القدس وتخرج. ولم ترتاحي منها ومن نزلاتها إلا يوم وقعت صك الزواج مع دجيف Djeff. كان مثلك عندما دخلت أول مرة هذه المدينة. يعيش حياة لم تكن موجودة إلا في دماغه.

مرغما، نظرت إليك بعطف ولا أدري أصلا لماذا. وكم كنت تكرهين الذين يعطفون عليك.

المطر ازداد ضراوة في الخارج بينما كانت الحرارة تصعد من أقدامنا مثل الخيط الذي يزع الدفء في كامل الجسد.

الحجرة دافئة في الداخل. لباس النوم البنفسجي الذي كنت ترتدينه يلتصق بجسدك، كان جميلا حد الإبهار. وكنت كأني أكتشفك وأكتشفه للمرة الأولى. وقع الأمطار يبدل نظرتنا للأشياء.

غمزتك. كنت تبتسمين.

نظرت إلى الفراش الذي ضمنا الليل بكامله. كانت أغطيته مبعثرة كالعادة، تعطي الرغبة الملحة في العودة إلى النوم مع البرد الذي تخيلنا وجوده بالخارج.

شعرت بيديك ترتعدان وتعلو وجهك حمرة خمرية جميلة مثل هذا اليوم.

ـ هذا الجو يسحرني.

ـ كل شيء جميل يسحر. أحيانا تهزنا هذه التفاصيل الصغيرة أكثر من كل شيء.

ـ الحلم والجنون متشابهان. أحيانا أقول في خاطري، لو كنت عصفورا، لن أتوقف أبداً عن التحليق حتى الموت.

وفضلنا يومها أن لا نخرج وأتذكر أننا اندغمنا في الفراش كالحرف الواحد ونسينا كل المحيط الذي كان يأسر حركتنا.

ـ كم أنا في حاجة ماسة لكسر الغلاف الكاذب وإعادة اكتشاف الزوايا البكر في نفسي؟ خيرة الله يرحمها دارت فيّ حالة. لم تطلب من الدنيا الشيء الكثير.

ـ الضيق والمنع يحولان الإنسان أحيانا إلى كيان مغلق. جميل أن يدرك الإنسان أن به أمكنة عليه حفرها لوحده وزوايا مظلمة لأحد غيره قادر على اكتشافها.

ورأيت أنت نفسك عصفورة تحلق في الفضاءات الواسعة، وتبحث بين دخان المصانع والسيارات والشاحنات عن لحظة التنفس بنقاء وبعمق.

المرء معك، يشعر دائماً أنه يكتشفك من جديد.

قبل أن نتلوى داخل الفراش المبعثر همستِ في أذني.

ـ أتحبني؟

ضحكت:

ـ يبدو.

ـ درك نوريك اللعب انتاعك وين يوصلك.

ثم صعدت على صدري. قبلتني. انحدرت قليلا بشفتيك الملتهبتين:

ـ أنا الآن فوقك. أشعر بقوتك. هل تحبني هكذا؟

ـ أ... ح... ب... ك... هكذا أحسن. ألمسك. أحضنك. أحس بك. أمامي وأراك في كل تحولاتك.

انزلقت شفتاك أكثر من العنق إلى الصدر وأنت تتمتمين:

ـ ابنة خالتي المطلقة تقول الرجل في بلادنا يشتهي عندما تكون المرأة تحته. يشعر بقوته وهيمنته. تقول هذه وضعية حيوانية بحتة. وحدهم العشاق يمنحون فرصة تغيير المواقع لبعضهم البعض. تقول ابنة خالتي كذلك، كلما أحب رجل امرأة، منح لها فرصة النوم على صدره.

ـ ابنة خالتك ليست مخطئة أبدا. حتى طريقة النوم وممارسة الجنس لا تخلو من فعل الهيمنة. يبدو لي أحيانا أن البشرية نفسها لم تسلك دائماً الطرق الأكثر إنسانية والقريبة لا من غرائز الإنسان ولكن من عمقه الروحي الكبير.

ـ هي على الأقل كانت تعرف ماذا تريد أما أنا فكل شيء مرتبك ومختلط علي. أحيانا أجدني في أحضان نوال السعداوي فأزداد حبا لنفسي ولجسدي وأشتهيك وأحسب الدقائق المتبقية لأراك في الليل بكل حرية وفي أحيان أخرى يختلط علي كل شيء. أجدني بين يدي زينب الغزالي فأكره نفسي وأكره نوال السعداوي بل حتى أنت لا تنجو من كراهيتي لأنك تقودني نحو دروب جهنم.

ـ وما العمل إذن؟

ـ كما ترى. لا حول لي، بين يديك وعلى صدرك. أعرف أني

عندما أخرج من هذه السعادة سأبكي ندما وأشتعل حبا فيك من جديد. دورة مغلقة.

ـ لا أدري من قال هذا الكلام ولكن معه حق: عندما تدق السعادة على الباب، وفر لها مجلسا مريحا لكي تمكث أطول مدة ممكنة. للأسف، نحن نعمل كل ما في وسعنا لطردها من الباب.

- Je me force de faire abstraction de toutes mes peines, des fois j'arrive, d'autres, je n'y arrive jamais malgré mes grands efforts.[13]

وطوال الصبيحة لم تتركي صدري. نمت طويلا كالطفل الصغير حتى أيقظك كلاكسون سيارة بائع المازوت. فقمت لأفتح له الباب وتبعتني بعدها بخطوات مثقلة.

قبل أن نخرج انزويت وبكيت. لم أسألك لماذا ولكني سحبتك نحوي واحتضنتك.

في الطريق حدثتني عن أمك وقلت إنك تشبهينها في كل شيء، حتى في طريقة ندمك. كانت مسكينة لو رفعت صوتها قليلا في وجه واحدة منا، تظل حزينة طوال اليوم حتى تبكي وتعتذر فترتاح قليلا. قتلها الغبن والسرطان. أشعر كأنها ماتت وحيدة وكان يمكن إنقاذها لو كنا في غير وضعنا وكان والدي حساسا تجاهنا قليلا. السبب كان تلك الخانة الملعونة في العنق التي كانت تعبث بها يوميا حتى نزعتها فتطورت إلى حبة سرعان ما تضخمت وانتفخت وصارت موجعة. عندما ذهبت إلى الطبيب، أعطاها دواء أحمر وقال مجرد بثور سرعان ما تحترق بهذا الدواء وتنطفئ. لكن الذي حدث هو العكس. كان السرطان قد أكل كليتها اليمنى لتموت ذات صباح وترتاح وتتركنا يتامى.

ـ يومها بكيت كطفل سرق منه ثدي أمه وهو في حالة جوع.

(13) أبذل مجهودات كبيرة للتناسي، أحيانا أفلح وأخرى أفشل على الرغم من مجهوداتي الكبيرة.

- الأم حنان لا يعوض. يبدو لي أحيانا أننا عندما نحب فنحن نبحث في الوجوه الأخرى عن الأم. أمٌّ أكثر جرأة، قادرة على الذهاب بحبها إلى أقصى الحدود ضاربة عرض الحائط بكل الموانع.

أصداء آلام أمك وصياحاتها تحفر ذاكرتك المتعبة وتعذبك كلما تحدثت عنها، لكنك في كل صباح تواجهك الحياة لتذكرك أنك ما زلت هنا وأن عليك أن تعيشي. تحاولين النسيان. تنامين طويلا ثم تستيقظين هادئة وفي قلبك أشياء أخرى.

- أحيانا أقول لنفسي إذا لم أكن في حاجة لرجل يتحمل معي فقط عناء الذاكرة. الشخصان الوحيدان المستعدان لسماع تخريفي هما أنت وجعفر.

- هاه؟ جعفر؟ دجيف Djeff يا الزين يا كحل العين.

- يزي من التمسخير. جعفر طيب ولكنه مقلق قليلا. مخنث بعض الشيء ولكنه غير مؤذ. هو كذلك يبحث عمن يسمعه. عندما أكلمه نتقاسم الأدوار لنستطيع الحديث عن دواخلنا. أحيانا يضايقني بفتوحات عائلته المجاهدة والغنية والمالكة لنصف خيرات الغرب الجزائري. يؤلمني عندما يحدثني عن أمه التي ماتت في ولادته لدرجة أنه يشعر بعقدة ذنب. لا أدري مدى صحة ما يقوله، لكن تكرار الأسطوانة، يجعله ثقيلا علي بعض الشيء.

- ومع ذلك أشعر أنه يبحث فيك عن صورة الأم ولكن كذلك المرأة التي يعشقها وربما يتزوجها.

- بوف؟ جعفر يجب أن لا يؤخذ بجدية. كل يوم أسمع منه كلاما قريبا من هذا. لا يتجرأ ولكننا نفهم بعضنا البعض. هو على الأقل يحاول، وحد الناس لم أسمع أبدأ على شفاههم ذكر كلمة زواج؟

- وهاذوك الناس شكون؟

- عارفين أنفسهم. تحب نقول بعععع... ؟

- مفهوم.

- تعرف كم أشتهي أن أكون لك بكلي؟ أن أحبك أكثر؟ أن أنتظرك في بيت نبنيه أنا وأنت فقط؟ أن أنجب منك نجمة أو سارة، ابنتنا المشتركة. لكن الظاهر أن الله سيرث أرضه ونحن ما زلنا نراوح أمكنتنا الأولى.

- الزواج مسؤولية كبرى وإنجاب الأطفال مسؤولية أكبر.

قلت بمرارة ارتسمت في عمق عينيك:

- أنا كبرت يا صديقي. ثلاثون سنة ليست أمرا هينا في عمر امرأة.

- لماذا كل هذا الإصرار؟ شجرة البلوط كلما كبرت ازدادت صلابة وجمالا.

- ولكنني يا صاحبي امرأة ولست قطعة خشب وفوق هذا أحبك ولا أملك أي سلاح لمقاومة اندفاعي نحوك.

لم أتفاجأ كثيرا. فقد شاهدت في الأيام الأخيرة غيوما هاربة. كانت تعبر بؤبؤ عينيك بذعر وحالة تثبت ظلت تتكرر معك باستمرار. بدأت أشعر بخوف من احتراق الأشياء الجميلة التي جمعتنا في مدينة لم نكن نعلم أنها تخبئ لنا أجمل المواعيد وأحلاها.

قلت لك:

- ما زلنا صغارا عن احتراف مهنة الزواج.

قلتِ وأنت تبحثين عن مرفأ لأحلامك وأشواقك وأحزانك المرتبكة:

- لنجرب، فنحن لن نخسر إلا الأسئلة الفارغة.

ـ المسألة أعقد من هذا التصور.

ـ تخاف.

ـ لست في وضعية تؤهلني لأن أكون زوجا.

ـ وأنا سني يربكني. صرت أخافه. لنتزوج ونسافر أينما شئت. نقطع العالم ولا نلتفت وراءنا، لكن قبل ذلك أريد أن أكون المرأة التي تستحقها وتستحقك. زوجتك التي إذا نامت معك في نفس الفراش لا تقضي كل الوقت وهي تتحايل في متعتها معك كيف تتفادى الحمل وكيف تقنع عائلتها في الصيف بأن ما تحمله لها يتجاوز الصداقة وأن نواياك في الزواج كبيرة.

لست أدري من كان يتكلم فيك، أنت، مريم التي أعرفها والتي تحاول أن تكسر أصفادها، أم أختك خيرة التي انتحرت ولا أحد يعرف لماذا؟

وأقنعتني في ذات اليوم أنك من سلالة سيدي عبد المؤمن بوقبرين وأن بلدتكم قاسية ولا ترحم. الكلام الكثير يؤذي. وأنك تريدين أن تكوني أنت وتعيشين مثلما تشتهين وأن حريتك مرهونة بالخلاص من هذه المعضلة التي لم تعد بالنسبة لك مقنعة ولكنها مثل الدواء المر، نشربه لكي نتحرر من المرض، أما هو في حد ذاته، فلا معنى له. سنك يرهبك، فعمر المرأة ليس مثل عمر الرجل. السنوات تزحف. والواقفون في الطرقات، عيونهم لا ترحم والخطباء كثيرون. البعض نصابون والبعض الآخر محتالون والقلة القليلة طيبة القلب ونواياها صادقة. في كل صيف، عليك أن تبرري لكل القبيلة عن رفضك أبناء العمومة؟

ـ لنتزوج وننجب طفلة نقتحم بها المدن الجميلة. ستنقذنا جميعا. أنا ممتلئة بها. أريدها منك لأنك حبيبي.

ـ لا أدري إذا كنا على نفس الموجة، ولكني عاجز أن أكون زوجا كاملا. أخشى أن تكرهين حياتك معي.

ـ يا خويا كن زوجا ناقصا، ولكن على الأقل كن زوجا.

ونفترق على مشاحنة صبيانية. نرتمي في الفراش في وقت مبكر، كل في زاويته وفي الصباح الموالي نكون أكثر التصاقا من أي زمن مضى.

صار ما يحدث لنا مثل الطقس الضروري.

شيء مبهم كان يملأ حياتنا لم نكن قادرين على فهمه ولا على مقاومته، مثل التيار، كان يجرفنا أحيانا نحو الوديان العميقة وفي أحيان أخرى يجرنا نحو أمكنة لا نعرفها بعد أن يلعب بنا مثلما يشتهي.

5

أرجوك توقف قليلا، لقد تعبت.

أقبل أن أدفع الثمن في صمت ووحدة ولكن أرجوك لا تحملني شقاوة الدنيا كلها؟ لا أستطيع. لقد صرت هشة جداً ويمكنني أن أصاب بالعطب المزمن بسهولة. أنا لم أطلب منك سوى أن نجمع مصائرنا الصغيرة ولكنك اخترت طريقك مثلما اخترت أنا داخل الضيق والعبث الذي لا معنى له على الإطلاق.

عتابك يقتلني ويعذبني. يا ربي كم أحبك وكم تبدو بعيدا. ماذا يحدث فيك؟ ألم تكن أنت من اختار هذا القدر؟ تختار قدرا وتستدرجني فيه لتسهل محاكمتي؟ ألم تكن أنت من فضل ارتكاب هذه الحماقة ضده وضد نفسه وضدي. كلامك يقتلني. يعذبني وسأجن إذا استمرت الحالة على ما هي عليه. فأنا لا أملك حيالك إلا الحب والجنون. ولكن خياراتي الآن صارت معدومة. فقد وضعت نفسي داخل موت محتوم علي أن أقاومه أو أنسحق فيه. أنت غادرت فيلا الإطفائية منذ الإعلان عن زواجنا أنا وجعفر، ونحن كذلك انسحبنا من المكان. جعفر يريد أن ننسى حياة العزوبية وأن نتفرغ لحياتنا الزوجية. ربما كان محقا. أريد أن أنساك لأرتاح منك دفعة واحدة. لست أدري كيف سلمت الورقة الأولى لجينا لتوصلها إليك. كان يجب أن لا أفعل ذلك. وها أنا قد انغمست في دوامتك من جديد. قالت لي سيلفيا أنها تعرف مكان إقامتك في حي ساروجا، لكني لا أريد أن أعرف لأني أدرك سلفا أني إذا رأيتك لن أستطيع مقاومتك.

سيلفيا تحبك كثيرا ولهذا لا تترك فرصة إلا وتذكرك بإعجاب لو لم أعرفك لقلت أنك أنت من كلفها لكي تقول ذلك الكلام. مليح أني أبذل مجهودات مضاعفة لكي أتفاداك في الجامعة فلا تطلب مني المستحيل وإلا ستضطر إلى دفني حية. غيابك يقتلني والحماقة التي أنا فيها تجهز على ما تبقى من عقلي.

حبيبي. أقولها لأني لا أملك غير ذلك. حبك يشلني ويقهرني. أنا كذلك اليوم أشعر بالقرف، من نفسي أولاً ومن كل ما يحيط بي. هل يعقل علي أن أتحايل على نفسي لكي لا أراك وأنا أتحرق داخليا فقط لأثبت لمحيط معتوه ومنكسر أني الزوجة المثالية؟ لست الزوجة المثالية ولا أريد أن أكونها. هذه المثالية السخيفة تقتلني. لكن وحياتك، فأنا أريد أن أنساك. ما جدوى هذا الشطط الذي لا معنى له؟ أشعر باضطراب كبير. لم أحاول اليوم رؤيتك في الجامعة ولكني اكتفيت بفعل ذلك من بعيد وأنا لست سعيدة من نفسي. في هذه الفترة أمر بظروف صعبة يطول شرحها. جعفر صار صعبا وأنا لا أطيق كل هذه القيود. الله غالب، هذه هي أنا وهذا هو طبعي. أعذره أحيانا لأنه يعيش مع امرأة لا تستطيع حتى أن تبادله شيئاً من النفاق العام المتفق عليه. لا تعتب علي إن لم أكتب لك. سودت كلمات كثيرة ولكني فشلت في تبييضها. وكلما تذكرت حماقتك أتمنى أن أحرق كل شيء بما في ذلك قلبي. لماذا تصر دائماً على إيقاظ جروحي؟ أنت مجنون. الوقت بل الحياة نفسها لم تعد ملكي. أن تمسك قلما وتخط جرحا على الورقة معناه أن تملك قدرا كبيرا من العزلة والجرأة وأنا اليوم يا حبيبي خسرت أهم شيء في، جرأتي. قلبي الذي ينبض على وقعك لم يعد يتيح لي فرصة الكتابة. إنه يغار منك علي.

الشريط الذي بعثته لي مع سيلفيا كان مدهشا. من أين تأتي بكل هذا الذوق؟ يا بختك؟ ما أقسى قلبك علي وعلى نفسك؟ أنت تؤذيني بحماقاتك التي لن أغفرها لك أبدا. سجلته ولكن التسجيل كان رديئا. شعرت بحزنك من المحيط الذي يعاتبك على خياراتك الحياتية، لا

تهتم الناس دائماً هكذا. يبحثون عن كل شيء يلصقونه بالآخرين، الغيرة هي التي تحركهم. الغيرة والإحباط والأنانية.

أرجوك لا تزعل من ردي البارد، فأنا حزينة ومنكسرة. عندما أروق سأكتب لك عن كل هذه التفاصيل. لا أقول لك شكرا فأنا أعرف عواطفك وأعرف ما أعانيه من أجلك. لا تسألني عن حبي لك، فأنا دفعت نفسي نحو الموت والحقد والضغينة من أجلك. أفكاري مشتتة، مجرد عاصفة وستمر.

كن كما أشتهيك أن تكون، رجلا لا تتعبه متاعب الضباب والظلمة، في الأفق دائماً شيء آخر، ألم تقل هذا وأنا أضع رجلي على العتبة للمرة الأخيرة؟

تمنيت أن لا أكتب شيئاً لأني في حالة لا تسمح بذلك وها أنذي أكتب ولست راضية عما كتبت.

أغفر لي هذا الأسلوب المرتبك والذي يشبهني في كل تفاصيلي، ليست هذه لغتي ولكني لم أجد سبيلا آخر للصراخ في وجه صمتك إلا هذه الكلمات القليلة التي قالت ما لم أشته قوله.

مريمتك الحزينة دوماً، التي تتمنى أن تعضك لتستيقظ من غفوتك.

6

فجأة توقفتِ عن الحياة.

توقفتِ عن القراءة نهائيا. دروس الجامعة لم تعد تشغلك كثيرا.

حتى الكتب التي أهديتها لك، وضعتها في أعلى درج في المكتبة حتى لا تضطهدك بحضورها وحاولت أن تشغلي أصابعك بأي شيء آخر.

سألتك في ذلك المساء وأنت تهيئين حقيبتك للذهاب لا أدري إلى أين؟ كانت أشياؤك الصغيرة مبعثرة والأفق لم يكن به أي خيط أزرق ولا بنفسجي:

ـ واش بك؟

ـ مانيش مليحة.

كنت أظن أن نقاش الصباح لم يرق لك.

عندما نظرت إلى وجهي، كانت ملامحك متقلصة وبحة في صوتك الذي كان دائماً صافيا وواضحا. فكرت فيك وعما يدور برأسك. خفت عليك من حماقة ترتكبينها في حق نفسك.

كنت حزينة كمن يكتم ألما قاسيا في أعماقه.

ـ أنت لا تحب إلا نفسك ويجب أن نفترق. نحتاج إلى شيء من العزلة لنتمكن من البحث في أعماقنا هل ما زلنا نحتاج إلى بعضنا البعض.

ـ مريم؟ واش بك؟ ماذا حصل؟ أنا لم أعد أفهم هذا التصرف المفاجئ. يتعبك ويتعبني.

ـ تفاديا لذلك في المستقبل، ليأخذ كل واحدا منا طريقه ولو مؤقتا. مليح للجميع.

ـ أحب نفسي؟

ـ كلام فارغ. أنا لوحدي مهبولة.

ـ هذا غير مقنع؟ أريد أن أفهم ما الذي غيرك بهذا الشكل.

ـ قلت لك. يبدو لي أحيانا أنك لا تحب إلا نفسك. لا تفكر فيما يمكن أن يحصل لي بعدك؟

ـ بعدي؟ نحن مع بعض؟ ماذا حصل؟

ـ راسك خشن. راح نقول لك وأرجو أن لا تعتبر كلامي فارغا. العادة تأخرت هذا الشهر وهذا يقلقني كثيرا.

ـ وهل الأمر مهم إلى هذه الدرجة.

ـ حط روحك في مكاني وراح تشوف. ماذا يحصل لو أحمل منك؟ مجرد فرضية.

ـ حذرنا بشكل كامل.

Le risque zéro n'existe pas. Suppose.[14]

ـ سيكون ابني والسلام. وسأكون معك ومع نفسي في هذه المحنة إذا افترضنا أنها محنة. ولكن، هل هذا يدعو إلى كل هذا الحزن وهذا القلق.

ـ كل هذه الأعصاب الباردة وكأن الأمر لا يعنيك مطلقا. أتمنى أن تستيقظ ذات صباح وتجد نفسك فجأة امرأة حاملا وتشوف فقط ماذا يعني ذلك؟

(14) اليقين المطلق غير موجود. أفرض.

ـ أنت تبالغين. حتى الآن هذه مجرد احتمالات. التحليلات هي التي تبين الحقيقة. قد يكون ذلك مجرد تأخر للعادة الشهرية.

ـ تبسط كل شيء. كنت أريد منك صبية ضمن ظروف أخرى غير هذه، أحسن وأفضل.

ـ لم نصل بعد إلى هذه الوضعية.

وأصررت أنكِ حامل مني. لم تغادرك حالة الاكتئاب حتى ونحن نعبر عتبة عيادة الطبيبة النسائية. الدكتورة عواطف الحفار. زرناها مرات عديدة ونحن من زبائنها الذين تحبهم كثيرا. آخر مرة كانت عندما شعرتِ بتقلبات في بطنك مثل اليوم تماما.

حينما فحصتك، بدا لها رحمك منتفخا على غير العادة. نصحتك ببعض التحاليل وبانتظار أسبوع على الأقل قبل العودة إليها وبضرورة تناول بعض الأقراص.

تشوه العالم قاطبة في عينيك وبدا لك أن الدنيا مقدمة على انفجار كبير يعدم الحياة على وجه اليابسة. رأيتِ كل شيء يتهاوى ويموت. الناس. الأشجار. الحيوانات. الأفكار. الكل يبس وصار حطبا ميتا. حتى العصافير التي كانت توقظك صباحا، مات شدوها. جف دم الأبطال والحكايات القديمة التي كانت تأسرك وتلاشى حليب الأمهات اللواتي أصبحن كأشجار الخروب العتيقة.

ولم ترتاحي إلا عندما استيقظت ذات صباح تحت تأثير رائحة دم العادة الشهرية التي كانت تقرفك وتجعلك تكرهين جسدك والدورة ومتاعب آلامها.

صحت بأعلى صوتك من عمق الغرفة:

ـ هورا... هورا... أخيرا.

ـ هه... الحمد لله الذي لا يحمد على مكروه سواه.

ـ الفنطازية والقرآن.

ـ الحمد لله اللي جات سليمة وإلا كارثة.

وتسرب فجأة الليل الذي كان يملأ دماغك. وعادت عيناك إلى اتساعهما. وتحرك الدم بكثافة على وجهك الخمري. حركتك ونطك. أخيرا وجدت مريم التي عرفتها لأول مرة وهي تستفزني محاولة أن تضعني في الزوايا الضيقة.

ضحكاتك على انكسارها المفاجئ، عادت. وأقسمت بكل ثقة أنك في المرات القادمة ستحتاطين من تبعات الحماقات السريرية. ستحذرين حتى لا تضطرين إلى العيش على أعصابك، أسبوعا بكامله. وستلتجئين إلى الحساب كما تفعل النساء المتزوجات. الحبوب نصحوك بعدم استعمالها. فقد ورثت عن أمك الابتسامات التي تتكسر بسرعة على شفتيك ومرض القلب والخوف من برودة الأشياء.

وعادت حكايات سيف بن ذي يزن تسري في دمك وتملأ قلبك وذاكرتك المثقلة.

ـ تعرف؟ شامة تزوجته وهي صغيرة.

ـ الأشياء تغيرت كثيرا منذ ذلك الزمن.

ـ لكن الإنسان هو هو، لم يتغير كثيرا. ما يزال يأتي إلى هذه الأرض زائرا ثم يعود وهو لم يفتح بعد عينيه على الدنيا.

ـ هذا جدل بدء الخليقة. ماذا نستطيع أن نفعل سوى العمل على جعل هذه الحياة أمرا يطاق ويتحمل.

ـ دجيف Djeff يقول إنه مولع بي ويشعر أن علاقتي بك علاقة غير جدية. في البداية كان يعطيني الانطباع بأنه يمزح لكن مع الزمن تأكد لي أنه لم يكن كذلك.

ـ شغله. الأفضل له ولنا جميعا أن يبقى في مكانه. في المرة الماضية سألني عن مدى جدية علاقتنا لأنه يريد أن يطلب يدك. يروح يملح على راسه.

قلت له: عفني يرحم والديك، لست والد مريم. تريدها، أطلب يدها منها. مريم كبيرة وتعرف شغلها.

ـ وماذا قال لك؟

ـ بكل غباء، قال أنه سيفعل.

ـ فعل. طلب يدي ويبدو أني سأقبل.

ارتبكت. لاحظت مريم الهزة العنيفة التي أحدثها في على الرغم من أني لم أظهرها. كدت أصرخ: أنتِ بالفعل مجنونة، أي واحد ما عدا جعفر؟ أنتِ نفسك غير مقتنعة به؟ لا أدري كيف لطفت كلامي ووجدت المفردات اللبقة.

ـ أنت تمزحين؟ وحياتنا؟

شعرت بها تركب رأسها وكأنها وجدت الورقة المناسبة. كنت على يقين أنها كانت تنتحر على طريقتها.

ـ يا حبيبي، يبدو أن كل شيء ضدنا بما في ذلك نحن. الآفاق مسدودة. هذه الحياة لا أستطيع تحملها. تتجاوز قدراتي العقلية المتواضعة. صحيح أنه في بعض الأحيان يتصرف كرجل أبله ولكنه ليس سيئا. أراهن على تغيره وتطوره.

- Ma parole je n'arrive pas à croire mes oreilles.

- Je crois que la vie est ainsi faite.[15]

كنت أدرك جيداً قسوة الحالة التي كانت تأكلك من الداخل ولكني لم أكن قادرا على فهم ما كان يؤجج أحقادك الصغيرة وحرائقك واشتعالاتك المفاجئة. كلما حاولت وجدتني على حافة الأسئلة المستعصية.

لم أنم ليلتها.

(15) ـ وحياتك لا أستطيع أن أصدق ما أسمعه.
ـ يبدو لي أن الحياة هكذا.

أدركت أني كنت مرتبكا. أليس الارتباك هو أقصر علامات الحب وأكثرها بروزا؟

سألتني:

ـ أعذرني. لقد تعبت وأتعبتك معي. لم يعد ما بيننا حب ولكن قسوة متكررة علينا تحملها.

ـ يا مريم أنتِ أدهشتني بقرارك. ألم يكن من الأفضل الانتظار قليلا. ما زلنا صغارا لدخول غمار هذه المسؤولية.

ـ ثلاثون سنة. لم أعد صغيرة. على الأقل بالنسبة لي. أنت حر في خياراتك الحياتية.

ـ تسدين الأبواب هكذا.

ـ الأبواب غير مسدودة. يكفي أن تدفعها أنت بالذات برأس أصبعك الصغير لكي تنفتح. ولكنك لا تريد وأنا لم أعد قادرة على تحمل كل هذا الشطط.

وبتنا تلك الليلة كل واحد في القارة التي صنعها من الخيبات والقلق والخوف والأزمنة المنكسرة.

7

عندما غنزرتِ عينيك المائلتين رأيتُ كارمن بكل توحشها.

وضعتِ الحقيبة عند الباب. وقفتِ قليلا ثم التفتُّ نحو الحائط المواجه للساحة العامة حيث يركض الأطفال عادة.

التفتُّ نحوي ولم تقولي شيئا.

هذه المرة كنتِ مصممة. حملتِ حقيبتك وقلتِ إنك لن تعودي. عندما تركبين رأسك لا شيء يوقفك ولا أحد يقنعك.

حديث الليلة كان قاسيا. كلانا بقي داخل جزيرته. أنتِ جعلت من الزواج حالة انغلاق كلي وأنا حريتي كانت البدء والمنتهى. كل واحد منا وهو يتكلم، كان يصغي إلى نفسه أكثر مما كان يستمع إلى الآخر. كل في عالمه بعد أن سد وراءه الأبواب والنوافذ وحتى المنافذ الصغيرة.

في لحظة من اللحظات شعرت بك تختبرينني فقط أما قراراتك كانت قد اتخذت من قبل.

قلتِ:

ـ أعتقد أنني كنت عمياء، فهو يحبني.

ـ جعفر؟ ربما. لكن احذري. هؤلاء الناس يشتهون أكثر مما يحبون. جعفر ليس حالة شاذة أبدا، جزء صغير من نظام معقد.

ـ سنتزوج قريبا. وهذا هو المهم. تعبت وكبرت.

ـ إعط لنفسك بعض الوقت لمعرفته على الأقل.

ـ الوقت في غير صالحي. قراري اتخذته. إذا غيرتَ رأيك ستجدني أمامك.

شعرت بجرح يرتسم في الأعماق. ردي كان باردا. الغريب أني لم أوقفك عند خروجك. كان علي ربما محاولة إقناعك والعودة إلى الحديث بدل تركك تخرجين هكذا من حياتي. ربما كنت غبيا، ومن قال المحب ذكي؟ لو كان كذلك لانتهت كل القصص الإنسانية بشكل جميل وسعيد. ولأننا محملون بقدر كبير من الغباء، لا نرتاح إلا إذا كسرنا أجمل الأشياء فينا.

ـ على كل حال، حياتك وأنتِ سيدة الشأن.

ـ لنفترض أني تزوجت دجيف Djeff واش راح يصير؟

ـ هل فكرتِ جيداً في ضخامة المسؤولية التي ستتحملينها؟

ـ واش من مسؤولية؟ يا حبيبي، وهل تظن أن حبك كان سهلا علي؟ أنتَ لا تعرف شيئاً مما قاسيته مع الناس والعائلة. واش راح يصير يعني؟ سأطلقه إذا لم نتفق.

ـ هكذا، بكل بساطة؟

ـ هكذا. ولا شيء غير ذلك. عندنا في البلدة، المطلقة أحسن بكثير من البائرة. أرفض أن أنتهي بائرة. اطمئن، سأكون المسؤولة الوحيدة عن خطئي ولن أجرجرك ورائي.

ـ أدرك أن الخيارات صعبة. ولكن لماذا تحشرين نفسك داخل وضع قد ترفضينه بعد أيام. اعط لنفسك على الأقل بعض الوقت. لاضرر في ذلك.

ـ كل الزمن الذي مضى، لم أفكر في شيء غير ذلك. أنت اتخذتَ قرارك لأنك واضح مع نفسك وعلي أن أتخذ قراري.

في داخلك كانت تتذابح الأزمنة الفائتة وأمواج البحر التي تأتي من أبعاد سحيقة لتتمزق فجأة على صخور الشواطئ المعزولة. لم تنامي جيدا. كان وجهك مرهقا بالخيبات والكوابيس والظنون والارتباكات التي لم تكوني ترين لها حلولا.

عند العتبة وقفتِ قليلا. نظرتِ إلى وجهي مليا، لم تقولي شيئا. قبل أن تخرجي انزلقتْ مني بعض الكلمات الهاربة التي لم يكن لها أي معنى إلا طعم الخوف والعزلة والفداحة:

ـ هكذا تذهبين. هل فكرت جيدا؟

كدت أقول لك: إبقي أرجوك. أحبك. ولكني لم أقل شيئا. ماذا كان سيحصل لو فعلتُ ذلك؟

ـ أنا أذهب لأني فكرت جيدا. تعبت وأتعبتك معي. يبدو أننا نفكر بنفس الطريقة ولهذا من الصعب أن نتفق حتى على الحد الأدنى.

ـ ليكن. في الأفق دائماً شيء آخر.

وسبقتك إلى الخروج منكس الرأس. ولكني بحركة عفوية كسرت الكأسين اللذين تعودنا أن نشرب فيهما العرق ووطئت الشمعة التي كانت شاهدا حيا على جنوننا.

رأيتِ قطع الزجاج المبعثرة والشمعة المنكفئة. لم تمدي يدك نحوها ولكنك خرجت بسرعة بدون أن تلتفتي وراءك.

كنتُ على يقين أنها في نهاية المطاف حالة جنون مثل تلك التي تعودت عليها وستعودين إلى حالتك الطبيعية. عاصفة وستهدأ. قلتُ في خاطري، هذه هي مريم، قلبها طيب ولا تسلك في نهاية المطاف إلا الطريق الصحيح.

في المساء عندما عدتُ لم أجدك.

مريم لم تعد مريم.

تذكرتُ جملتي المرتبكة ولا أدري ما الذي ذكرني بها ولا الدافع الذي قادني لقولها:

«في الأفق دائماً شيء آخر».

لم أبك ولكني رغبت في ذلك.

لم أحمل شظايا الكأسين ولم أشعل الشمعة المنكفئة.

كان كل شيء قد انتهى.

8

لم أرك على الرغم من أني سألت عنك كثيرا.

بعد يومين لمحتك في مقهى الجامعة. كنتِ منعزلة في زاوية، تظللك الإعلانات الإشهارية السياسية وبعض الكلمات من خطاب الرئيس الموجه للشبيبة، كتبت بأحرف حمراء بارزة. لا أدري إذا كنت شعرت بسعادة وأنا اراك أم لا؟ ولكني وجدت نفسي، بدون إرادة مني، أتجه نحو الطاولة التي كنت تجلسين فيها منفصلة عن كل المحيط الذي كنت فيه.

ـ مريم، تسمحين.

لم أكن أصطنع، فقد شعرت بك بعيدة كل البعد.

ـ نحن أصدقاء على الأقل، ليش تقلبها غم هكذا.

ـ لم تدخلي إلى البيت؟ هل الأمر يستحق كل هذا الزعل؟

ـ أبداً لا يوجد أي زعل. أنا في وضع صعب وفي حاجة إلى الابتعاد قليلا لأجد نفسي. لا تشغل بالك، أنا بين إيد أمينة، تحبك وتحبني. أخذتني سيلفيا، صديقتنا إلى بيت أهلها. طيبة وحزينة لوضعيتها مع عيد عشاب وللوضعية التي آلت إليها علاقتنا. ويبدو لي أننا نعطي للدنيا أكثر مما تستحق. الدنيا بنت كلب، لا تستحق منا كل هذا العناء. لنأخذها كما تأتي والسلام.

في لحظة من اللحظات، وأنتِ تلتفتين نحوي. رأيت انكسارك.

رأيت البنت التي قامت في عمق الليل نحو المكتبة ومزقت كل الكتب التي عليها اسمها. مزقت البوم الصور. أوقدت النار في الذكريات الجامعية دفعة واحدة. بان لها لينين رجلا يبيع الطماطم الفاسدة في سوق مهجورة. وبان سيف بن ذي يزن دونكشوتاً مترهلا يمشي على حمار عجوز، يغزو بسيف من حطب جثثا تفسخت على أجنحة الطواحين الهوائية.

كانت لحظة التشوه قد بدأت تنشب أظافرها في دماغك.

قلت في تلك الليلة، إنك لم تفهمي نفسك. وإنك شقية وبائسة لدرجة لا يمكن تصورها.

ـ والله صرت أخاف أن أنتحر ذات يوم.

ـ وهل هناك ما يستحق هذا كله؟

ـ ربما لا ولكن هذا هو الوضع العام.

قلتِ مهما يكن، جعفر ليس رجلا سيئا. وسيحل لك مشاكلك العاطفية المستعصية. فأنت يتيمة وعائلته من الذين يحلون ويربطون وأنك تعبتِ ولم تعودي مستعدة لمزيد من المتاعب والشقاء.

ـ سأتزوجه، أخبرته بذلك البارحة.

ـ قرارك الأخير؟

ـ وهل هناك مخرج آخر؟ كان يجب أن أقول له أحاسيسي بدون كذب ولا مداراة. فقد قبل بكل شروطي ولم يسألني عن أحد. حتى علاقتي بك لم يتوقف عندها كثيرا. قال بشكل لا أبالي: حياتك وماضيك ولا شغل لي بهما. ما يهمني هو ما يجمعني بك بدءا من هذه اللحظة. كان متزنا في كل كلامه.

بدأتِ الطحالب والأشجار الناتئة وأشواك السدرة تنبت فيك. في خفاء ما، كنتُ أحاول عبثاً أن أستعيد وجهك الذي بدا لي مخرما من آثار حفر الجدري التي تعمقت حتى أصبحت مثل الأخاديد.

وحتى عندما عدتِ إلى البيت بعد أيام، انزويت في حجرة ماسة

التي ظلت مغلقة منذ استشهادها في بيروت وهي توزع جريدة المعركة. أمضيتِ فترة لا تحدثين إلا نفسك وانكساراتك أو سيلفيا التي كانت تزورنا من حين لآخر أو تسأل عنك باستمرار.

لا تكلمين أحدا من الزملاء. في كل مرة ترفعين رأسك نحو صورة ماسة مع صديقها فوده، الفلسطيني الطيب التي كبرتها وعلقتها أياما قبل أن تلتحق به في بيروت. تنظرين إليها مليا ثم تغرقين في التفكير بدون القدرة على الحديث مع أي واحد من الأصدقاء.

عدتِ إلى تلاوة القرآن بصوت خافت وإلى الأساطير القديمة وإلى سحنة البطل الهمام سيف بن ذي يزن والسيد علي ورأس الغول وإلى حرب البسوس وإلى ما قاساه الهلاليون من الأهوال والمغامرات والمعارك والهوى والغرام والمكايد والحيل في رحلتهم إلى تونس. تسهرين على غير عادتك في الصالون حتى ساعة متأخرة من الليل.

كل الأصدقاء عرفوا المشكلة ولا أحد استطاع أن يتدخل.

كنت حينما أقوم ليلا، أفاجأ بك منكفئة على وجهك، في لباس النوم الأخضر المخملي. جالسة، مأخوذة بتفكيرك في فراغ ما؟ تنتابني الرغبة لأخذك من يدك وتنويمك على صدري ولكني كنت أخاف من رفضك وتحريك مواجعك. أكتم آلامي وأحاول أن أنام عبثا. كان العد العكسي في حياتنا قد بدأ.

وبدأت أفكر جديا أن أغادر المكان في أقرب الآجال. لم أكن قادرا على رؤيتك مع شخص آخر. ربما كانت أنانيتي هي السبب.

افتقادك لم يكن سهلا. تبدأ الحرقة تنمو في القلب كالبركان وتعود كومة التساؤلات القديمة التي لا تنتهي، تتحول إلى حلقات سلسلة ثقيلة تكبل الجسم تكبيلا مانعا لكل حركة.

أتذكر يومها أني في خلوة ما، مزقت أنا كذلك كل الكراريس احتجاجا على نفسي وعلى طيبتي وعلى ارتباكاتي. شعرت بغبن

كبير أمام حماقة لم أكن قادرا على مقاومتها. وضربت على الباب بقوة كالذي يطلب نجدة ولا أحد يسمعه. وفي الأخير شرعت النوافذ عن آخرها قبل الاختناق. وحين عدت إلى وعيي حاولت أن أعيد ترتيب كل الأشياء من جديد. جمعت قصاصات الكراسات التي مزقتها واحدة واحدة. قضيت اليوم كله وأنا أحاول عبثاً أن ألصقها مع بعضها البعض. كانت حالتي مضحكة، رجل يمزق ثم يجمع ما مزقه. لعبة؟

ماذا صار في؟ هل انتهى كل شيء؟ هل هي العلامات الأولى للجنون؟ لم أسأل كثيرا، خفت أن تقودني أسئلتي نحو الحقيقة المرة التي ظللت طوال عمري أتفادها. شعرت بكآبة ثقيلة على قلبي. تذكرت كلمات قديمة لشاعر مات ورغوة الجنون ما تزال في فمه.

«احذر. لا تخاطر مع الحقيقة. اكتف بما لديك من جزئياتها، حينما تعرف الكل، لا شئ ينقذك من حتمية الجنون.»

كنت أحبك. وأقاوم عبثاً السيلانات الجارفة التي كانت تزداد اتساعا في، مدمرة في طريقها كل ما كانت تصادفه.

رأيت العيون الرائعة التي كانت تستسلم لقاتليها ورأيتني أبله. يسأل الناس عن اسم هو نفسه كان عاجزا عن نطقه باستقامة: مريم... مريم... مريم...

ماذا حدث؟

«باب فطومة: لا شيء. وراس جدي المختار التبسي، لا شيء. البارحة سيلفيا خرجت زعلانة. أولا لأن والدها يريد تزويجها في الصيف القادم فاقترحت علي أن نهرب، ثانيا لأنها منشغلة على دروسي لأني أهملت كل شيء. وأقسمتْ أن لا تعود حتى نهاية الامتحانات. لهذا قمت هذا الصباح منهك الأعصاب والقوى وذهبت عند عال لأذاكر معه حتى الساعة العاشرة والربع وأذهب بعدها إلى مركز بورسعيد للامتحانات. كانت مادة الامتحان هي العلوم العامة والصحة. كنت خائفا منها لأنها هي التي تقرر مصيري. لم يكن

الامتحان سهلا ومع ذلك أجهدت نفسي من أجل إرضاء سيلفيا. في المساء نزلت إلى رابطة طلاب المغرب العربي. لا رسائل مطلقا، لا من الوالد ولا من سهام المغبونة. وأنا أغادر المكان وإذا بفطومة تناديني. كانت مع أختيها. طلبت مني أن أصحبها نحو البيت. لأن شبابا كانوا يتحرشون بهن، فلم أرفض. كانت فطومة جميلة جداً... جداً... جداً... لكن مخها لم يتغير كثيرا. كنت أحيانا أرمي يدي على ظهرها وفي أحيان أخرى أتركها تنام في حضن يدها. كان كلامها دافئا ولو أني لم أفهمها جيداً وهي تسألني عن سيلفيا:

- مسيحية والمسيحيات واعرات.

- حتى المسلمات ما عندك ما تقولي فيهن.

- أنت تسخر ولكن المسلمات تكتفين برجل واحد. شوف مثلا سهام أحبتك من كل قلبها ولكنك لم تلتفت لها.

- سهام إنسانة غالية علي. لا أنا تركتها ولا هي تركتني. لسهام فلسفة خاصة في الحياة، اختارتها بكل وعي وربما من القليلين، إذا لم أكن الوحيد الذي يعرفها. ثم من قال إن المسيحيات تركضن وراء عشرين رجلا؟

- دينهم الذي شوهوه يسمح لهم.

- كلام فارغ.

- أنت في حصلة. لن يزوجوها لك إلا إذا تمسحت وإذا تمسحت يصبح دمك مباحا عند المسلمين لأنك ستعتبر مرتدا. هذه هي قوانينا ما عندك وين تروح يا المجروح.

- يا روحي، أعرف أنك امرأة تشتهيك كل الأعين التي تراك. لكن، هل جربت أن تحبي بصدق وجنون؟ مستعد أن أصير أي شيء من أجل سيلفيا، الله غالب. أتمسح أو أتهود، غير مهم.

- كبيرة هذه يا عيد. مع ذلك، قلل من سكرك. العرق يؤذي صاحبه ولا يرتاح إلا إذا قتله.

- وين المشكل؟ كلنا ذات يوم، سنذهب وراء تلك السحابة الغامضة التي يسميها الجميع الموت.

أتساءل أحيانا، لا أدري من ألصق هذا التخريف بأذهاننا في بلادنا؟ كل من ليسوا مثلنا فهم أعداء لنا وأن المسلم هو الوحيد في الدنيا المالك للحقيقة المطلقة وماعداه مخطئون مظللون؟ الفنطازية والجهل. لكن لفطومة حس آخر، صوتها المخملي الرائع. كانت مثل ماسة لا ترتاح إلا إذا نامت على هدهدات فيروز. كانت فطومة تحيي كل الحفلات الطلابية وظلت تحلم أن تدخل التليفزيون ولكنها مع الزمن يئست وأجلت كل شيء لما بعد فترة الدراسة.

ونحن نعبر الشارع الأخير المؤدي إلى بيتها بدأت فجأة تدندن أغنية لفيروز: ورقه الأصفر شهر أيلول فتحت الشبابيك... حفرتني. كانت تعرف أني أحبها. صوتها النادر، يدخل الأعماق بسرعة.

في الطريق عرفتني على اسمي أختيها ولكني نسيتهما بسرعة ووعدتني أن تزورني وأن نسهر مع بعض في أقرب وقت.

- والله راح نجيك. حتى أنا قلبي معمر بالهم. حابة نحكي معك ونغني مثل أيام زمان. ربما... الأسبوع القادم إن شاء الله.

- أن شاء الله. يا يما؟ صوتك يهبل.

- فقط؟

- Une façon de parler, si non tu es magnifique.[16]

من أجل فطومة التي أشعرتني بوجودي، كتبت هذه الصفحة حتى لا أنسى أبداً أمسية الصدفة هذه وأتذكر وعدها.

من أوراق عيد عشاب

ماذا يحدث عندما يخذلنا يقيننا؟ عندما نتوقف في منتصف

(16) - مجرد كلام وإلا فانتِ مذهلة.

الطريق ونتذكر فجأة أننا نسينا شيئاً مهما فنعود ركضا بحثا عنه وعندما نصل لا نجده؟ ماذا يحدث عندما يمر حبنا عاديا ورتيبا أمام أعيننا لأننا نعيشه ثم فجأة عندما ينطفئ نشعر ليس فقط بعمق الخسارة والفقدان ولكن العزلة ولاجدوى الحياة؟

الآن لا شيء في اليد ولا في البيت. الذين كانوا هنا، مضوا وبقيت وحدي أتأمل هذا السقف العالي لبار محطة الكرنك الذي يرتاده المسافرون عادة، الذين يأتون من الأطراف أو من مدن الجمهورية البعيدة، يشربون كوكا أو كأس عرق، يرتاحون قليلا، يقصون مغامرة الرحلة على بعضهم البعض بمزيد من الحماس خصوصا في هذه الأيام حيث الطرقات لم تعد سالكة منذ حادثة المدفعية في حلب وتبعتها حوادث أخرى كتلك التي وقعت بالأزبكية والتي روعت البلاد واغتيال رئيس الجامعة... يقصون ثم يمضون باتجاه الأهل أو الأصدقاء الذين ينتظرونهم.

وأنا أنتظرك في هذا المكان المعتم حيث أرى الجميع ولا أحد يراني. لا أدري إذا ما كان علي أن أتفاداك حفاظا عليك أم كان عليَّ السير وراء غيك وحماقاتك التي كانت ربما هي الصحيحة، وتفادي يقينياتي التي لم تكن كافية لوضعك في منأى عن الموت؟

أبدا، لا شيء، سوى أن القلب بدأ يخسر قوته وأني أدركت متأخرا، أني فتنت بك.

عفوا، جُننتُ.

عفوا. نسيت. لا شيء.

وحياتك لا شيء.

لا شيء، سوى أني في خلوة ما قتلت نفسي ثم... قتلتك.

ـ وين المشكل؟ كلنا ذات يوم، سنذهب وراء تلك السحابة الغامضة التي يسميها الجميع الموت.

أتساءل أحيانا، لا أدري من ألصق هذا التخريف بأذهاننا في بلادنا؟ كل من ليسوا مثلنا فهم أعداء لنا وأن المسلم هو الوحيد في الدنيا المالك للحقيقة المطلقة وماعداه مخطئوون مظللون؟ الفنطازية والجهل. لكن لفطومة حس آخر، صوتها المخملي الرائع. كانت مثل ماسة لا ترتاح إلا إذا نامت على هدهدات فيروز. كانت فطومة تحيي كل الحفلات الطلابية وظلت تحلم أن تدخل التليفزيون ولكنها مع الزمن يئست وأجلت كل شيء لما بعد فترة الدراسة.

ونحن نعبر الشارع الأخير المؤدي إلى بيتها بدأت فجأة تدندن أغنية لفيروز: ورقه الأصفر شهر أيلول فتحت الشبابيك... حفرتني. كانت تعرف أني أحبها. صوتها النادر، يدخل الأعماق بسرعة.

في الطريق عرفتني على اسمي أختيها ولكني نسيتهما بسرعة ووعدتني أن تزورني وأن نسهر مع بعض في أقرب وقت.

ـ والله راح نجيك. حتى أنا قلبي معمر بالهم. حابة نحكي معك ونغني مثل أيام زمان. ربما... الأسبوع القادم إن شاء الله.

ـ أن شاء الله. يا يما؟ صوتك يهبل.

ـ فقط؟

- Une façon de parler, si non tu es magnifique.[16]

من أجل فطومة التي أشعرتني بوجودي، كتبت هذه الصفحة حتى لا أنسى أبداً أمسية الصدفة هذه وأتذكر وعدها.

من أوراق عيد عشاب

ماذا يحدث عندما يخذلنا يقيننا؟ عندما نتوقف في منتصف

(16) ـ مجرد كلام وإلا فانتِ مذهلة.

الطريق ونتذكر فجأة أننا نسينا شيئاً مهما فنعود ركضا بحثا عنه وعندما نصل لا نجده؟ ماذا يحدث عندما يمر حبنا عاديا ورتيبا أمام أعيننا لأننا نعيشه ثم فجأة عندما ينطفئ نشعر ليس فقط بعمق الخسارة والفقدان ولكن العزلة ولاجدوى الحياة؟

الآن لا شيء في اليد ولا في البيت. الذين كانوا هنا، مضوا وبقيت وحدي أتأمل هذا السقف العالي لبار محطة الكرنك الذي يرتاده المسافرون عادة، الذين يأتون من الأطراف أو من مدن الجمهورية البعيدة، يشربون كوكا أو كأس عرق، يرتاحون قليلا، يقصون مغامرة الرحلة على بعضهم البعض بمزيد من الحماس خصوصا في هذه الأيام حيث الطرقات لم تعد سالكة منذ حادثة المدفعية في حلب وتبعتها حوادث أخرى كتلك التي وقعت بالأزبكية والتي روعت البلاد واغتيال رئيس الجامعة... يقصون ثم يمضون باتجاه الأهل أو الأصدقاء الذين ينتظرونهم.

وأنا أنتظرك في هذا المكان المعتم حيث أرى الجميع ولا أحد يراني. لا أدري إذا ما كان علي أن أتفاداك حفاظا عليك أم كان عليَّ السير وراء غيك وحماقاتك التي كانت ربما هي الصحيحة، وتفادي يقينياتي التي لم تكن كافية لوضعك في منأى عن الموت؟

أبدا، لا شيء، سوى أن القلب بدأ يخسر قوته وأني أدركت متأخرا، أني فتنت بك.

عفوا، جُننتُ.

عفوا. نسيت. لا شيء.

وحياتك لا شيء.

لا شيء، سوى أني في خلوة ما قتلت نفسي ثم... قتلتك.

الفصل الرابع

مسالك النور

الفصل الثاني

1

هل أذهب؟ سأذهب؟ ماذا أفعل هناك؟ لن أذهب.

الليلة بكاملها لم أنم إلا ساعة واحدة من وقع الأسئلة المرتبكة. بين أن أذهب أو أتفادى الذهاب. شعرت بأن جعفر كان يسرق مني مريم. بعد تردد كبير أقنعت نفسي أن لا شيء يسرق إلا إذا وضع نفسه موضع السرقة.

في هذه الحالة سأذهب إذن .

أغمضت عيني وذهبت، ضاربا عرض الحائط دروس الصباح مثل جميع سكان *فيلا الإطفائية*. سيلفيا لم تحضر لأنها اتهمتنا بالحماقة والهبل بينما عيد عشاب لم يفارقنا لحظة واحدة. قال: من أجل الحماقة أنا مستعد للتوقيع بأصابعي العشرين على أي شيء يجمع امرأة برجل.

- توكلوا على الله فقط.

للإعلان عن خطوبته وزواجه، اكترى دجيف Djeff جناحا واسعا بمطعم علي بابا وعزم كل الأصدقاء ولم يستثن أحدا. كانت مريم جالسة بجانبه. جميلة مثل دمية صينية كانت.

كنت حاضرا في مساحة من الغياب تشبه الضباب الداكن الذي كثيرا ما كان ينزل على مدينتنا البعيدة. أمشي بصعوبة ورجلاي تغوصان حتى الصدر. في قلبي خوف كبير من التلاشي.

فجأة وجدنا أنفسنا جميعا، سكان *فيلا الإطفائية*، في المطعم.

جئنا نشهد ونبارك زواجا لا أدري إذا كان واحد منا مقتنع به، بما في ذلك مريم وجعفر.

أكلنا الكاطو، وتمنينا لكما أولادا وأطفالا جميلين تملأون بهم خواء هذا العالم المخيف وسريرا شرعيا وحياة سعيدة.

في تلك اللحظة وأنا أوقع كشاهد زور على صك الزواج وتحويلك إلى دجاجة أليفة، تذكرت فجأة كلمات رنت في دماغي كالحديد الساخن:

- سنلتقي في الحملة التطوعية القادمة.

كلمة سمعتها منذ زمن بدا لي بعيدا جداً محملا بعطر الطفولة والرعشات الأولى وخيبات المراهقة.

انتابني شيء غامض إذ شعرت بالحياة تافهة وبلا معنى. شيء من العبث كان يحدث على مرأى مني لم أكن قادرا على تحمله. هل جعفر حالة حب طارئة أم مجرد قشة أو انتقام من صمتي وارتباكي أمام مريم؟ لم أكن أريد الحصول على أجوبة لأن الأمر لم يكن يهمني كثيرا. فقد كنت خارج الدائرة وكان من الصعب علي فهم فظاعة ما كان ينكسر بداخلي بقوة كالحطب الجاف.

كلما رفعت رأسي لمحتك تنظرين إلى وجهي بعينيك المائلتين وكأنك كنتِ تنتظرين حدثا خاصا يضع حدا لكل هذه المهزلة. رأيتني كالمفتون الذي خسر عقله ورزانته، أقوم من مكاني من بين الجموع المتراصة التي جاءت للمباركة. أتقدم مغمض العينين آخذك من يديه وأنت سعيدة تقهقهين بصوت عال وأخرج بك نحو أقرب رجل دين ليبارك زواجنا على العوامة وبين النوارس وقصب البانبو والأشجار والنباتات الاستوائية.

فجأة لكزتني رجل عيد عشاب موشوشا في أذني آمراً:

- وينك نايم؟ دورك. يا الله قم ولكْ.

قمت من مكاني. وضعت هديتي عند رجليك. رسمت قبلة على جبينك وأنا لا أعلم كيف تحركت نحوك بكل تلك السهولة. فقد كان الألم كبيرا بحيث أفقدني الحساسية:

- حياة زوجية سعيدة. تهلاي في روحك مريم.

- شكرا. ربي يتهلا فينا جميعا. يا سيدي في الأفق دائماً شيء آخر. الدنيا هكذا، يجب أن لا نقنط من رحمة الله.

قذفتني جملتك الأخيرة نحو سحق الشارع وحيدا. كان كل شيء مرتبكا وكنت منكسرا وبي رغبة كبيرة للذهاب نحو بار النجمة والشرب حتى الصباح أو... عند عمو طوني، عرقه اللبناني، عرق توما، يبقى طعمه في الفم أكثر من أسبوع.

سرت وأنا لا أدري كيف خرجت أصلا من المطعم وتبعني عيد وهو يردد أغنية قديمة بعد أن ملأ دماغه بأدخنة العرق.

Cherie je t'aime,
Chérie je t'adore
Ya Silvia, ana bahibbak ya Silvia.

- يا عيد أنت تشوه الأغنية.

- يا أخي أنا لا أستطيع أن أقول *أنا بحبك يا مصطفى*. لا أحب مصطفى حتى أغني عليه. أنا أحب سيلفيا، إذن أغني عليها.

- معك حق. ولِمَ لا؟

من حين لآخر، عندما تنتابني عبثية المشهد الذي رأيته أعزي نفسي بالكوابيس وأقنعها بأن كل ما رأيته لم يكن إلا إيهامات متتالية فرضتها علي هشاشتي ومشاهد قيامة سرعان ما تنطفئ عندما يأتي الصباح محملا بالأخبار الجديدة.

- يا رجل مش نهاية العالم. أرض الله واسعة. تأمل وضعيتي، فهي أزفت مما تعيشه أنت. أنا مرفوض لأني أنا. هل تعتقد أني اخترت أن أكون مسلما وسيلفيا اختارت أن تكون مسيحية؟

ـ أنت على الأقل لست مسؤولا على وضعك، أما أنا...

ـ أية مسؤولية؟ أنت اخترتَ وهي اختارت، فأين الضرر؟ مع ذلك ضيعتما فرصة كبيرة للحياة. الله غالب ربي يعطي اللحم للي ما عندوش السنين. هذه هي الدنيا. لو كنت مكانك لقلبت الطاولة على أصحابها ولأخذت مريم من يديه. لو فعلتَ ذلك لرأيت الفرحة ترتسم في وجهها لكنك كنتَ خائبا ولم تفعل شيئا.

ـ إيه...

استغربتُ مما كان يقوله العشاب وكأنه كان يسكنني.

«*باب الحاجة*: لا شيء في هذ الدنيا يسير باستقامة. العالم قاس. قمت هذا الصباح منهكا ومنكسرا مثل ليلة البارحة. يبدو أن والدي نسيني نهائيا. شربت القهوة ثم خرجت من البيت. مررت عند مبارك، طلبت منه خمس ليرات لأني كنت في حاجة ماسة إليها ولم يعد معي ولا قرش، كنت على الحديدة. أجابني بالنفي ولكنه أخذ علبة القهوة الجزائرية وقسمها معي. شكرته. ذهبت بعدها عند عادل. كان بدون قهوة، فطهينا ما كان معي وشربناه وعندما طلبت منه خمس ليرات كنت أعرف الإجابة مسبقا. توجهت نحو المطعم لأرى بعض الأصدقاء هناك ولكني وجدته مغلقا. عدت إلى البيت فأكلت قطعة خبز بقيت من ليلة البارحة وشربت كأس شاي قبل أن أخرج من جديد. مررت على بوصبيعات ولكنه هو بدوره لم يكن يملك ما يعطيه لي. سوى أن عادل الذي كان معه منحني علبة دخان: Pall-Mall فشكرته على ذلك. مررت على حديقة السبكي وهناك بدأت كتابة رسالة لوالدي ولكني مزقتها. في المساء مررت نحو الرابطة، وجدت هناك رسالة لداودي فأخذتها له. اتخذتها ذريعة لطلب خمس ليرات منه. أصلحت له بالمناسبة الكاسيت التي كانت معطلة وعندما طلبت منه خمس ليرات، بحث في جيبه ثم أجاب بالنفي. وأنا أعود إلى الرابطة واجهني الصديق صحراوي وقبل أن أحييه، طلبت الخمس ليرات ولكنه في الأخير منحني وعدا جميلا

بتدبيرها بدون فائدة. في الرابطة لم أجد إلا لكحل الذي أعطاني ثمانين قرشا فاشتريت بها رغيفين وعلبة سردين من النوع الرديء. عندما عدت إلى البيت كنت متعبا. نمت ولم أر شيئا، سوى شيخ الزاوية، جدي المختار التبسي الذي كان يدهن الحبل الذي بين يديه بشحم الإبل ثم يمرره حول رقبته وهو يقهقه مثل الذي أصيب بحالة هستريا مفاجئة ويصرخ:

ـ طز فيكم وفي حياتكم وبئس كل ما صنعتم وبنيتم. ما زلت هنا ولن تقبضوا إلا على الفراغ. أعطينا الحياة كل شيء فأعطتنا كل أمراض الدنيا».

من أوراق عيد عشاب

مغادرة *فيلا الإطفائية* لم تكن أمرا هيناً علي ولكن خياراتي كانت محدودة. جعفر ومريم كانا مضطرين للبقاء بنفس المكان قبل الإنتقال إلى *البيت الصغير في الروضة* وأنا لم يكن بإمكاني عيش عبثية أكثر من هذه، كنت أول العارفين لها لأني متسبب في نشوئها. إمكانات التحمل ضعيفة لدي ولا أستطيع أن أذهب إلى أبعد مما ذهبت إليه.

من الصعب أن تتركَ مكانا قضيتَ فيه جزءا من عمرك. وهو من أجمل ما يمكن أن يحصل لك في حياتك؟ ومع ذلك بعض الجروح والأمراض المستعصية تحتاج في الكثير من الأحيان إلى البتر والحسم، لأن الإبقاء عليها على حالاتها الأولى لا يمكنه إلا أن يزيد من قسوة الأشياء. آلام البتر أحيانا أهون من الأنين اليومي في مكان معزول ولا من يسمعك. ومع ذلك نحتاج إلى قدر من اليأس يفتح أمامنا كل المغالق مثل المقدم على انتحار.

الألم كان قويا لكن خياراتي كانت محصورة بين ألمي والتباساتي مع مريم التي لم أكن أملك حيالها أي جواب مقنع. ابتداء

من هذه اللحظة أصبحت المسالك واضحة وأصبح بإمكاني اتخاذ أي قرار.

عندما خرجت من بار *النجمة* الذي يستقبل في مثل هذا الوقت الفنانين والكتاب والصحفيين وكل الفاشلين الذين يحلمون بالفتوحات التي لم يتحصلوا عليها في حياتهم، كان عيد عشاب ما يزال غارقا في جلسة حميمية مع أصدقاء كان وحده يعرفهم ولم يبذل مجهودا لتقديمهم لي. عيد هكذا، لا يفعل ذلك إلا لسببين، إما أنه لا يريدني أن أعرفهم لأنهم عندما يشربون يخبصون وإلا أنهم دانوه نقوداً لشراء قنينة عرق.

كانت أضواء الشوارع مطفأة. الفجر بدأ. وبدأت أدق على محلات العقاريين بحثا عن سكن للأجار بين شارع بغداد والبنك المركزي وسينما السفراء وسوق ساروجا. عندما توسطت الشمس في سماء لم تكن صافية، كنت ممددا على فراش أحضره لي أبو هيثم الكندرجي، صاحب البيت.

منذ ذلك اليوم لم أعد إلى *فيلا الإطفائية* إلا لأخذ أغراضي.

كل شيء كان قد انتهى.

2

ـ مريم عادت.

تفاديت سماعها لسبب لم أعرفه أبدا.

الأموات لا يعودون. مريم ماتت...

أقسمت أن أظل وحيدا في هذا الحي المنفصل عن بقية المدينة على الرغم من وجوده بعمقها. لا أزور أحدا ولا أحد يزورني لولا وضعية عيد وسيلفيا القاسية. استقلبتهما لأول مرة بشرط أن لايذكرا لأحد مكان إقامتي الجديدة.

تعودت بسرعة على حياة حي سوق ساروجا الشعبي بدروبه الضيقة ومسالكه المغطاة التي تشبه الأنفاق القديمة وحمّامه الرئيسي. لم أنسكِ ولكني طوال الشهور الماضية استطعت أن أدرب نفسي على العقل وقبول منطق الدنيا الذي بدا صعبا وشاقا وفي بعض الأحيان مستحيلا.

لم أكن أملك غير ذلك لمقاومة الخيبة.

ـ شو؟ ما عَمْ تسمع؟ مريم عادت يا أخي؟ ما يهزك هيك كلام؟

قالت سيلفيا مرة أخرى بحدة ظاهرة، وهي تضع الكباب وسلاطة فتوش والكوسة المحشية التي أنجزتها طوال الفترة الصباحية في بيتي، على كومة الصحف اليومية التي فتحناها عن آخرها.

ـ من قال إن الصحف غير صالحة؟ نحن نتحمل كذبها الكبير وهي تتحمل قدرا صغيرا من نفاياتنا. مصلحة متبادلة. هذه هي النظرة التعادلية، تتحملني وأتحملك.

أردف عيد عشاب ساخرا، من زاوية البيت، كان منهمكا في رسم كاريكاتور لوجهي المتعب ولكومة الكتب التي كانت تغرقني.

ـ هذا هو العنوان: *الكتب تنهار على الجاحظ فتقتله*.

ـ معقول. المهم أن يكون الكاريكاتور كويس.

هذه المرة كنا نتغذى عندما صرخت سيلفيا وعيد عشاب في وجهي، بصوت واحد وكأنهما اتفقا على ذلك قبل أن يدخلا إلى بيتي. كانت الحدة تقارب الزعل:

ـ هذا يعني أنك مجنون والأكثر من هذا، غيور من سعادة المرأة التي أحببتها. أنت تعرف رأيي في هذا الزواج الذي لا معنى له. ورفضت أن أكون شاهدة على هذا الجنون منذ بدايته بينما أنت وعيد ذهبتما وكان بإمكانك أن ترفض. الآن ليس من حقك إذا كنت تحبها، أن تكون سلبيا.

ـ يا سيلفيا، ربما سأحرجها بزيارتي وأحرج دجيف Djeff. لقد صارا الآن متزوجين ولم يعد هناك أي مبرر لوجودي بينهما.

ـ بارك زواجهما. وين الغلط؟ يبدو أنك خائف على نفسك. يكفي أنك تركت *فيلا الإطفائية* قبل الصيف لتسكن وحدك.

ـ يا صديقي يجب أن لا تخطئ في حق مريم. جنونك هو الذي أفقدها صوابها. كن عاليا وتفاداها فيما بعد إذا استطعت. اذهب لتختبر عواطفك.

ـ ماذا أختبر يا عيد عشاب في شيء أنا على يقين منه.

ذهبت سيلفيا وعيد عشاب وجراني وراءهما.

عندما تخطينا عتبة البيت، كانت مريم هي التي فتحت الباب.

وضعتُ الورود بين يديها وقبلت جبهتها ووجه جعفر وأنا أتمتم بدون قناعة كبيرة مني كالعادة: مبروك عليكما.

«شكرا».

ردداها مع بعض مع ابتسامة مستقيمة، ارتسمت على محياهما وكأنهما تدربا عليها كثيرا قبل هذا الوقت وطوال فترة شهر العسل، لمواجهة مثل هذه المناسبات بمزيد من الثقة والوئام.

كنت أنافق بكل صدق في حياديتي.

عندما بدأت تتكلم عن جولتهما اليونانية والباريسية وكيف عبرا نهر السين ليلا في الزوارق الدافئة، غرقت فجأة في مصبات بردى التي كانت كل يوم تزداد بعدا.

لماذا الألم يستيقظ فينا دفعة واحدة كلما تعلق الأمر بفقدان امرأة نحبها؟ امرأة قد تكون عادية أو أقل من العادية ولكنها تأسرنا بجنون؟ نتعذب من أجلها وهي ربما تنام براحة بين ذراعي الزوج أو العاشق الذي اختارته لحياتها؟

كان رأسي فارغا إلا من صورة واحدة. الحلم. استعدت ذلك اليوم الذي خرجنا فيه نحو مياه بردى ومنبعه وسلكنا مخابئ *«طوق الياسمين»* المسكرة والمخيفة والعوامة الصغيرة التي صرنا، منذ ذلك اليوم، نركبها لنتجول في النهر الصغير. كنا نختار الذهاب يوم الجمعة فجرا مثلما فعلنا ذلك أول مرة مع خادم المقام. قمنا في ذلك الصباح باكرا. قلتِ بي رغبة ملحة لمغادرة هذا الشجن بعيدا عن هذا المكان.

سألتك وأنا أمزح:

ـ مريم، هل تريدين الماء؟

ـ وكأنك تتحدث عن مدينة بحرية؟ جدي سيدي عبد المؤمن بوقبرين صلى أصدق صلواته قبالة البحر. أنا ابنة الماء يا حبيبي ولكني أشعر بنفسي في صحراء قاحلة وقاتلة.

حتى تلك اللحظة لم أكن أفكر مطلقا كيف أمنحك الماء في مدينة، الشعر الذي قيل في مائها يتجاوز ماءها. ثم فجأة وأنا أسخر أمام سيلفيا وعيد عشاب قالا لي بصوت واحد: لماذا لا تذهبان نحو مصبات بردى؟ مكان جميل وبإمكانكما أن تتجولا كما تشاءان. هناك باب مدهش حدثتك عنه، يقول عيد عشاب، مغلق بالنباتات القاسية والعملاقة، في شكل طوق يعبره العارفون، ولكن عندما تمران ستغرقان في نور لم ترياه في حياتكما أبدا. القليل من سكان هذه المدينة من يعرف «*طوق الياسمين*» الذي ينفتح مباشرة على الماء وأشعة الشمس الفضية. أغلبهم يمرون عبر المداخل العادية المخصصة للسواح والناس العاديين. «*طوق الياسمين*»، يقول عيد، اكتشفه سيدي الأعظم محي الدين بن عربي وبه اختبأ من العيون التي جاءته محملة بالظلام والقسوة. كان يسميه كذلك *باب العبور* نحو *النور* وبه كان يتهيأ لرحلته الكبرى.

- ألم أعدك؟ هاأنذا أفي بوعدي. سأحدث خادم المقام لكي يرافقكما وأكرماه.

- ولو يا عيد؟ ما فيه داعي تقول هذا الكلام. خادم المقام على راسي. الأصول يا صاحبي.

- وهو كذلك. لن تندما. أنا متأكد من ذلك.

لم أسأل كثيرا. كنت في حاجة إلى قليل من الحلم. اقترحتُ عليك أن نذهب لنتجول على متن الزوارق بصحبة خادم مقام الشيخ محي الدين بن عربي. كنت تضحكين وأنت لا تدرين أين كنا ذاهبين.

- لو كان ما كنتش نعرفك، نصدقك.

- سأجعلك تعشقين الماء الذي افتقدته منذ مدة.

- يا خويا، كن جادا مرة واحدة في عمرك؟

كان الفصل شتاء. بدأنا نشق أدغال النباتات حذَّرنا خادم المقام من الحديث. أخذك من يدك وبدأنا نزحف بهدوء كالحيات أو

ظهورنا منحنية بحسب وضعية قصب البانبو أو الدفلى أو غيرها التي من الأشجار المتكاثفة التي كانت تمنعنا من المرور. شيئان يبقيان في عمق الذاكرة: الأصوات المتناغمة لحيوانات كثيرة ومساقط المياه والروائح المسكرة. حاذينا سلحفاة ضخمة، طالبنا الشيخ بأن لا نعيرها انتباها، لا هي ولا غيرها من الحيوانات والزواحف التي كنا نصادفها. توغلنا في الداخل وبدا لي أننا ذاهبون نحو القيامة وأننا نسلك طريق الحساب. يشد على كف مريم ويمشي بخطوات العارف والواثق. عندما حاولت أن أرفع رأسي، لم أر شيئاً سوى ظلال النباتات والشجيرات الكثيفة والمتراصة. بدأت الروائح شيئاً فشيئا تنسحب مخلية المكان للياسمين فقط ولوقوقات النوارس وصوت المياه وهي تتكسر على الصخور المهجورة. صارت النباتات التي كانت تحيط بنا أكثر رقة وأقل توحشا. فجأة طار من أمامنا سرب من النوارس. توقف خادم المقام لحظة ثم واصل سيرة بتثاقل بعد أن استوى بقامتة. فجأة قفز في وجهنا الشعاع الأول وهو ينكسر على سطح مائي كان يشبه المرآة. كان الماء ينزل من مرتفعات الزبداني المثلجة ويتسرسب كشعاع سائل. انتابني الإحساس كأننا كنا أمام باب انفتح فجأة على الأنوار والطيب. تمتم الشيخ:

- لننتظر قليلا. سيأتي الدليل.

بعد دقائق رست العوامة عند أرجلنا. ركبنا. ومنذ تلك اللحظة لم نعد نرى سوى الدليل والماء وصعوبة فتح العيون. كان خادم المقام قد انسحب. كأننا كنا داخل عالم خرج فجأة من العدم. كلما اخترقت الأشعة ألياف الضباب زاد بياض الماء وتعمق أكثر إحساسنا بالغشاوة. وفجأة بدأت العوامة تدخل بهدوء في عمق الماء الذي تظلله الأشجار مثل بيوتات الهنود الحمر وكأننا كنا نشق دهليزاً والنور يتضاءل حتى صار المكان مظلما تماما ولم نشم إلا رائحة الياسمين ولم نعد نسمع إلا تكسر الماء وكأنه يغلي في درجات عليا. وعندما خرجت العوامة إلى النور مرة أخرى، كان الضوء قد أعمانا.

وأصبنا بإغفاءة لا أحد فينا كان قادرا على معرفة مدتها ولكننا كنا نسمع كل شيء. وعندما فتحتِ عينيك، وشوشتِ في أذني: أتعرف ماذا رأيت؟ أمي. رأيتها مثلما أراك الآن وهي تخرج من عمق السيلانات الكبيرة. كان وجهها مشعا، مليئا بالنور وعلى رأسها أكاليل الغار والياسمين. كان لها جسم ولكنها كانت امرأة من نور وماء. تمنيت أن ألمسها ولكنها مرت من أمامي، حيتني مبتسمة وبعدها انسحبت نهائيا. قلتُ لك وأنا أتمتم بدوري في أذنك بخفوت حتى لا نزعج الدليل الذي كان الضباب يفصل بيننا وبينه: أنا كذلك رأيت طفلا يركب براقا جريحاً، كان يحاول أن يطير ولكنه لم يستطع ثم بدأ يزحف نحو سفينة نوح المليئة بالبشر والحيوانات. عندما وصل إلى عين المكان سُمح للطفل بالركوب ولكن البراق حرم لأن القاعدة تنص على ضرورة وجود شبيه مؤنث له بينما البراق كان لوحده. بدا لي نوح وقتها غبيا. عندما تحسس الطفل البراق، وجده قد مات. شتم نوح وهرب نحو الجبل. عندما التفت نحوي، كان أنفه يسيل وعلى جبهته الكثير من الجروح، وبقع الأدخنة والبارود، يرفع على رأسه كتانة حمراء ويطلب من النوّ أن لا تصب:

يا النو ما تصبيش..

ويا خويا حمو ما تجيش..

وما تغطيش سيدنا نوح بالزربية،

على خطر ما خلاش البراق يركب في السفينة.

كان يشبهني وظل يتوارى حتى غام في عمق الضباب. تمنيت أن أستوقفه وأصرخ في وجهه: لماذا تشوه أغنية المطر؟ لكني استطعت أن أفتح عيني في الوقت الذي استيقظتِ أنتِ فيه. بعد تجاوز مغالق «*طوق الياسمين*» النباتية، كان نبع النهر قد زاد صفاء مثل قطعة فضية عائمة وسط الضباب. كانت تنزلق كالثعبان لم نكن نسمع شيئاً إلا حركة العوامة القديمة التي يقول عيد عشاب إن سيده الأعظم ابن عربي كان كلما اشتاق إلى الصفاء، امتطاها بصحبة

الدليل الذي منذ ذلك الزمن وأجداده يتوارثون نفس الحرفة حتى اليوم، وخشخشة تمزق المياه ونحن نحاول عبثاً أن نفتح عيوننا على النور الذي كان يغرق كل المحيط.

نظرتِ إلي:

ـ يا الله. أي سحر يملكه «*طوق الياسمين*»؟ كنت أظن أني المهبولة الوحيدة التي تمنح حبيبها المستحيل وها أنا ذي أجلس بجانب رجل يمنحني كل شهواتي العالية. منذ زمن بعيد لم أدخل الماء.

ـ السعادة لا تحتاج إلى استحالات كبيرة، أشياء صغيرة قادرة على أن تهزنا في العمق.

ـ شكرا لك حبيبي.

قضينا نصف اليوم في العوامة. تفصل بيننا وبين صاحب المجدافين كتل الضباب والنور الطاغي. كان المصب هادئا ويغري بكل سبل الغوص في الأعماق.

عندما عدنا إلى البيت لم نتكلم إلا عن الطيور والزقزقات والألوان والفراشات التي تقف على رؤوسنا وأصابعنا أو على المجدافين وكيف أصبنا بالإغفاءة التي لم ندر كم دامت والتي رأينا فيها الألوان التي لم نرها في حياتنا أبدا.

ـ واش من بابور غرق؟

ـ الإغفاءة؟ عفوا...

لولا تدخل سيلفيا لغرقت في المصبات والضباب والألوان.

في داخلي كانت تتهدم الأشواق القديمة وتتكسر أعمدة خشبية عتيقة أكلتها سوسة الألواح من الداخل. شعرت بعينيك تبحثان عن مرافئ دافئة أفتقدناها منذ ذلك اليوم القاتل. في لحظة ما، تمنيت أن نلتقي ونتحدث بتفصيل أكثر، لكن خوفا غير مبرر كان يقتحم كل الزوايا المظلمة في داخلي.

أحسست بشعلة الحزن تبدأ بالتهامك من عينيك.

حين سألتني عن أحوالي، لم أقل إنها طيبة.

ـ ماشي الحال.

قال دجيف Djeff وهو يضحك:

ـ هذه كلمة عوامة. وكأنك لم تقل شيئا.

ضحكت لأنه لم يكن لدي ما أضيفه سوى أني تأكدت أنك مرضي المزمن. مرض سآخذه معي نحو القبر. كان هذا يقيني الوحيد.

كنت تبحثين عن أشياء تشعرين بها ولا تستطيعين لمسها. تتحدثين عن كل شيء ولا شيء. وجدتني في لحظات الغفوة، أعيد اكتشاف صياغتك المبهمة.

أنتِ. امرأة أعرفها وتهرب تفاصيلها مني. وجه جميل، لولا بعض الصفرة التي تعطي الانطباع بالمرض على الرغم مما كان يبدو عليك من سعادة. خانة صغيرة تنزلق بهدوء على الجهة اليسرى من رقبتك. أتذكر أني ذات ليلة وضعت عليها قطرات الويسكي وشربتها واحدة واحدة. مكانك الحساس. نقطة ضعفك في الفراش.

رفعت رأسك. لا شيء فيك تغير. الحزن كان يقرأ تحت الابتسامات غير المقنعة. فقدت الكثير من عفويتك وصرت تشبهين الجميع. شاهدت أغصان الجدري تتسلق خدك مثل شجيرات العليق اليابسة. وأشهد أني لمحت الشمس تحتضر في عينيك. لا أدري إذا كان هذا مني أم منك، لكنك هكذا كنت تبدين. في لحظة نبتت كالشوكة في أمعائي، أحسست أن دهرا من الزمن ما زال يفصلنا. حين حكيت كنتِ تحكين عن المدن الجميلة التي اشتهت عيناك رؤيتها، لم تكوني فرحة بالشكل الذي كنت تتصورين. شيء ما فيك كان دائماً يعيدك إلى انكسارك الأول. حتى الدمية الكبيرة التي تحرك عينيها وتمشي لوحدها وتتكلم عندما تتألم، التي كنت تتمنين أن

تضعيها على السرير لتزويقه ولامتصاص غياب الأمومة الذي كان يعذبك. اشتريتها من جولتك الباريسية الأخيرة. لكن شيئاً لم يتغير.

شعرت بك مثلي تماما، تنتحرين في الهدوء والعزلة والعواصف المكبوتة.

لتفاديك، التفت نحو الحائط. لم أر ما يدهشني سوى التفاصيل التي كانت تشبهك، تؤكد العزلة والانطفاء. بيت صغير، متواضع إلى حد بعيد. حجرتان ومطبخ. في قاعة الضيوف، حين تدخل وتجلس على الأريكة يواجهك براد كبير، تتراقص على بابه إعلانات جبنة كيري ومختلف الأجبان الفرنسية وبعض أبطال الصور المتحركة. وضعت عليه ورود بلاستيكية حمراء تتسلق الحائط بعياء وكلل. على المكتب الأنيق الذي ينزوي في الظل والبرودة، كومة من مختلف الكتب والمجلات النسائية. تاريخ النازية وهتلر الفتوحات الإسلامية، القصص المصورة «فوطورومو» ومختلف السير والكتابات الموغلة في القدم. على الحائط الجانبي، تتدلى قطعة قماش صينية قديمة ختمت عليها شهور السنة الجارية. في الأعلى، صف من الكتب على ارتفاع يكاد يلامس السطح، يبدو أنها لم تُقرأ منذ أن وُضعت هناك. على الحائط الذي كنت متكئا عليه، لوحتان متناغمتان: *الأولى*، وجهان جميلان يرقصان رقصة الموت. *الثانية*، طائر ملون يحاول تحريك ريشه ليخفي جرحه؟ في مواجهتي، مطبخ بدا إهماله واضحا.

قلتِ بدون إقناع كبير حين رأيت عيني تتسلقان جدران البيت وتمسحان كل المحيط شيئاً فشيئا.

ـ بيت مؤقت. لقد استأجرنا بيتا مؤثثا بشكل كامل في أبو رمانة، سندخله قريبا.

ـ المهم أن تعيشا سعيدين. المهم أن تعيشا سعيدين.

قالت سيلفيا في نفس الوقت مع عيد عشاب وكأنهما اتفقا على نفس الكلام.

بعدها، تكورتِ في لباس عتيق وحاولتِ أن تسترجعي كل لحظاتك المرهقة. وحدك كنت تعرفين تفاصيلها.

حاولت عبثاً أن تبتسمي، لكن ابتسامتك لم تستمر كثيرا. وجهك كان مسكونا بالأسى وبالأشياء التي يصعب تفسيرها. سمعتك تتكلمين في الظلمة.

ربما كنتِ تبكين؟

«احذر الأقدار حبيبي. فهي تأخذ كل مزاحنا مأخذ الجد. إنها مثل الديك، تسمع حتى سقوط الندى.»

رأيتك تلبسين وجها آخر. تستعيرين الأقنعة. تضحكين وتقهقهين عاليا لكن في القلب كان ينبت شيء آخر أكثر حزنا وأكثر انكسارا. فانكفأت على نفسي وذهبت نحو مصبات بردى الخالية إلا من رجل العوامة وقصب البانبو والضباب الكثيف والنباتات الأمازونية والحلفاء والديس... التي كانت تسد المسالك وتمنع من المرور نحو «*طوق الياسمين*» وتغلق كل الممرات المؤدية نحو أعماق المصب المضاءة بكثافة حتى في فصل الشتاء، نحو النور.

كنتِ بعيدة وكنتُ قريبا إلى قلبي، أنصت لكل الانكسارات والتشققات والشروخات التي كانت تهز بشكل متتابع وعنيف، جدار النفس تاركة المجال مفتوحا لفيضانات الخيبة بالمرور والتدفق.

3

أنت تقتلني بحبك.

يا ليتك ما زرتني. كنت قد بدأت أقنع نفسي أنك لم تعد لي، ربما كنت لامرأة أخرى غيري. ثم لماذا الإصرار على العبث والموت؟ ألم يختر كل واحد منا مسالكه وأقداره؟ أنا مرتبكة وشديدة الشكوك في قدراتي الخاصة.

كل شيء ينتفض فيَّ وكأنه يحدث الآن. أراك منحنيا على ركبتيك تفتح معبرا للمرور نحو «طوق الياسمين» وأنا أتساءل في خاطري: أي سحر يقوده نحو كل هذا العذاب؟ ألم يكن من الأجدى لنا أن ندخل من البوابات العادية لمصبات نهر بردى التي يعبرها آلاف الخلق بدون شطط؟ ربما كان عيد عشاب عندما نصحنا بضرورة زيارة المكان، في حالة زوغان بسبب العرق الذي يخذله أحيانا. أرى خادم المقام وهو يسحبني وراءه وسط خلجان النباتات الاستوائية ويدفعني إلى التزام الصمت والصبر. أي باب يملك كل هذه المغالق الطبيعية التي تطوقه وتجعل منه حصنا منيعا؟ ثم... فجأة... يطير من أمام أعيننا سرب من النوارس التي تندفن الواحد تلو الآخر في مساحات الضباب المتصاعد. نخطو خطوات أخرى إلى الأمام. تتمتم: أسسست... لم نعد بعيدين عن النبع. فجأة تجتاحنا دهشة الخلعة وكأننا نكتشف المدينة للمرة الأولى. يندفع النور متدفقا مختلطا بصفحة الماء وبنعومة الأشياء المحيطة. تتمتم

من جديد تحت وطأة الدهشة: عيد لم يكن مخطئا في ذلك اليوم عندما فتح أعيننا على هذا السحر اللامتناهي. عيد جرب هذه اللذة. القليل من يعرف عمق هذا الرجل الذي أحب محي الدين بن عربي من جلسة طارئة هو وسهام مع خادم المقام. من يومها صار يقتفي خطوات سيده الأعظم كما كان يسميه ويتصيد كل ما يحكى عنه من حقائق وكرامات وخرافات.

«طوق الياسمين»... فتح في وجهي صورة أمي كليلة القدر. أمي كانت امرأة من نور وماء. وجهها صاف كمرآة... يا ليتك بقيت في البيت ولم تأت، لأعطيتني كل مبررات نسيانك وحرق كل ما يجمعني بك وسد كل البوابات بما فيها باب «طوق الياسمين» الساحر الذي يصعب على أي مخلوق رآه أن ينساه، لأتفرغ بعدها لبيتي وزوجي. ولكنك جئت بدون أدنى تردد. وكان يجب أن لا تأتي لنتمكن من رتق جراحاتنا المنفتحة على الذاكرة ونعيش حياتنا في حد أدنى من السكينة.

لا أنت تركتني ولا أنا استطعت أن أتفاداك. كنت كالقدر، بل القدر بعينه. قلت لك في الرسالة التي بعثتها مع سيلفيا لاختبارك:

ـ متعبة جدا، أريد أن أراك. إذا لم تأت سأنتحر.

الجملة السحرية الوحيدة التي كانت كافية لإخراجك من صمتك وخوفك مني أو علي، لا أدري. هكذا إذن سأتمكن من رؤيتك بعد كل هذا الفراغ؟ فجأة وجدتك أمامي بعد أن أكلني اليأس والخوف. هكذا إذن مازلت أعني لك الشيء الكثير؟ أما زلت تحبني إلى هذه الدرجة بعد الحماقة القاتلة التي ارتكبتها في حقك وفي حقي؟ لابد أن نكون قد أصبنا بمرض لم نعد قادرين على تحديده؟ مازلنا سجناء أنوار «طوق الياسمين» وخلجانها وضبابها وعوامتها القديمة ومائها الذي يشبه بركة بدون حدود من الفضة السائلة.

عدت متأخرة من شهر العسل الذي لم أدر كيف مر ولا أعلم

جدواه. ولا أدري إذا عدت للجامعة أم عدت لك مرة أخرى؟ ماذا كان يمكن أن يحدث لي لو لم تكن موجودا بتلك المدينة التي شهدت ميلاد حبنا ومقتله؟

هل من حقي أن أخرجك من عزلتك وأكلمك قليلا؟ أنا اخترت طريقا لا يشبهني ولا يشبهك ومع ذلك سلكته. وأنت بعيد عني تعبر مسلكا آخر. شيء ما فينا ينفلت من بين الأصابع كالماء. الكل ينهض ضدي حتى نفسي كلما تعلق الأمر برؤيتك مع أني لا أجد نفسي إلا معك. منذ مدة لم أرك ولن أتمكن من رؤيتك قريبا. لقد اطلعت على الحوار الذي أجرته معك جريدة تشرين بمناسبة صدور روايتك الأخيرة ببيروت. كان رائعا ولكنك كنت حزينا جدا. فهل من الممكن أن تؤمن نسخة من الرواية للإطلاع عليها ثم أعيدها لك.

بدأت بهذا الكلام حتى لا أنسى طلبي لك. أريد أن أقرأ ما تكتب لأني أشعر باستمرار أني المعنية دائماً بشخصيتك النسوية المركزية وأنك تكذب على نفسك إذ تظن أنك تخلصت مني. يبدو أني أسكنك مثلما تفعل بي. الفارق بيني وبينك أنك تعيش حياتك حرا وأعيشها داخل جملة كل حروفها وكلماتها غير صحيحة.

كل شيء مر بسرعة.

لم أكن أعلم أنك تحتلني بكل هذه القوة.

لأول مرة تأتيني وأنا على أهبة الانتحار. لم أعد قادرة على الكذب على نفسي. طوال هذا الزمن لم أكن إلا مع رجل واحد هو أنت. أشرب بك. أنام بك. أدخل الفراش مع زوجي وأنت معي. ولا شيء غير ذلك. والآن أشهد أني صرت مريضة بك. سيغنّي قتلة الروح مني كثيرا: مجرد فاجرة؟ تركت فراش العفة وذهبت نحو فراش الدعارة؟ مساكين لا يدرون أن أكبر دعارة نمارسها هي عندما ننام مع إنسان ونحن نفكر في غيره. فأنا لست عفيفة إلا وأنا معك وبين ذراعيك.

الظلام شديد والجو بارد ونسمات ندية تلفح وجهي. قلت لي أنك ستأتي الليلة مثل المجنون. منذ زمن بعيد لم أرك. العاشرة والنصف ليلا عند مدخل البناية العالية التي تقرف صفرتها. وقفت أنتظرك. كنت متأكدة أنك ستأتي ولن تتخلف ثانية واحدة. العتمة تملأ الحي. لا أحد في الخارج. السكان نيام في أقفاصهم الحجرية. بعد حين ستأتي سيارة تخترق الصمت الجاثم. أنت. كيف سألقاك أنا التي قمعت حبي وأسكنته صدري حتى لا آذيك وأحرقك معي. رأيت نور السيارة لا أحد غيرك في مثل هذا الوقت. رأيتك تنزل، ترفع رأسك قليلا ثم تنحني قليلا لدفع ثمن التاكسي، تتمتم ثم تحييه وتغادره. أنتَ مثلما أشتهي رؤيتك دائما، بمعطفك الخشن الذي يشبه معطف والدك الذي كان يرتديه يوم اعتقاله قبل أن يغتال تحت التعذيب. لا أحد غيرك. لا يوجد مجنون يأتي في عمق هذا الليل لرؤية معشوقته. قصدت الباب مسرعة. فتحته وسبقته فتبعتني أنت. كنت ورائي تعبر الأدراج باستقامة وهدوء وكأن كل الأمور عادية. البيت هادئ والغرفة مظلمة. أشعلت نورا باهتا خفيفا. التفت نحوك مبتسمة. خرجت مني هذه الجملة التي لا أعرف ما إذا كان لها معنى: أخيرا جئت؟ كم مر من زمن لم نر بعضنا؟ كنت سأنتحر بالفعل لو لم تأت. قلت هذا لسيليفيا. أريد أن أراه أو سيضطر إلى حملي في ضميره طوال عمره. لم أعد قادرة على تحمل هذا البؤس. رأيت وميضا في عينيك هو نفسه الذي كان يملأني. نظرات حالمة وأيد عاشقة. لم أصدق نفسي. أهو الرجل نفسه الذي استدرجتني الحماقة لافتقاده في منتصف الطريق؟

تسمرت في مكاني. لم أفهم نفسي جيدا، كنت جد مرتبكة كمراهقة. سحبتني من ذراعي وأجلستني قبالتك. وقتها تأكدت أنك هنا. وأني كنت بين يديك. أخيرا التقينا بعد أن أكلتنا متاهات الدنيا. تذكرت كلماتك. مازالت تطن في رأسي كطبول الحرب: لا شيء في الدنيا يمنع قلبين من أن يتعانقا في الدنيا. في الأفق دائماً شيء

آخر. تعاتبنا ثم التفتنا في اللحظة نفسها إلى الساعة الحائطية وكأنك كنت تعرف تفاصيل البيت، زاوية زاوية. الوقت قصير ومن العبث تضييع هذا الحب في الانكسارات الداخلية. الجروح كانت كبيرة وغائرة. بعض الجروح من الأفضل تركها نائمة مثل البراكين. بحنان دافئ كانت يداك تتحسسان وجهي. ياه؟ كم اشتقت إلى هاتين اليدين؟ هل تفعل الغربة كل هذا في الإنسان؟ لم أكن مستعدة أن أفتح جرحي أمامك. هذه الليلة أريد فقط أن أشبع من وجهك بالطريقة التي أشتهيها. استحلنا إلى عصفورين متعانقين. انتابتنا رعشة الحنين. تاريخ من الشوق المستبد. شلال من النور. كنت كل شيء. لو قلت لي في تلك الليلة طلقي جعفر وتنصلي عن كل شيء لما توانيت لحظة واحدة. النور الخافت يعمق من حالة الصمت هذه. العاشقان عادة لايتكلمان. يلتهب شوق الرغبة فينا. شهرزاد تدخل مسامات الجلد وتفك قيدي. سنوات الألم تتضاءل. اللعنة على سماسرة الغش الذين لاشغل لهم إلا الغير. اللعنة على الأزمنة المغشوشة. اللعنة على العشيرة. الآن لن أتوان على الرحيل نحو أجمل مدن الخيال. سأقتحم بصحبتك أرض الهزائم وأذلها. ياه كم اشتقت إليك. وكم أفتقدك.

أنت الآن أودع من طفل. تقف بالقرب من الباب. لم تمس جسدي. تقبلني. تتمتم. أخشى أن أموت من فرط السعادة لو لمست هذا الجسد الذي تعذب كثيرا وصار باردا كجثة. أمامنا الدنيا ومتسع من الفرح. اليوم أستطيع أن أقول أني وجدتك. وهذا هو المهم. عندما خرجت شعرت بسعادة كبيرة وحزن عميق ووحشة. أمام المرآة كنت أتحسس عنقي والقبلات الطويلة التي تمنيت أن لاتتوقف وأن تنزل نحو هذا الحلمة المتعطشة ونحو بقية الجسد كما كنت تفعل قبل هذا الزمن. أحاول أن أتأكد أن ما حدث لم يكن حلما. كان حقيقة ولو كانت محدودة. إنها ذاكرتي المعطوبة. ما الفائدة الآن كم تمنيت أن ألحق بك وأصرخ: ابق قليلا. بت هنا ولا تذهب. جعفر سافر إلى البلد ولن يعود إلا بعد أسبوع؟ مستعدة أن أمارس

معك كل الخيانات الصغيرة والكبيرة بدون أدنى تردد. امنحني فقط فرصة البقاء معي. ثم أية خيانة نمارسها عندما نكون مع الإنسان الذي نحبه بالفعل ولم تزدنا سنوات العزلة والبعد إلا اقترابا منه. لكن الأشياء لم تكن بيدي. كان صوت محرك سيارة الأجرة التي تلفنت لها، قد سرقك مني. عندما فتحت عيني المتعبتين، رأيت السيارة وهي تعبر المنعطفات الضيقة داخل هذه المدينة.

كم تمنيت أن أنساك دفعة واحدة ولكنك لم تمنحني أية فرصة لفعل ذلك. حبك لي يزيدني اشتعالا أكثر من ذي قبل. الآن تأكدت أن موضعي في قلبك لم يتغير كثيرا وأنه سيكون بإمكاننا أن نتوغل أكثر في مدارات «طوق الياسمين» المسكرة وأن أرى أمي مرة أخرى تخرج من عمق الماء.
دمت لي أبدا.

العاشرة والنصف ليلا. حبيبتك التي تتمنى أن لا تحبك ولكنها جنت بك.

4

ـ الجزائر في القلب ويجب أن نسمع صوتها من خلالك. صدور روايتك فرصة جيدة لذلك، أرجوك أن لا تضيعها علينا جميعا.

قالها صديقي الكاتب سعيد حورانية وهو يغلق الباب وراءه بعد سهرة الخميس التي كنا نقضيها عندنا بالبيت مع بعض الأصدقاء العرب.

ـ وماذا أقول يا سعيد؟

ـ حبيبي، بلاش تواضع زائف؟ يا الله خلصني من هيك حكي. شفتك بندوة كافكا. كرر بس الكلام اللي قلت عنه.

كان يقصد الندوة التي دعاني إليها صديقي الطيب عبد الرحمن الحلبي بالمركز الثقافي العربي. كان سواد كافكا يملأني في ذلك الزمن واندهشت أن اللقاء لم يركز إلا على علاقته بالصهيونية. شاركت من أجل ماسة قبل أن تنزل إلى بيروت وتستشهد هناك وهي توزع جريدة المعركة. أصرت علي كثيرا كثيرا. كانت معي في الفكرة وهي تردد: كافكا رعشة وكلمات هشة كالنور، ونص جريح وغير مكتمل ومبتور وعندما نلمسه علينا أن نحس بآلامه.

- C'est ça aussi Kafka. C'est l'imparfait par excellence. Ce n'est point un taureau qu'on doit tenir par les cornes, mais plutôt une fragilité à prendre avec beaucoup de précaution sinon on risque d'abîmer tout, même notre vision.[17]

(17) ـ كافكا هو هذا كذلك. الهشاشة المطلقة. ليس ثورا علينا امتطاءه من قرنيه ←

ـ اختزال البشر مؤذ.

سعيد كان كتلة من النشاط والسخرية المرة. قصر قامته كان يسمح له بالتواجد في كل الأمكنة. اتفقنا على موعد لزيارته في المركز السوفياتي الذي كان يتعاون معه. بعد يومين تحول اللقاء الحلبي إلى ثالث وعد أقطعه على نفسي، بعد عبد الرحمن الحلبي والشاعر أحمد دحبور للمساهمة في تنشيط أمسية جزائرية باتحاد الكتاب الفلسطينيين، بالقرب من شارع الأزبكية.

سارت الأمور بسرعة عندما وجدتني أقف وجها لوجه أمام مدير المركز الذي برمجني لأمسية أدبية واتفقنا على التاريخ الذي نشر في البرنامج الشهري.

كنت متأخرا عن الموعد بخمس دقائق. المرض يرهقني. يبدو أن الذي يحب بصدق كالذي يكتب، يزداد هشاشة كلما ازداد تعمقا في الأشياء وكلما وقع سجينا للذاكرة.

سباب الدنيا بنت الكلب: كل واحد وزهره. اللي ربي اعطاه، اعطاه واللي صكته، الدنيا صكته. الله غالب، هذه هو المكتوب. كنت بحاجة إلى هذا البراندي، أو المازوت كما يسميه صديقي جاكي، حتى أستطيع أن أكتب شيئاً وأتحمل قوة الألم. رخيص ومخدر.

كنت سعيدا على الأقل أن سهام التي كانت يائسة بدأت تمتثل إلى الشفاء بعد الأشعة الكيمياوية وهي تنتظر فقط الإنتهاء من الجلسات المخصصة لذلك وتأتي لمناقشة رسالتها وأن كتاب «Love story» قد وصلها بالبريد المسجل وأنها قرأته بسرعة. على الأقل حتى تنسى قليلا مشقة مرضها وبحثها وابن عربي ودهاليز الصوفية. عاتبتني أني لم أراسلها طوال هذه المدة ولكن أنا كذلك كنت مريضا. يبدو أن الوحيد الذي سيموت على هذه الأرض بدون أن

← ولكنه إنسان رهيف يحسن التعامل معه بلطف وحذر وإلا سنعرض كل شيء للتلف بما في ذلك نظرتنا الخاصة.

يسأل عنه أحد، هو أنا، أنا ولا أحد غيري. جسدي كله صار مريضا. وبدأت بالفعل أتحول إلى مخبر للأمراض. من الجدري الذي أكل وجهي في الطفولة إلى القرحة التي لم تبق الكثير من معدتي. إلى التهاب الأمعاء ثم إلى الرئة بسبب التدخين والهم ومنذ أسبوع أصبت بمرض أقعدني فذهبت للطبيب مع الأخ عبد العزيز وأمرني بضرورة إجراء التحاليل للبول والبراز. ودلت التحاليل على وجود خمسة أنواع من الديدان البطنية التي يجب التخلص منها. خمسة أنواع مدمرة وكأني كنت في حاجة إلى كل هذه الترسانة؟ الجسد هش ونوع واحد من هذه الديدان قادر على الفتك بجسدي. وأخيرا هذا السعال الملعون الذي لا أعرف له مصدرا والذي بدأ يتحول إلى مرض مزمن. هناك بعض البلاوي المزمنة، نتعود عليها مع الزمن، لكن الكحة؟ اللي صابو ربي في العمق، يسلطها عليه.

ذهبت كالعادة إلى مطعم أبو عيسى لأتناول الغذاء وأستريح قليلا ولكن السعال اشتد كثيرا علي فوجدت نفسي عاجزا عن فعل أي شيء حتى الأكل. رجعت إلى البيت وحاولت أن أستريح قليلا ولكن بدون جدوى حيث اشتد علي السعال أكثر وأخذت أذناي وأسناني وحنجرتي تؤلمني كثيرا. قضيت الليل كله على هذه الحال، أنهض وأتمدد عبثا، بدون جدوى.

من أوراق عيد عشاب

مع ذلك علي أن أصل مع وصول الجمهور على الأقل.

بسرعة قطعت المعبر المؤدي إلى المركز الثقافي السوفياتي.

كانت أوراق أشجار الأرصفة العملاقة التي قاومت الحر ورياح السموم، تتصاعد عاليا. لم يكن اليوم مدهشا. ولم يكن الخريف يبعث على الراحة. فقد كان يسحب وراءه الأوراق الصفراء ويجرد العمر من الروح والنسغ ويضعنا أمام أنفسنا حفاة عراة.

جسدي كان يتعرى.

أوف. الحمد لله. كان بهو المركز غاصا بالجمهور. استقبلني المدير بحفاوة، شاب لطيف وعربيته متقنة وأنيقة، يتكلمها بشكل شبه آلي كالذي يرسم شيئاً بزوايا حادة وواضحة.

ـ سعداء باستقبالك.

ـ يا زلمه خضيتنا، خفنا أن تكون قد نسيت.

قال سعيد حورانية وهو يسحبني نحو قاعة الاستقبال.

ربما كان للصدفة الشيء الكثير في هذا التشريف الجميل. كنت سعيدا أن أجد فرصة لتقاسم أشواقي مع جمهور المركز المعروف بجديته وصرامته ووعيه الكبير.

قدم سعيد حوراني ملخصا عن الرواية وبعض الملاحظات النقدية ثم طلب مني أن أتحدث قليلا عن ظروف كتابتها لدفع الجمهور إلى القراءة وإشراكه في النقاش. لم يكن الحضور مهما بالنسبة لي. كانت عينايا معلقتين على البوابة الواسعة لمدخل الصالة. كنت أنتظر مريم، فرأيت جعفر يدخل مع شلته ويحتلون الأماكن الأولى. انتابتني حالة من الحزن والضيق لأني أدركت لحظتها أنكِ لن تأتي.

لا أتذكر من المحاورة إلا مداخلة شابة في مقتبل العمر وهي تسألني برغبة الوصول إلى شيء آخر غير ما كنت أقولها لها حول الأدبية والكتابة والسياسة.

ـ الرواية رواية حب. شخصيتها المركزية امرأة. واحد من إثنين، أما أنها امرأة حقيقية تركت فجوة كبيرة فيكم وإما أنها امرأة مصاغة من حياة قريبة منكم. في كل الأحوال لا يمكن أن يكون فعل الكتابة ههنا فعلاً خياليا.

الكاتب العربي صار محترفا في تحريف الإجابات. فهو يقودها لتقول غير الحب وغير المرأة. يهرب خارج نفسه باتجاه الرمز ليعطي لكذبه كل الشرعيات الممكنة. فتصبح المرأة هي الوطن أو

القضية وكأن المرأة لا يمكن أن تكون المرأة التي نصادفها يوميا في الشوارع أو في البيت أو تملأ حياتنا وأسرتنا حبا وحنانا.

لم تكن الشابة تنتظر مني شيئاً آخر غير أن أحادثها ببساطة. البساطة أحيانا مرهقة ومخيفة.

لحظتها دخلتِ وجلستِ في الأخير، في الزاوية الأكثر ظلاما ولكني كنت أراك بلباسك البنفسجي الذي عمقت خطوطه الأضواء الخافتة. لا أدري إذا كان وجودك قد شجعني على القول أو أربكني؟ الأكيد أنه منحني فرصة لأن أجدك ثانية داخل الأبجدية وحصر مساحات الكذبات الصغيرة التي يمارسها الكتاب عادة.

ـ المسألة ليست بسيطة ولكنها كذلك ليست معقدة. أهناك شيء أكبر من الحب ومع ذلك نبذل كل شيء لإخفائه؟ مثل جميع البشر أكتب من انكساراتي وأشواقي. أنا أكتب عن امرأة في ومني. قد تكون موجودة لكن المهم هو وقعها في داخلي. ما هي التحولات التي تجعل منها قيمة أدبية وإنسانية. لا أدري إذا كنت قد تخلصت من ملامحها الموضوعية ولا أعلم أصلا إذا ما كان هذا التخلص يشغلني. عندما ننكسر، الشيء الوحيد الذي يجعلنا نجبر الكسور هو الكتابة. الكتابة وحدها تمنحنا هذه الفرصة بدون أن يطلب منا أي شخص ورقة الضمان الإجتماعي لتبرير طبيعة المرض والدواء. نكتب لأننا في حاجة للنسيان أو لمزيد من الألم موجهين نداء استغاثة ولا يهم إذا سُمعنا أم لم نُسمع.

ـ وربما العكس هو الصحيح. نكتب لأننا نرفض أن نشفى من الآخر ونرفض كذلك أن ننسى. الحب دائماً هكذا. أكبر معاند في الدنيا. لا يستسلم إلا لرغباته وشهواته.

ردت الشابة وهي تنتظر جوابا ظل ملتصقا بحلقي، لم أستطع النطق به لسبب لم أعرفه.

ـ نعم نكتب لأننا نريد من الجرح أن يظل حيا ومفتوحا. نكتب لأن الكائن الذي نحب ترك العتبة وخرج ونحن لم نقل له بعد ما كنا

نشتهي قوله. نكتب بكل بساطة لأننا لا نعرف كيف نكره الآخرين وربما لأننا لا نعرف أن نقول شيئاً آخر.

من حين لآخر كنت أرمقك وأنت تهزين رأسك وتحلمين بالصراخ عاليا: لا امرأة أخرى غيري وسط هذا الخراب. امرأة تعطي الحياة للأبجديات والحروف وتقبل أن تموت.

عندما قمت من مكاني، كرسيك كان فارغا. بحثت عنك بعيني، في كل الجهات، لا أثر لوجودك. بدا لي في لحظة من اللحظات أني رأيتك تعبرين بهو المركز ولكني لم أكن متأكدا. في الأخير استسلمت لأسئلة الحاضرين والأصدقاء ونحن في صالة الاستقبال مع المدير. منذ هذه اللحظة بدأت أمثل كأي مثقف عربي نموذجي، لأن رغبتي الكبيرة كانت رمي كل الأوراق التي كانت بين يدي والركض وراءك بجنون في شوارع المدينة وأخذك أمام الملأ والصراخ بكل قوة:

يا مريا!!!!!!!!ممممم،استنيييييي، أمووووووووت فيك.

لكني كنت عاجزا ومقعدا وغارقا في الثرثرة بينما كنتِ تعبرين الشوارع الخلفية حتى لا يراك أحد وتسبقين الكل إلى البيت، جعفر وشلته التي لا تتركه أبدا.

عندما خرجتُ من المركز، كانت أضواء الشوارع تشبه ورق الخريف، صفراء أو بيضاء، ميالة نحو الألوان الترابية. بدأت الممرات والمعابر الرئيسية تخلو شيئاً فشيئا إلا من بياعي الفلافل والفول وعصير البرتقال والذين كانوا يخرجون من العرض الليلي لسينما السفراء والمسرح الصغير المحاذي لها أو زبائن مطعم الريِّس والبوكمال المعروفين.

وأنا أتدحرج، جملة واحدة ظلت تشغلني وتطن في رأسي.

«نكتب لأننا نرفض أن نشفى من الآخر. الحب دائماً هكذا. أكبر معاند في الدنيا. لا يستسلم إلا لرغباته وشهواته.»

تلك المرأة التي لم أسألها عن اسمها وعنوانها وهاتفها، كانت

تقولني. يبدو لي أني كنت أتحاشى خزراتها وأنا في صالون الاستقبال أشرب كأس الشاي وأقضم كالفأر حبات الكاتو التي ضيفنا بها مدير المركز. لا أدري لماذا خفت من خزراتها التي كانت تربكني؟ ربما لأني شعرت في لحظة من اللحظات أنها كشفت كل أسراري واقتحمت مخابئي التي كنت أتحصن بها كأي جندي لا ثقة له في السلاح الذي كان يحمله.

كانت رياح الخريف قوية. مليئة بالأوراق وغبار قاسيون وبأس المشاة المرهقين والأشجار العارية.

عبرت السبع بحرات ثم البنك المركزي قبل أن ألقي بنفسي في شارع بغداد الذي كان يمتد طويلا كالثعبان.

لم تكن لدي أية رغبة للعودة إلى البيت. فكرت في الهجوم على بيت سعيد حورانية الذي كان وجهه في ذلك اليوم صافيا، مليئا بالنور مثل وجه مريم ولكن الوقت بدا لي متأخرا جداً وكنت في حاجة ماسة إلى فضاء يتجاوز حدود بيوت الأصدقاء.

5

حبيبي:

نسيت أن أقول لك إنك في المرة الماضية كنت رائعا وكنت حبيبتك الحزينة. أعذرني، خرجت من المركز الثقافي السوفياتي لأني لم أكن قادرة على تحمل ما كان يحصل لك ولي وخفت أن أفقد صوابي وتعقلي وأتهاوى بين يديك.

ربما كان خروجي المبكر أفضل لنا جميعا.

الفسحة التي أُعطيت لنا للنسيان، زادت من اشتعالاتنا. أنت على الأقل لك الحروف والجمل تقاسمها حزنك وأنا لا شيء لي إلا الصمت والتفكير بشكل دائم فيك. أكبر مشكلة في الصمت أنه صديق أخرس وأناني، يسمع ولا يجيب.

حبيبي الغالي.

أنا ضائعة وفي حاجة لصوتك ولصرخاتي المكتومة. أريد أن أصرخ لكن شيئاً ما لا يسعفني. أبحث عبثاً عن وجهك وسط هذا الخواء الذي يزداد كل يوم اتساعا. هل تعلم حبيبي أن في داخلي تنبت العواصف المدمرة وكل يوم يزداد الطوفان الذي يأكل الأخضر واليابس عمقا وانجرافا؟ أتساءل والإجابات تظل كالعادة معلقة في الفراغات التي لا تنبت إلا مزيدا من الخوف والهوات التي لا قرار لها: ياه، ماذا تفعل الآن في خلوتك؟ من يأتيك بكأس الماء إذا تعبت أو علتك الحمى التي نادرا ما تمسك ولكنها عندما تأتيك تقعدك عن

الحركة؟ كم أحلم أن أنساك نهائيا ولكن الغريب، كلما وليت وجهي شطر البحر هاجمتني بحبك. هل يمكن للعواطف أن تؤجج كل هذه الحرائق؟ مشتاقة إلى أخبارك. إلى دفئك. إلى أحاسيسك الرقيقة إليك بطولك وعرضك. هذه الأيام كنت متوترة جداً ولهذا لم أكتب لك. لم أستطع مسك القلم. ولا كسر هذا الطوق الذي يكبلني. طوق الحمامة المقموعة كما كنت تقول في أعماقك وأنت تتأمل بيتي الذي يسبح في الفوضى. كلما رأيتك أو سمعت أخبارك أخذتني الرجفة. كيف تسمي تصرفي هذا نحوك غير الحب فأنا لم أعد قادرة على إيجاد الأسماء. شيء من الخوف يدفعني نحو الصمت والابتعاد عنك والهرب من هذه المدينة بدون الالتفات ورائي، لكن هاجسا آخر غير عقلي يدفعني نحو البقاء لأراك ولو من بعيد. تصور إلى أي حد وصل بي الخوف. تمنيت أن أكتب لك شيئاً آخر غير هذا الكلام ولكني لم أستطع. كم صرت أشتاق إليك. كلما لامست كلماتك ارتعش قلبي. انتظرت انقضاء الجمعة بصعوبة. رسمت للغد أحلاما. وفجأة يكبلني الخوف القاتل. قد لا يكون وهما. لم أكذب عليك. صارحتك بكل ما يأكل قلبي. في المرة الماضية، أراني عيد عشاب وسيلفيا بيتك ثم هربا. وقفت طويلا في حي سوق ساروجا وعندما رأيتك من بعيد ارتعدت كالعصفورة ثم انصرفت لأن جملة سخيفة عبرت رأسي في تلك اللحظة: هل يليق بامرأة متزوجة مثلي أن تقوم بذلك؟ مازلت في حاجة لأن أتعلم كيف أنتصر على حماقات النفس المستكينة لأوهامها. ندمت ذلك اليوم أني لم أكلمك وتركتك داخل تساؤلات الخوف. في أعماقي كنت أريدك أن تحس كرجل أن العشق بالنسبة المرأة ليس لعبة؟ ليس هينا عليها أن ترتبط بشخص وهي متزوجة.

قلت لي اكتبي لي. أريد أن أسمع صوتك الداخلي لا الواجهات الكاذبة وإذا تيقنت أنك نسيتني، سأتركك، بل سأهجر هذه المدينة حفاظا على سعادتك. وها أنا ذي أكتب لك وأنا في كامل جنوني، أدفع ثمن الحماقة التي تنافسنا في ارتكابها. أحبك وأنا حزينة لدرجة الموت. اليوم الذي يذهب لن يعود أبدا. ضيقة هي المراكب

ياصديقي ضيقة هي حياتنا ضيق شوقنا وحبنا رغم كبره. جميل ماكتبته في المرة الماضية، إنه يملأني. أنت تقتلني بكلماتك وأشواقك وأحزانك. أتدري أن نفس الفكرة راودتني وأنا أقرأك؟ قلت في ذلك الصباح لماذا لا أكتب له باسمه؟ لماذا لا ألفظه بشفتي؟ لماذا لا ألفظه بشفتي؟ نخبئ أسماءنا لتفادي الحماقات القاتلة. خوفا من أن تسقط الرسائل بين يدي جعفر أو زمرته وجدنا فكرة عدم تسميتها لإيجاد مبررات الدفاع عن كذبنا وشقاوتنا. أقول في خاطري: أحبه وأريده وطز في البقية. راح يصير إيه يعني؟ يقتلونني؟ فقد فعلوها قبل هذا التاريخ بل فعلتها في نفسي بنفسي عندما انتحرت. وإلا كيف أسمي هذه الحالة؟ هذا الخوف من ذكر اسم أعز إنسان في حياتي؟ كنت أنت السابق بذكر اسمي: إلى حبيبتي... م... ر... ي... م... أنت دائماً تباغتني في الأماكن التي لا أنتظرك فيها إلا قليلا. أليس كذلك يا حبيبي؟

بالصدفة اشتريت جريدة تشرين، هذا الأسبوع فوجئت بمقالك حول الذاكرة الشعبية. ظننت أنك توقفت عن الكتابة. مقال جريء وصريح سيسبب لك أذى كبيرا. أفكارك لا يقبلها المهزومون والموتورون لأنك تمس جبنهم وضعفهم. إذا لم أكتب لك لا تزعل مني. فأنا لن أكون إلا لك. الرجل في بلادنا العربية يستطيع أن يتمتع بحريته كما يشتهي لكن المرأة التي في مثل وضعي، عليها أن توقظ كل مكامن حيلها لتستطيع الوقوف على قدميها والذهاب نحو حبيبها على رؤوس أصابعها حتى لا توقظ حساسية المأزومين.

اعتبرني اليوم صديقة لا تريد منك الشيء الكثير سوى أن تستمع إلى ذعرها الداخلي وتتشبث بك لأنك مآلها الأخير.

امرأتك التي تحبك ولا تتمنى شيئاً آخر سوى سعادتك.

6

البرد، البرد دائماً وأنت تقتحمين الذاكرة بعنف شديد. عشرون سنة مرت على غيابك أنت وسارة، ما تزال اللحظات الأولى هي هي، في قمة اشتعالها. لا شيء فيها تغير. أراك، وإذ تأتين لا شيء يقف في طريقك. حزين وماذا يستطيع الحزن فعله أمام اليأس. ينتابني الإحساس أحيانا أني مررت بالضبط بجانب الحياة. حاذيتها بدون أن أتمكن من لمسها ككل الخاسرين.

القدر كان متضامنا مع كل حماقة كنا نرتكبها.

من *فيلا الإطفائية*، كان الانتقال نحو البرامكة ثم الجامعة أسهل. اليوم علي أن أستيقظ باكرا وأقطع ممرات حي سوق ساروجا القديمة وأجري كعادتي نحو المتحف، من هناك أركب حافلة أوتوستراد المزة للذهاب إلى الجامعة.

الحلم الذي رأيته الليلة لم يسهل مهمتي. فقد تأخرت وأنا أقلب وضعيتي الخاصة رأسا على عقب. ماذا يعني أن يلتصق رجل بامرأة اختارت حياة أخرى؟ أليس من الأجدى تركها تعيش تجربتها كما تشتهي؟ وأنا أركض نحو باصات الجامعة لم يكن شيء في رأسي إلا وجهك النيلي الذي رأيته في الحلم وابتسامتك الزرقاء وصوت المرأة التي عندما ولدت لم تر إلا الشوارع والعراء، إديث-بياف وهي تغني آلامها وأشواقها الدفينة. لا أدري كيف اتجهت نحو البريد مع أنه لم يكن في برنامجي. دخلت ثم خرجت بدون أن أفتح الصندوق كالعادة.

كان رأسي فارغا من كل شيء، حتى الحلم نسيته. رأيتك بجانبي، معلقة على ذراعي مثل سلة زهور. لقد صار ذلك الزمن بعيدا. بالصدفة التقينا بجعفر. كان يهم بالدخول إلى البريد هو بدوره. مازحته.

ـ دجيف Djeff؟ هذا الجري ليس طبيعيا. لابد أن يكون من وراء ذلك انتظار شيء خارق. رسالة معشوقة؟

ـ انتاع وجهي. أنتظر رسالة رسمية من وزارة الخارجية. موعود بالملحقية الثقافية ببيروت. لو كان تحكم، مليح.

كانت مريم قد تركت ذراعي:

ـ يا يما واشحال تموتون على السلطة.

ـ شكون ما يحبهاش يا مريم مين تجيك على طبق من ذهب؟ الوالد من وزارة الخارجية يساعدنا قليلا والبقية الأصدقاء هم من يتم المسألة. بلادنا هكذا تسير. في السياسة الذين يحكمون ليسوا هم الأفضل دائماً ولكنهم الأجدر. الناس ليسوا كلهم سيئين ولكن هناك من هم أقدر على التضحية.

ـ بالوطن طبعا.

ـ تبالغين أكثر من اللازم.

ثم بدأت تحكين بانفعال ارتسم واضحا على وجهك.

ـ والله تافهون. اصطياد الفرص. السيارات. البيع والشراء. أكرههم كما لم أكره شيئاً آخر في حياتي. لقد افسدوا كل شيء، حتى الهواء اليومي الذي نستهلكه.

حاول مرة أخرى أن يدغدغك ببعض الكلمات. جعفر لا يعاندك أبداً وأنت تعرفين جيداً نقاط ضعفه.

ـ أنت على حق جزئيا. الذين نعرفهم على الأقل جيدين.

ـ الذين نعرفهم ليسوا أقل انتهازية من غيرهم. المشكلة أن

المرض صار عاما وذات يوم ستسقط البلاد على رؤوسنا جميعا وسيكونون أول من يهرب ويتركها تحترق.

اصفر وجهه كقشرة ليمون يابسة فقدت كل روائحها.

ـ على كل حال أنت وعرة. المسألة تحتاج إلى جلسة أعمق ونحن في بريد مركزي.

مد يده إلي. حاول أن يختم الحديث بلطفه المعتاد ووداعته الثقيلة.

ـ يا الله. نلتقي قريبا ونناقش المسألة بشكل أعمق. نشوفكم بخير. مريم ما تزعفيش بزاف، مش مليح للصحة.

في الطريق إلى البيت، أطلقت عليه رصاصة الرحمة وكان قد اندفن بدوره في عمق البريد المركزي.

ـ شفت كيف تدافع الكلاب عن عظامها.

ـ كنت قاسية عليه. هذه خياراته.

ـ أهلنا يموتون وهم يلعبون بخيرات البلاد. كلاب لا أكثر.

أتساءل اليوم كيف وجدت نفسك في أحضان الكلاب وتلعبين في ساحاتهم؟ أم أن جلودهم تغيرت وصارت خادعة؟ أم أنك صرتِ مثلهم؟

أغمض عيني وأحاول عبثاً أن أنسى كل شيء وأنا أعبر الطريق الفاصل بين البريد المركزي والمتحف.

عاودني الحلم ولكن هذه المرة كان مشوشا بسبب ضجيج الركاب ومحرك الباص القديم والأنفاس الكثيرة.

6

يا الهامل يا مهبول، واش راح تقول لك؟

قضيت صبيحة اليوم كالمجنونة. لا أعرف ماذا أفعل، داخلة خارجة. طالعة نازلة. مهبولة تبحث عن شيء ضاع منها. كل هذا سمح لي على الأقل أن أراك قليلا في الجامعة مرة أخرى. رأيتك قبل يومين تعبر الحديقة أنت وصديقك الكاتب عبد الله أبوهيف وأم رنا ورجل ثالث لم أعرفه، تركضون وسط الجامعة للحصول على قرار المناقشة الذي تأخر في الصدور. وها أنت اليوم أمامي كالتمثال اليوناني، لم أكن أرى في مدرج شفيق جبري إلاك. كنت سعيدة لحالة العمى الجزئي التي كنت مصابة بها. كنت تستعد للدفاع عن رسالتك. تبعت كل حركات عينيك وأنت تقرأ ما كانت تخبئه الوجوه الحاضرة. عندما وصلت إلي وقفت قليلا ثم عدت إلى شأنك وكأنك كنت فقط تريد أن تتأكد من وجودي. رؤية خاطفة أطفأت على الأقل النار التي في القلب. رأيتك تدافع بعد أن نسيت كل المحيط الذي كان يملأ القاعة. استمرت المناقشة أكثر من أربع ساعات. كنت أتمنى أن أمنحك قلبي وجسدي وكل الألوان التي بداخلي لكن جعفر الذي مر مسرعا مع جماعته لم يترك لي الوقت الكافي لتقبيلك. خرجت قبل الانتهاء من الدفاع. قالت لي سيلفيا وعيد عشاب إنك كنت رائعا. عندما غادرت المدرج كنت حزينة جدا. ذهبت إلى البيت وكأني كنت متوجهة إلى مقصلة أو أزج في معتقل مظلم. قضيت اليوم كله

مشغولة بك. وبكلماتك وسحرك الذي يملأني. بكيت بحرقة. وسهرت ليلتها مطولا. لعنت خيبتي وسنواتي والعمر كله والرهانات السخيفة التي لا تعمل الحياة إلا على كسرها. ها أنذي كأية طالبة أتشوق للحظات رؤيتك. أركض وراء الأحلام الصغيرة كأية مراهقة. تارة آتي نحوك وتارة يربكني الخوف. أحيانا أعيب على نفسي نزواتها الطفولية وأقول أليس من حقي أن أحبك على الأقل؟ هل صرت عجوزا إلى هذه الدرجة؟ جعفر يقتلني بصمته وهدوئه ورصانته الزائدة أو بنقاشاته مع أصدقائه. ما يزال في القلب متسع للفرح والحب فلماذا أجبر على أن أوصد كل الأبواب؟ أحبك لدرجة أعتقد أني صرت مجنونة بك، فلا تقل مرة أخرى أنك لم تفهمني، فهذا يؤذيني جداً أنا التي تعمل المستحيل لرؤيتك وتكذب لتكون فقط معك.

تعال أيها الممحون بالهوى وبنات البلدة. لم أستطع نسيانك أيها المهبول. تزوجت لأنساك فصرت مريضة بفقدانك المتكرر ولم يزدني غيابك إلا ضلالة والتصاقا بك.

ماذا يحدث هذه الأيام؟ أصدقاء جعفر يتساءلون عنك كلما مروا على بيتنا: ما الذي جاء به إلى هذه المدينة؟ ألم يكن من المفروض أن يغادرها بعد المناقشة؟ كدت أصرخ: يا أولاد الكلب، إنه هنا من أجلي، ما دخلكم أنتم؟ توقفت الأسئلة في حلقي لقد تعودت على قبحهم أو ربما دُجنت وصرت أشبههم. ظلوا زمنا يدورون ويطحنون كآلات ويلوكون نفس الأسئلة الملتوية والوقحة أبداً علهم يحصلون على ما يشفي غليلهم. ألوذ بالصمت لأني لا أجد ما أواجه به سخافاتهم. في مدينة من خمس ملايين لم يروك إلا أنت وكم يشتهون أن لا يروك. منذ تلك الفرقة لم آخذ منك شيئاً إلا صورتك الحالمة التي خزنتها في ذاكرتي. فكانت ملاذي الأول والأخير.

هل تعلم أني بعدك صرت عارية لا أعتنق إلا كلامك، ألبسه

وأتدفأ به؟ هاأنذي أعطيك كل ما في قلبي. حتى زوجي لم يتح لي فرصة قول ما في داخلي. هو يرفضني ويحتفظ بي كنزا له فقط. حتى الشهوة التي كانت بيننا انكسرت. لم أقبض إلا الريح. كتاباتك فتحت جرحا كبيرا في الذاكرة. صرت أخفيها كمن يتنقل بقنبلة ذرية. أخاف أن أموت وتوجد في جيبي. وماذا سيحدث سوى تحطم أنانيتنا الصغيرة التي نحاول من خلالها إقناع الآخرين أننا على غير ما يتصورون. اتسع الجرح وكبر الألم وفقدت اليوم الرغبة في كل شيء إلا أنت. أتجمل وأتعطر وأخص أنوثتي باهتمام استثنائي من أجلك. أقنع نفسي دائماً بموعد مفاجئ معك حتى أستطيع أن أقف على قدمي.

عندما أراك مع الآخرين أغار عليك. ليس من حقي. تعرف ياحبيبي لو كنت زوجتك لغرت عليك كثيرا من الطالبات اللواتي يحلمن بك. وبما أنني حبيبتك أفهمهن وأقول من حقهن أن يحلمن بك ومن حقك أن تكون مصدر فرحة للأخريات.

يجب أن تحذر من جعفر، ليس بالسهولة التي تتصورها ولا بتلك السذاجة عندما يتعلق الأمر بالأذى. مصالحهم كبيرة وكلهم أبناء مسؤولين ويعطونك الإحساس إن البلاد بدونهم ستسقط. سنتيقظ يوما على هول الفاجعة التي صنعها أسلافهم الذين يبيعون ويشترون وسنمضغ بمرارة خيبة أسلافنا الشهداء. لا أحد من محيط جعفر يحبك حتى ولو فعلوا معك مثلما تفعل المومس مع طريدتها. ينتظرون أن تصبح البلاد بين أنيابهم ويجهزون عليك. علينا. سمعتهم يقولون له:

ـ طلق ربها ولك نساء الدنيا. بدراهمك تشتري ما تشاء.

منعهم من الحديث في هذا الموضوع بحدة. سمعته يقول:

ـ هذه زوجتي ولم آت بها من حديقة الحيوانات؟

ـ نحن لا نريد إلا مصلحتك. قريبا ستعين في بيروت كملحق ثقافي ولن تصير ملك نفسك. سيتقاسمك الوطن معنا.

ـ ومن بعد. مريم. جميلة وبإمكانها أن تكون امرأة عالية. هي زوجتي. أما ذلك التافه ما دام بعيدا، لا يهمني. عندما يقترب سأحرقه وأدمره. على كل عرف قدره، فانسحب بنفسه. لا أقبل من أحد أن يمس حميمياتي.

لأول مرة أرى جعفر صارما في شيء لم يعودني عليه أبدا. ربما كان يدافع عن نفسه وعن منصبه أمام الآخرين أكثر مما كان يدافع عني. هناك مساحة يملكها الآخرون، لا يستطيع حتى أكثر الناس تسامحا أن يتنازل عنها. يمكن أن ينقلب بعدها نحو الجريمة ولا يسأل، بل ستعطيه هذه المساحة كل مبررات الإقدام على الفعل الخطير. جعفر اليوم يحرس كالكلب الأمين هذه المساحة باستماتة.

أرجوك، خذ الأمر بجدية. يغارون منك حتى الموت فلا تمنحهم فرصة قتلك. إذا كان لابد أن تدخل إلى الجزائر، افعل ذلك في أقرب وقت خصوصا وأنك دافعت عن مشروعك في الجامعة وانتهيت منه.

أما أنا... لا تشغل بالك. فسأتدبر أمري لوحدي. أعرفهم جيداً وأعرف نقاط ضعفهم.

حافظ على نفسك من أجلي على الأقل.

أقبلك وأشتهيك وطز في القتلة.

حبيبتك التي لا مناص لها غير الجنون بك.

8

منذ أن كشف لها عيد عشاب وسيلفيا عن مخبئي، صارت مريم تأتيني إلى حي *سوق ساروجا* الذي كنت أظنه مكانا يقع في آخر الدنيا. حتى الأطفال الذين يحبونها كثيرا ما كانوا يسألونني عنها كلما صادفوني في الطريق:

ـ عمو؟ وينا طاطا مريم؟

ـ مسافرة، ما راح تجِي إلا بعد أسبوع.

وبعد أسبوع لا يتوقفون عن الأسئلة. هي دائماً تجد فرصة لتسألهم أو تعطيهم حلوى أو تحك رؤوسهم بكل حنان.

الثلج لم يتوقف منذ يومين ومريم تشتهي أن تأتي في مثل هذه الأوقات. كنت على أحر من الجمر. أتعذب مثل المرأة الحامل بالقرب من الصوبا (المدفأة)، وأنا انتظر شخصا عزيزاً. عندما سمعت الدقات الثلاثة، عرفت أنك أنت ولا أحد غيرك.

ـ مريم، تأخرتِ. تأخرك يعذبني.

ـ لو تعرف المسالك الوعرة التي قطعتها لأصل إليك؟ كان علي انتظار خروج جعفر والتأكد من أن زبانيته الذين يتصيدونني غير موجودين. ماذا أقول لك؟ كالعادة. لا هم تغيروا ولا أنا تعقلت.

كان بطنك قد بدأ يظهر، وفرحتك تكبر مثل الأطفال ولهذا تفاديت حملك بين ذراعي.

غاب صوتانا وسط ضجيج الكلمات وانكسارات القبل التي لم تدر أين تستقر.

ـ الوقت لنا. أريد أن أسمع صوتك حبيبي. اشتقت إليك.

ـ غيابك يعذبني وعجزي أمامك يذبحني.

جلست قبالتي.

ـ هكذا، أريد أن أراك بصفاء.

نزعت المعطف الإيطالي من على ظهرك والقبعة الصوفية البيضاء من على رأسك.

من حين لآخر كنت أرفع رأسي، تواجهني صفيحة الذهب التي نقش عليها اسمك، وهي تتدحرج على صدرك. كان يوما جميلا حين نزلنا إلى السوق الشعبية للصناعات الحرفية. وطلبنا من صديقنا الشاعر العراقي أن يختار أجمل صفيحة ويضع عليها اسمك بإتقان. حين عدنا إلى البيت وضعتها على صدرك. أتذكر أنك تعريت. اقتربت من المرآة ثم وضعتها بين نهديك الممتلئين وأنتِ تضحكين:

ـ أشياؤك الثمينة هذا مكانها، لا يمسها إلا المطهرون.

مددت يدي نحوك. شعرت بدفئك الكبير. لباسك البنفسجي جميل، كانت له رائحة خاصة هي مزيج من عطرك وعرق جسدك، كلما التفت أعادتني نحوه. نحوك. مازلت حتى اللحظة أجهل عشقك لهذا اللون وسر حبي له. في لحظة ما سقطت على هوامش نظرة خاطفة، رأيت غزلانا شاردة في عمق عينيك الملتهبتين وأطياراً جميلة ترقص من شدة الذبح وغابات تحترق وسمعت طلقات بنادق الصيد التي لا تخطئ أبداً طريدتها. أقسم أني سمعت الذي لا يُسمع.

حين أرفع وجهي نحوك من جديد. أفاجأ بعينيك ما تزالان مثبتتين في كمن يبحث عن شيء آخر خارج قسمات الوجه.

لست أدري ماذا كنت تقولين؟

بماذا كنت تشعرين؟

ثم مددت يدك نحوي وسحبت كفي الأيسر ووضعته على بطنك.
ثم بعدها وضعتِ رأسي.

ـ هل تسمع بكاء سارة؟

ـ لا. سمعتها تضحك، لا أدري إذا كانت تعبر عن فرحها أم عن سخريتها من كل ما حدث ويحدث لنا ولها.

ـ هذه المرة كذلك جئتك باختياري ولم آمر عن طريق سيلفيا وعيد عشاب لأني أريد أن تكون هذه اللحظة لنا لوحدنا. سارة تكبر وبعد فترة قصيرة ستكون بيننا. هل تريدها؟

ـ يا مهبولة هذا خيطنا الرفيع وأصدق ما مارسناه طوال حياتنا من حماقات. هي ابنتي. لا يمكن للطب اليوم أن يكذب ولا يمكن لأحاسيسك أن تكون خادعة.

ـ كنت أريد فقط أن أعرف ردة فعلك ليس أكثر. لم آتيك من أجل هذا. جئتك لأني أشعر باختناقات كبيرة داخل هذا البيت الذي وضعني فيه كالدمية. كل الأشياء الجميلة تمر بدون معنى. مروري على البيت السابق في تلك الليلة كان يؤنسني، لكن الآن لا أشعر بأي شيء استثنائي.

ـ مع ذلك، حزنك كبير جدا، هل بك شيء؟ سؤال غبي. هل يمكنني فعل أي شيء؟

ـ حالة انكسار. لا شيء واضح. متعبة وقلقة. كم أشتهي أن ارتاح مرة واحدة من هذا العالم. وحياتك، بدأت أتعب.

ـ إلى هذه الدرجة؟ حصلت على كل ما كنت تريدينه؟

ـ إلا أنت، فقد فشلت في الحصول عليك. كل الأشياء الجميلة موصدة في وجهي. لماذا علي أن أفني العمر في القلق والخديعات الصغيرة، لأراك؟ لقد صرت أشتاق إلى أن أستمع إليك وأنت تتكلم وأرى حركات يديك وأنت تقص علي انشغالاتك وانكساراتك. تسألني كعادتك وأنا لا أعرف إذا كنت ساخرا أو جادا:

ـ هل كتبتِ شيئا؟

وأجيبك بعفوية رغم يقظتي:

ـ لا شيء لأني لست كاتبة. أنت تريد أن تجعل مني ما لسته حقيقة. خربشات الطفولة لا تصنع أدبا ولا أدباء. أشواق وفضفضات ليست للقراءة ولكن لنسيان الهم. صديقك عيد عشاب يكتب لنفسه مذكراته وحبه المستحيل. لا يهمه الآخرون، تهمه نفسه وأحزانها فقط. رأيت كم كتب من ورقة؟ أحسده على صبره. على الإنسان أن يحس بقوة اليأس وغطرسته ليستطيع أن يصيرا شبيها بعيد عشاب.

قلت وأنت تضحك:

ـ طيب، اقتلي على الأقل الشرطي الذي بداخلك بحد الكتابة وشفرة الكلمات.

ـ الشرطي؟ صعب. ألم تقل لي إننا نقضي العمر كله في إقصائه من حدود الذاكرة المتعبة وهو يباغتنا في أكثر اللحظات حميمية؟ ومع ذلك، ما دمت إلى جانبي سأبذل كل جهدي للتنغيص على راحته على الأقل. قلبي مولع بك ولا شيء غيرك وسط هذا الفراغ المهول. تعرف أحيانا أشعر بنفسي داخل لعبة من أكثر الألعاب خطرا، السقوط فيها سيكون قاتلا.

ـ من قال إن الحب سهل. هل هناك حب خارج الجنون والمخاطرة ولعنة المغامرة؟

ـ لا أدري إذا كنت أملك قوتك لمقاومة غيابك الذي يعذبني.

كان رأسي على بطنك.

ـ أما زلت تسمع سارة؟

ـ نامت قليلا.

ـ إذن أستطيع الآن أن أملأ عيني بك. جاية معولة علبك

يامحاينك. أريد أن أشنشفك، أن لا أترك لك فرصة نسياني. أن أشبع منك أبدا. صرت الآن على يقين أن الشيء الوحيد المضمون هو ما بين الأيدي وما تمنحه لنا الحياة في لحظة شاردة.

وبدأتِ تعرينني وكأنك كنتِ تقشرين موزة. ملامس يديك الدافئتين وأصابعك الرقيقة كانت تثير كل مدافني وأشواقي السجينة.

طفلين كنا بكل تعاستنا وأفراحنا. واحد فينا واقع بين التدلي على أعواد المشانق أو على متاعب الحياة المعقدة ويحاول بجهد جهيد أن يقف على قدميه، وآخر يقاوم تفاصيل الحياة اليومية خوفا من السقوط في مدفنة قد تمحو حياته بشكل فجائي.

تمتمتُ وأنت تلثمين شفتي الجافتين:

ـ أخاف أن أؤلمك.

حركتِ شفتيك بانزعاج. تعمق الأخدود الذي ينام على شفتك العليا وتحت أنف نافر نحو أفق غامض.

ـ أريدك، البقية لا تسألني عنها.

بدا لي وقتها أنك تكرهين كل ما يقربك من الأسئلة القاسية. كنت تنصتين إلى قلبك فقط. في داخلك الممزق، كانت تنهار الأسوار الصلبة والصخور البركانية المحفورة وتتشوه الدمى الكبيرة التي كنت تشتهين تزيين سريرك الليلي بها. هكذا أنت، لم تتغيري إلا قليلا. حين تشعرين بالإحراج، تقل كلماتك وكطفل صغير فوجئ يكذب على صديقته، تأكلين أظافر أصابعك. وحين أنبهك، تفتحين عينيك أكثر من اتساعهما العادي ثم تلتفتين نحوي، وتنتظرين نهاية الحديث. اكتفي بصمتي المعتاد. وأحاول أن أكتشفك من جديد من وراء إغفاءة مقصودة. تصفق عيناك كطفل يتيم ثم تنامان على ألوان البلاط والمحيط. أنت هي أنت. لم تتغيري إلا قليلا. لحظة الشوق الحزين الذي يرتسم في عينيك المرهقتين، تحتضنين خديك بين

كفيك وتتكئين على ساقيك وتبدئين الحديث عن حياتك، وعن أحلامك كما لو أنك نزلت في التو على يد قابلة زنجية علمتك خفايا الدنيا قبل عيشها. يقولون في بلدتنا إن كل من تستقبلهم أيادي قابلة زنجية، يولدون ثرثارين وعارفين لمزالق الدنيا التي لا ترحم.

كنت تريدين لباسا بنفسجيا يقترب من لون البحر حين يستقر بعد عاصفة. فضفاضا يساعد اليد على التوغل عميقا في جسدك. كنت فرحة كعصفور بللته الأمطار والثلوج، على الرغم من أنين الأرياح الشتوية الجافة.

كانت الصوبا(المدفأة) قرب السرير. ثيابك مبعثرة في فوضى كما في أيامنا التي صارت اليوم بعيدة. أخذت يدي. شعرت برعشتك. مررتها على صدرك بهدوء. احترقت نيران الغربة في داخلي. كدت أشهق كالطفل باكيا وصارخا: يا ربك، لماذا كل هذا العذاب؟ هل صرنا صاديين إلى هذه الدرجة؟

نهداك كانا منتفخين وأكبر من استدارتهما العادية. هذه المرة تجاوزا حجم الكف. لقد فاضا بين الأصابع، ربما بسبب الحمل. وأنا أتقلب على السرير، رأيت من وراء الزجاج، ألوان البيوتات التي تتسلق الجبل وظلالها. كانت تطل علينا بخجل من وراء النافذة المنداة والمغطاة جزئيا بندف الثلج.

مع ازدياد حرارة الحجرة، شعرت بفخذيك يزدادان اتساعا وتقلصا، وشعرت بالرغبة تتكسر في كل أعضائي النافرة. تسلقت يداي المرتعشتان بطنك المنتفخ. سارة في سابع نومة. لا حركة أبدا.

فجأة وجدتني أحترق على شفتيك المرسومتين بإتقان كجمرة. كحطبة يابسة في محرقة، كنت أئن وأبحث عن بقاياي.

عاريين كنا، كجنينين سقطا للتو من رحم موجوع. صعدتِ على صدري. ذكرتني بكلمة قديمة.

ـ هكذا سنتبادل الأدوار. الرجل عندما يحب امرأته يمنح لها فرصة النوم على صدره.

في خفاء ما، داخل حزن شبقي، وألم الرغبة، حاولنا أن نندغم كحرفين متشابهين، لم تبق بيننا زوايا سوداء نخبئ فيها أسرارنا الصغيرة. وفي لحظة ملتهبة كالقشة احترقنا تحت العرق المالح والأشياء الدقيقة التي تلهب الجسم. كنت حارة. عيناك مغمضتان في عالم يضج بالتناقضات التي لم تحسم في دماغك، بالفرح. باليأس. بأشياء أخرى لم تكن في متناول طفولتنا التي كانت تستيقظ متأخرة. تناهى إلى مسمعي رنين أساورك البسيطة والسلسلة التي في عنقك والخواتم التي تزين أصابعك. حين أسمع هذه الأصوات المتناغمة ازداد رغبة في الاحتراق على صدرك ويصبح جسدي كله في حالة غليان.

تألمت وكنا قد بدأنا نذوب كقطع السكر الساخنة وأنت منغمسة فيَّ، تبحثين داخل صدري عن المرافئ الرومانية التي كانت ههنا واندثرت فجأة.

ـ آي... آي... آي...

ـ هل تشعرين بألم؟

دفنتِ الحلمة عميقا في فمي. رضعتُ. شعرتُ بالحليب يتدفق وبسائل مسكر وحلو يملأ فمي. رقصتْ على وجهك سحابات صغيرة من الخجل.

ـ أنا أمك يا مهبول. أحبك هكذا. أدخلني فيك أكثر. هكذا. أريد أن أحسك بكلك.

وأنت تدخلين عميقا في الجسد وتتوغلين، غيرت النهد الأيمن بالنهد الأيسر. كنت أشرب حليبك ويزداد الدوار في رأسي. شيئاً فشيئا، كنت أسكر بحليبك وبتفاصيل جسدك التي لم تضيع شيئاً من ألقها الكبير.

تمتمتِ وعيناك مغمضتان:

ـ تعرف، سارة، ستكون سيدة بورجوازية. توحمت على البيبسي كولا والتفاح والبنان الذي لا نراه إلا في الصور في بلادنا.

حاولت أن أتطلع إلى جسمك الخمري الجميل. تذكرت سيدي عبد المؤمن بوقبرين الذي أقام صلاته الأولى، في بيدر، على حافة البحر. فقد صبغت سنَّته بشرتكم جميعا.

ـ وين تهرب مني يا يماك. جدي واعر. علمنا أن العشق جنون، إما أن يمارس بنفس القدر من الهبل وإلا لا داعي.

ـ وجدي امتداد لجدك، إذا لم يكن نفس الشخص، بنفس سمات الجرأة والحمق والمغامرة التي لا حد لها.

ـ يا أحمق كم كنت لذيذا.

ـ في جسدك طعم النباتات البرية، الخزامى والمارمان والشيح وبقايا عود النوار.

ـ عود النوار؟ شبعت مني وإلا ما زالت؟

ـ لا يشبع منك إلا من ماتت حواسه.

ـ سأتركك هكذا معلقاً حتى تشتهيني أكثر كلما غبت عنك طويلا.

ـ لستِ في حاجة إلى الغياب الطويل. عند العتبة سأبدأ البحث عنك من جديد.

نهضت عارية بكامل طولك وعنفوان طفولتك التي لم تمت ولم تكبر أبدا. بطنك كان منتفخا. كانت سارة قد بدأت تعلن عن وجودها. لم أقل شيئا. كنت مأخوذا بكل شيء جميل فيك. رأيت في عينيك أشياء صغيرة، تتكسر كالأحجار البركانية وتنبت تحتها الأعشاب والزهور. كالزجاج العتيق. تتفتت حتى تصير حصى ثم ماء. وتصير عيناك بحرا هائجا. وأتحول إلى زورق أبيض يردح في مصبات بردى.

مشطت شعرك. تدلى على صدرك في شكل ضفيرتين. لونجا. ثم وضعت القبعة الروسية البيضاء على رأسك.

شربنا شايا ساخنا ودخنا قليلا. أردت أن أقول لك تفادي الدخان. رئتاك وقلبك؟ لكني خفت أن أهدم هذه اللحظة فسكت.

في الخارج كانت الثلوج في أوجها.

حين هممت بالخروج قبلتني قبلة امتدت في داخلي لتحرق خلايا دمي المتبقية. كان النور يخرج من عينيك لامعا وحيا.

قلتِ وأنت تحيطين رقبتي بضفيرتيك وبمقبضي القبعة الروسية الطويلين.

ـ وين تهرب مني؟ شكرا لك. أعطيتني الإحساس أنني ما زلت حية وما زلت مشتهاة.

ـ أوف. عينك على روحك. أرافقك.

- Non mon amour. Sans problème, je prendrai un taxi c'est plus facile. Dehors, il fait un froid glacial. Prends surtout soin de toi. Les tueurs ne feront de cadeaux ni à toi ni à moi. N'oublie jamais que tu déranges même par ta simple présence.[18]

ـ أنت كذلك حافظي على نفسك.

ـ جئتك لأني أخاف أن لا أراك مرة أخرى. على الأقل أحاول أن أشبع منك بالشكل الذي يعجبنا، وأنا قادرة على الوقوف على رجلي. ينتابني هذا الإحساس الغريب أني لن أعود إلى هذا المكان ثانية. قد أموت بكل بساطة.

ـ أنت مهبولة وخيالك أكثر منك. الولادة صارت اليوم عادية. خوفك لا مبرر له.

---

(18) لا يا روحي. لا يوجد أي مشكل. سآخذ تاكسي أسهل. البرد لا يطاق في الخارج. خذ بالك من نفسك. القتلة لن يرحموك ولن يرحموني. ضع في ذهنك أنك مزعج لهم حتى بوجودك البسيط.

ـ إلا حبك وخوف افتقادك. يقولون إن قبر النافسة يبقى مفتوحا أربعين يوما. يوم واحد منها كاف لأن يسلبنا حقنا في الحياة. هكذا مليح. سأتفرغ الآن لسارة. سأكتب لك مع سيلفيا. وماتنساش هبالي؟

تذهبين، أضع يدي على القلب المتعب خوفا من أن يتخلى عني.

أمسح زجاج النافذة. أراك بلباسك الخشن وبالمانطو الإيطالي القديم وأنت تغوصين بسعادة في كتل الثلج. أشعر بالحنين. تلتفتين. تبتسمين ثم تواصلين برشاقة تثبيت خطواتك رغم متاعب سارة. وأنتظر العودة المحملة بالفرح والعصافير ووجهك الذي لا يأفل. غدا سأراك وأرى النجمة التي كنا نستيقظ فجرا فقط لرؤيتها، ولا أريد أن أعرف البقية.

كانت ثلوج الشتاء قد غطت المدينة وأعالي البنايات والصوامع وأجراس الكنائس.

لوحت لي مرة أخرى بيديك.

رأيت الأطفال وهم يحلقون بك ويصرخون طاطا مريم... طاطا مريم... طاطا مريم... كانوا ينطون كأرانب خرجت للتو من غيرانها. من حين لآخر يرشقونك بالكرات الثلجية الصغيرة بينما طفلة صغيرة تحضر لك الكويرات وتضعها في يدك اليمنى لتلقيها صوبهم. يتراكضون في كل الجهات كالنمل.

في الأخير، انحنيتِ بنفسك ولملمتِ كرة ثلجية ثم فاجأتِ بها الطفل الذي كان بالقرب منك. ظل يقهقه ويركض... يركض... ويصيح: طاطا مريم... هاني... هاني.. التفتُّ نحوي هذه المرة وأنت تبتسمين مثل طفل غمرته سعادة لم يستطع إيقافها ولا السيطرة عليها. بنتُ لك مليئا بشهوة الركض وراءك، حجز قتلة الروح في عيني كل الأشياء الجميلة. سمعت صوتك ونشيدنا المسروق الذي كان يردده وراءك أطفال حي سوق ساروجا. أنتِ التي حفّظته لهم:

يا النو صبي، صبي،
ما تصببيش علي،
حتى يجي خويا حمو
ويغطيني بالزربية.

ثم لملمتِ كرة ثلجية أخرى. وضعت عليها قبلة قبل أن ترسمي عليها قلبا صغيرا، تحت دهشة الأطفال، ثم رميتِ بها نحوي بكل قوة وأنت تضحكين بأعلى صوتك، فانكسرت على النافذة.

كنت ما تزالين حارة مثل الوطن وطفلة تعشق الألبسة الوردية وحرارة الشواطئ التي لا ينتهي امتدادها.

عندما فتحتُ النافذة المغلقة لأراك، كانت السيارة قد سحبتك إلى دفئها ولم تبق إلا كرات الثلج التي كانت تتراقص في الفضاء والأطفال الذين لم يتوقفوا عن اللعب وصرخاتهم وأحلام مريم التي كانت تملأ حي سوق ساروجا الهادئ.

خرجتْ مريم للمرة الأخيرة.

وللمرة الأخيرة أغلقتُ النافذة على كل هذا الشوق المتدفق مثل حليب نهديها المدرار، وانزلقتُ نحو الظلمة والبرد والعزلة وانتظار اليوم الموالي بفارغ الصبر.

ويبدو أننا عندما نحب، لا نسأل كثيرا. نعيش دائماً على اليوم الموالي الذي كثيرا ما يتأخر.

9

أين أنتَ الآن؟

بدأت الآن أعرف لماذا الإنسان عندما يحب، يصير مجنونا وهشا مثل ورقة في مهب رياح الخريف وأمطاره.

أتساءل في حالات وعيي هل يليق بامرأة متزوجة أن تترك كل شيء، كبرياءها وصحتها وبيتها وتضع مصيرها في المزاد وتذهب نحو حبيب هي لا تدري ماذا يوفر لها من استثناءات غير ما يوفره لها زوجها الذي يفعل كل ما بوسعه لتصبح له وله وحده؟ أتساءل، هل يمكن لرجل كائنا من كان أن يملك امرأة؟ من تجربتي التي لايمكنها أن تكون مثالا، أشك كثيرا.

اليوم من أجل أن أراك ترددت كثيرا لا بسبب العيون سوى أن سارة صارت تنغص علي كل خرجاتي. كم أشتهي أن أقول له أن ما في بطني ليس له، هو للرجل الذي يشبه الأمير البريطاني الذي عندما كان يحتفل الناس لاعتلائه سدة الحكم كان هو يحمل حبيبته على حصانه ويطلب أن تفتح له أبواب المدينة ليغادر الناس والمدينة، تاركا وراءه كنوز الدنيا لغيره. شعاره كان، الحياة حظ يعطى مرة واحدة ولهذا أنا اخترت الحياة وكل ما عداها فهو لكم. اختاروا الرجل الذي يناسبكم أما أنا فلا أطلب شيئاً آخر سوى فتح أبواب المدينة للخروج. ولكني أعدل عن رأيي لا جبنا ولكن ضعفا أمام ود جعفر وحبه لي. هو كذلك له قلب ولكني أحيانا لا أستطيع أن أعادي قدري حتى ولو قادني نحو حتفي.

عندما وجدت نفسي في ساحة التاكسيات أدركت كم أنه من الصعب أن تجد مسلكا نحو المدينة. كانت الأمطار تتساقط بقوة. فكرت أن أعود. شعرت بسارة تسعل من شدة البرد والثلج الذي كان قد بدأ يتساقط. ارتديت معطفي الإيطالي الذي يسحرك والذي اخترته لي بنفسك في أحد المحلات الباريسية في «سان ميشال»، عندما كنا عاشقين واللباس البنفسجي الذي اشتريناه من محل بجانب مسرح الحمراء الذي كثيرا ما احتضننا بين حيطانه الواسعة وتعطرت بما كنت تشتهيني به، عطر *Poéme*. كلما تعلق الأمر بك لا أستطيع أن أقاوم. أترك نفسي عرضة أهواء النفس البريئة. اشتدت الأمطار والثلوج، سعدت أني حملت معي مطريتي الخاصة رغم كرهي لها ووضعت قبعتي الروسية البيضاء على رأسي. غزارة الأمطار أثقلت خطواتي. ظللت أتكئ وسارة تبكي بأعلى صوتها الذي لم يكن أحد غيري يسمعه. عقارب الساعة تدور والسيارة تأخرت كثيرا. لم يكن شخص واحد في هذه المحطة سواي. لا بد لمن كان يتأملني من وراء نافذة بيته أن يظنني مجنونة. كان الماء يتزحلق عند رجلي وصار جسمي ثقيلا. زحفت الساعات بدون جدوى. وأنا في طريق العودة إلى البيت توقفت سيارة عند رجلي وجئتك وأنا مصممة أن لا أحدثك عن مغامرتي. كنت أريد أن ألقاك كما تشتهيني أن أكون لك. وعندما تركتك كنت سعيدة أني رأيتك للمرة الأخيرة لكني في الأعماق، عدت منكسرة القلب وأنا أفكر فيك وأنت في الزاوية الأخرى في عزلتك. هذه المرة حبيبتك لن تعود مرة أخرى إلا وسارة في يدها. ستقضي بقية يومك الممطر المثلج لوحدك. كنت أريد أن أضع بين يديك ابني الأول لأقول لك كالمجنونة: كان يمكن أن يولد في حضننا لولا حماقتك التي لا معنى كبير لها. كلما تذكرت حماقتك، حقدت عليك. ألم يكن بإمكانك أن تحافظ علي من التلف؟ لا شيء الآن. أجلس من وراء الشباك وأكتب لك هذه الكلمات بحزن كبير. سعادتي الوحيدة والكبيرة أني رأيتك والتقيت بك حبيبي مرة أخرى. عندما لا أراك أجن. غيابك عني يؤذيني. أنت حاضر في الزمان

والمكان. في الحلم وفي اليقظة. في الهواء الذي أتنفسه. كما قال الحلاج ما تحت الجبة إلا الله. وأنا أقول ما تحت الفستان إلا أنت. أنت وحدك ولا أحد غيرك. هذا الحلول الكلي في زمن الحزن والغياب يقتلني، يمتص نضارتي وكل مقاومتي ويربك أعصابي. لقد زدت اشتعالا بك. حلت بي لعنة ميديا عندما انتحرت ووجهت لعنتها لبنات جنسها.

يا صديقي إننا في هذه البلاد عرضة لكل المحاولات القاسية لإبادة أحلامنا الصغيرة. كل معقد يريدك في النهاية أن تشبهه. أن تصير صورة عاكسة لكل كذبه. أنا لا أستطيع. كذبتي التي أجرها على ظهري منذ سنوات تكفيني. أنت فنان كبير لأنك لا تستطيع أن تخبئ أشواقك. رهافتك تفضحك. وشعريتك تعبق من بعيد. سيبقى صوتك عالقا بذاكرتي عندما يسحبني الموت نحوه. اعتقد أن الصوت الوحيد الذي سأسمعه وهو يناديني هو صوتك يا حبيبي. تصور، لقد كتبت قصيدة فيك. لأول امرأة أكتب شعرا في رجل. أراك الآن تكتم سخريتك المعهودة. يشفع لي قلبي فقد كتبتها برضاه. اسمع..

لم أدر أنك سرقت قيودي من زنزانات العذاب.

لم أدر أنك أطلقت وثاقي من صمت الخراب.

أنقذتني من قهر العزلة وصمت الموت.

لم أدر أنك هوائي عندما تسد المدينة مغالقها.

وفتحت لي كل حدائق الجنة في قلبك. وقلت لي: أحبك.

أحبك؟ ابحث لي عن كلمة تشبهني.

قل أعشقك ليستريح قلبي.

أني أراك تكتم ابتسامة. يا بختك، ما أقل حياءك. أتعرف أيها الساحر مني أنك أول مجنون أكتب له هذه الحماقة في حياتي. لم أفكر يوما واحدا في أن أنظم جملة واحدة لرجل. عادة، الرجال هم من يكتب عن عشيقته ويرويها بالكلمات ويغدق من أبجديته. لم لا

أكون سباقة إلى ارتكاب حماقة الكتابة لرجل نعشقه ولا نطلب منه شيئاً سوى أن يحافظ قليلا على القلب الذي منحناه له بدون تردد ولا مقابل. قلل من سخريتك فلست شاعرة مثل امرأتك الأولى التي تركتها وراءك في وهران تكتب الشعر وتنسج الأغاني. هي تعودت على الكتابة والفرح وأنا وجدت نفسي في حالات البؤس مع رجل اختارني أكثر مما اخترته. سمعت الآن شيئاً أحدث دويا في المطبخ. خفت. ظننت لصا جاءني ولكن في النهاية لا شيء. القطة العمياء التي أصبحت تدهم كل شيء منذ أكثر من أسبوع. يبدو أن حالة العمى زادت عليها. ساعدتها وأعطيتها الأكل وتركتها تنام وعدت لك لأنهي هذه الرسالة.

جئتك متجاوزة كل الخطوط الحمراء ولم أسأل عن المخاطر ولا نصائح الطبيب بالتزام الفراش قدر الإمكان. كنت فقط في حاجة إليك وإلى الثلج والأطفال الذين غسلوا القلب المنهك؟ بدأت أيأس من حالتي المرتبكة. من نفسي. من جسدي الذي بدأ يتعطل كلية. من إمكاناتي العقلية. شكرا أنك منحتني ساعة حب لأني أشعر دائماً بأني لن أراك ثانية وقد أموت أثناء الوضع. لقد صرت هشة. سارة تعذبني ولا تمنحني فرصة واحدة للراحة.

احذر. جعفر يستعد للمكروه. لقد شحنه المأزومون ضدك كما تسميهم. لقد تعودت على سماع حقدهم وأنا في الفراش بين النوم واليقظة. البارحة فقط، عندما كانت سارة تذيقني عذابها، انسحبت نحو فراشي وتركت جعفر معهم غارقين في الكارطة والدومينو والأدخنة الخانقة. أغمضت عيني وتركتني أغرق في تفاصيل ذلك اليوم الأبيض مثل الثلج. بعد ساعة، دخل علي جعفر ليطمئن أني نائمة، وعاد بسرعة نحو المأزومين. سمعتهم يذبحونك من الرقبة ويرمونني بكل الصفات. لم يؤثر فيَّ شيء، فقد كنت بكلي فيك ومعك ومن حين لآخر أنزلق داخل زورق ABDA الذي ركبه جدي عبد المؤمن في ذلك الشتاء البارد من القرن الثالث عشر، ليأتي إلى بيدر ويقيم صلواته الأولى على مشارف البحر. لم يكن جدي يبحث عن

رخاء دنيوي ولا عما يدهش به الآخرين، كان يبحث عن مسالكه المتشعبة، فوجدها بالضبط في الهضبة الصغيرة المطلة على امتداد الساحل المسيردي المتوحش والصافي. قال لمرافقيه، هذا مكاني وأقام صلواته الأولى التي نسي فيها الله وصار يفكر في عظمة البحر.

الله يرحمك يا جدي العظيم، كم كنت طيبا ومتسامحا مع كل الناس. أصدقاؤك التربة والبحر والسماء، وما غيرها زائل فان. الله يرحمك يا جدي وينور عظامك.

كنت سعيدة بشتائمهم لأنها تأتي منهم. لا أحد يسلم من ألسنتهم. الشخص الحاضر معهم هو الأفضل دائماً وعندما يتوارى يصبح هو نفسه أوسخ إنسان.

تعالت أصواتهم الخانقة دفعة واحدة مصحوبة بالأدخنة الكثيرة. كنت بين ذراعيك، في غيبوبة من السعادة.

ـ يجب أن تكون صارما يا دجيف *Djeff*. تراخيك يضيعك منصبك الذي صار اليوم مؤكدا. الحب حق ولكن ليس الإذلال.

ـ هي لم تفعل شيئا.

خفت أن يكون أحدهم قد رآني. سمعت خطوات جعفر وهي تعبر البهو. اقترب مني. استنشق أنفاسي كالكلب ثم رجع نحو جماعته. سمعت تمتمته التي كانت تخرج من جرحه نحوك ومن حقده.

ـ هل رآها أحد منكم تذهب نحوه في غير الأماكن العامة؟

ـ لا. ولكن لا ثقة في المرأة.

عدت إلى صدرك العاري مرة أخرى، أحتمي بك من بطشهم. كانوا يدمدمون.

ـ الأحسن أن تتنبه جيدا. طلقها. تخلص من ظلها. أطردها وادخله السجن فلن تخسر شيئا. أقتله. حطمه كما حطمك. اقلع له قلبه. أقليه.

ـ ولكنه حتى الآن لم يفعل ضدي ما يسيء إلي أو إلى مريم.

ـ يكفي أنه سبقك إلى أحضان مريم.

ـ قصة وانتهت.

ـ هل تعتقد أن المرأة تنسى حضنا منحها الحرية والحب وأخرجها من ظل أختها الذي ظل مهيمنا عليها؟ راك غالط يا السي موح. راك تلعب بالنار يا خو؟

ـ ولكنها زوجتي وهي أم سارة حتى إشعار آخر.

لكنهم في مجلسهم السخيف اجتمعوا واتفقوا بالإجماع على كسرك. أخذتني بعدها الإغفاءة ولم أتعرف على حدود اليقظة وحدود النوم. منذ هذه اللحظة لا أتذكر شيئاً سوى قيامي مذعورة في آخر الليل والدم يسيل مني، بينما كان جعفر يشخر على كنبة الصالة المليئة بروائح السجائر الأجنبية. القرار الرسمي كان كالآتي، صرخ أحدهم: يحاكم محاكمة علنية. يجرد من كل حقوقه المدنية. بينما تجر الجارية إلى القفص. نجهز عليها في الليل. ننشب أنيابنا فيها. يقطع لسانها ويقفل حزام العفة على فرجها. تكلف جماعة من المختصين بمراقبتها وضبطها بالجرم المشهود. نترك الخائنة تحت المجهر، وهي مدانة حتى تثبت براءتها. تمنع مصافحتها. لانكلمها نحن المتزوجين حفاظا على بيوتنا. أما التافه، مطالب بتبرير موقفه أمام كل الناس إمعانا في بهدلته. ويشرح لنا ماذا يقصد بالكتابة التي حولها إلى ملجأ لكل خطاباته الجنسية. الشرف يظل هو الشرف. وأقفل محضر الجلسة بالإدانة الصارمة. الجارية تريد أن تتكلم. عليها أن تخرس نهائيا. الحب. حاشاك من كلمة حب. قومي يا فاتنة، قبلي أرجل الوحش واطلبي صفحه. لم تقل الجارية شيئا. لنر أقوال الشهود. الشاهد الأول: رأيته يقبلها بأم عيني. الشاهد الثاني، ما رأيك أنت صديق العائلة. سيدي الوحش لا ثقة في النساء حتى ولو كانت أمي. لو كنت مكانه لطلقتها. الشاهدة النسائية الوحيدة: بحكم صلتك بالمتهمة هل صحيح ما قيل عنها؟ سيدي

الوحش، كانوا يعيشون في كومونة، في فيلا الإطفائية ويجوزون ما لا يجوز. ما أبشع ما يخفون وما يفعلون. سيرك من الجواري. ملعونة يا سيدي، تحجب زيفهم وحقدهم. الوحش يستفسر مرة أخرى: ماذا صنعت أيتها الجارية. لا شيء يا سيدي أحببت من كل قلبي فقط ويبدو أني أخطأت. يصرخ الوحش: عن أي حب تتحدثين. بئس ما تذكرين. الناس قالوا. الناس يقولون والشريط لن ينتهي أبداً ستدفعين الثمن حتى الموت. أغلق ملف الخائنة والتافه الذي يظن أن الدنيا ملكا له. سيقتل مع تأجيل التنفيذ مؤقتا. طأطأت الطفلة رأسها وخبأت انكساراتها. الرجل الذي تحبه غائب عن الدنيا وبعيد عنها ولا تدري إذا كان يعرف القصة. ليلة واحدة قضتها معه في حياتها ولكنها تساوي العمر كله. في تلك الليلة عندما هاتفها لم تكن تعرف أنه هو كذلك كان مجنونا بها حد التوهان عندما زارته في ذلك اليوم البارد والناصع البياض. تعطرت من أجله. لأول مرة تحس بالذوبان بين أحضان رجل. ياه من أين كان يأتي بكل هذا السحر. تمتمت في غمرة الحب. كيف تعلمت كل هذا الحب؟ من علمك؟ امرأة هي كذلك أحبتك وتتعذب لأجلك؟ لم أنم في أحضان رجل بهذه الطريقة مثلما فعلت معك. أنت نفسك كنت استثنائيا. لأول مرة أغمض عيني وأنا أقبل رجلا. تدفع الثمن اليوم بمزيد من الخوف والذعر. رأت نفسها في الباحة بين يديه كمشة من النور. قال بحنو في أذنها، كان مشتعلا من جراء الكؤوس الأخيرة التي حركت كل مدافن الحب: أعذريني. أحبك حتى الموت. منذ سنوات وأنت في القلب اليوم لم يعد البركان قادرا على التحمل. انفجر. كلما ذكرت كلمة حب، ينهض الوحش من مكانه ويضرب رأسه على الحائط. يا عاهرة. لا يوجد حب، هذه خيانة زوجية. الوحش لا يعرف أنه لا توجد خيانة زوجية توازي تلك التي تمارسها أغلب الزوجات وهن يفكرن في أشخاص آخرين في فراش أزواجهن. عندهن حق. أغلب الرجال دواب يؤنسها الكذب.

لم أفهم الكثير. لا وجود للوحش. كنت وحدي داخل هذا الفراغ

بصحبة الرجل الذي نام وفي يده حجرة الدومينو الأخيرة التي لم يعرف أين يضعها. ولكني شعرت بالحرائق والخوف وأنا أتأمل الدم الذي بدأ يسيل بقوة. كان النزيف قد بدأ. تلفتت بسرعة إلى سيارة أجرة، إليك وسيلفيا التي ما تزال تحت وقع وفاة عيد عشاب الفجائية الذي أكله اليأس أكثر من كأس عرق الريان وإلى المستشفى وخرجت انتظر عند الباب وأنا ألف حوضي بالأقمشة والقطن، بدون أن أوقظ الدابة التي كانت تشخر وسط الأدخنة والكوابيس المخيفة.

لو انتظرت أكثر كنت مت في اللحظة نفسها.

ليكن، وجهك كان يملأني ويعطيني مزيدا من المقاومة والصبر ولم أكن في حاجة كبيرة إلى الآخرين ولا حتى إلى زوجي.

لك قلبي وجسدي وروحي وكل هبلي.

حبيبتك التي تنتظرك دائما. ما تهبلش بزاف.

10

كان رأسي يشتعل بالخوف والأسئلة.

أبواب مستشفى الرازي نصف مغلقة. لم أجد صعوبة كبيرة في إيجادك. كنت أعرف أن عيادة الدكتور أحمد دهمان كانت تحتضنك وأنه هو الذي نصحك بالتوجه إلى المستشفى الذي يشتغل فيه خارج أوقات العيادة.

سألت أول موظفة صادفتني في طريقي، قالت:

ـ في الطابق الثالث، قسم الولادات. لقد أوقفوا النزيف ويمكن أن تلد في أي وقت. فهي بخير ولكن تحت العناية الفائقة.

صعدت بسرعة بدون أن ألتفت ورائي. لم أنتظر المصعد الذي كان مشغولا بإحدى العربات التي كانت تقل مريضا. لم أفكر كثيرا.

رأيتك. كنتِ مشرقة مثل وردة وكأنك كنت تسخرين من كل ما كان يحيط بك.

ـ وحياتك في البداية ظننت نفسي أني سأموت لكن الظاهر عمر الشقي باقي.

ـ هل زارك أصدقاء؟

ـ حتى الآن لا أحد. من يأتيك في هذا الليل؟ لا أحد يعلم إلا أنت وسيلفيا. ثم أي أصدقاء إذا كان زوجي نفسه ما يزال حتى الآن يشخر في فراشه؟ تركت له ورقة صغيرة، إذا انتبه لها فسيأتي حتما وإلا في ستين داهية.

وقبل أن أحتج، كانت سيلفيا قد دخلت. سيلفيا كعادتها، كانت مذعورة، وجهها أصفر وصلب مثل ليمونة جافة.

- إن شاء الله خيراً حبيبتي. شو صار.

- لا شيء. دلع سارة. الأيام الأخيرة صعبة جدا. هكذا أكد لي الدكتور أحمد. نصحني بعدم الحركة لكني مهبولة. دائماً أركب رأسي وأخرج حتى في الأيام الممطرة والمثلجة.

ثم نظرتِ إلي. فهمتُ. لم تكوني بحاجة إلى الشرح.

سألتك عن جعفر. لم أجرؤ على فعل ذلك قبلها.

- يشخر في فراشه.

- أخبرته؟

- سكران ومتعب من كثرة الكارطا والدومينو. لم أشعر بالحاجة إلى فعل ذلك. تركتُ له ورقة. لو انتظرت يقظته، كنت الآن في عداد الأموات.

- المفروض أن تخبريه بالهاتف مثلا. من حقه أن يعرف وضعك. أنت حامل يا حبيبتي ولا يمكن أن لا يعرف وضعيتك.

- نور الصباح بدأ يشق ظلمة هذا الفجر. الطبيب قال لي إن الولادة قريبة جداً وعلي أن لا أتحرك كثيرا.

قالت سيلفيا وهي تلتفت نحوي:

- بإمكانك أن تذهب لترتاح. سأبقى مع مريم حتى الصباح. لا داعي لوجودك الآن. تعبك ما إلو معنى.

- يا سيلفيا أنت نفسك في حاجة إلى من يواسيك. أنتِ متعبة. ربما من الأفضل أن تدخلي لبيتك.

- مجنون؟ وماذا سيقول جعفر لو وجدك هنا، ستورط مريم معك؟ بالنسبة لعيد الله يرحمه ويسكنه فسيح جنانه، سيظل في قلبي أبداً ولا توجد أية قوة في الدنيا تنزعه مني ولا الزواج الذي يريده

والدي. ماذا فعل الزواج بكما؟ لا شيء. ما زلتما مثل البارحة بل ازددتما اشتعالا.

- نحن لسنا مقياسا.

- ومع ذلك نتعلم من تجارب بعضنا البعض.

التفت نحوك لأستنجد بك من صرامة سيلفيا وقوة شخصيتها وطيبتها العالية. قلتِ:

- ما عليهش روح حبيبي لبيتك. كلمني من هناك. سيلفيا معها حق. وأنا أحتاج إلى امرأة أكثر مما أحتاج إلى رجل في مثل هذه الحالات. البقية سيقوم بها المشفى.

قبلتك على جبهتك. ضغطتِ على يدي بقوة. تمتمتِ في أذني.

- أ... حـ... بـ... ك... لبكرى يا روحي إن شاء الله.

عندما خرجت كان الهواء جد بارد. نمت في الليل بصعوبة بينما ظلت صورة عيد عشاب الذي خرج من لعبة الدنيا مبكرا، عالقة بذهني وهو ساهر كعادته معي في لحظات الأزمة على كأس العرق. يقول إنه لا يحتاج إلى نوم كثير. الأفضل لقرحته أن يظل صاحيا.

سمعته في خفاء ما وهو يحادثني كعادته وينصحني:

- حاول أن ترتاح. قد تحتاجك مريم غدا. لا تشغل بالك. أنا متعود على هيك حال. العرق يساعدني على مقاومة بؤس النوم. أقضي أحيانا أسبوعا بدون أية غفوة، مأخوذا فقط بخزرة سيلفيا وبيأسها وبعينيها الخضراوين اللتين تشعان حياة وحبا.

وأرد عليه وهو منهمك في الحديث إلى نفسه، هكذا كلما تجاوز عتبات الكأس السابعة:

- يا عيد الحب حظ كبير يوضع بين يدي الإنسان، عليه أن يتشبث به حتى الموت. تصور كيف ستكون الدنيا لو لم يكن هناك امرأة تقاسمنا ظلمة الحياة؟ للأسف، الإنسان يملك قدرا مبطنا من

البؤس يدفع به دائماً نحو تدمير آخر حيطان البشرية الذي بقي واقفا: الحب. احفظ سيلفيا في عينيك.

ـ ماذا أفعل؟ قتلة الروح كما تسميهم في كل مكان.

ـ ومع ذلك نملك مسافة متقدمة عنهم، إننا نستطيع أن نصحح حماقاتنا الصغيرة. بمجرد خروج مريم وسارة من المستشفى سآتي بهما مباشرة إلى البيت. وستطلب الطلاق من جعفر حبيا إذا أراد أو المحاكم بيننا. لا يمكن أن نظل هاربين من الحياة.

ـ أنا دائماً أتساءل وأقول إذا لم تكونا في النهاية أحمقين لتركبا رأسيكما لدرجة التلاشي والموت بهذه الطريقة؟

ألتفت نحو عيد لأشرح له بالتفصيل عن حالتنا فلا أرى إلا السراب والظلال الهاربة وعلامات الموت الذي يكشر في زاوية ما من زوايا البيت قبل أن يغادر من النافذة المشرعة على الألم. عيد لم يكن هنا.

عيد هناك حيث الماء والنور الذي يغشي الأبصار، داخل المعبر الذي سلكه سيده الأعظم، فاتحا عينيه عن آخرهما.

«*باب الخيبة*: هل الدنيا بكل هذه الوقاحة وهذا النكران؟

إن يوم 25 كانون الثاني(جانفي) الموافق لـ 9 ذو الحجة، كان أسود يوم في حياتي، من أوله إلى آخره؟ زفت.

كل شيء كان يسير على عكس ما كنت أحلم.

اليوم عدت من الجامعة منكسرا. كنا ننتظر وصول سهام للمناقشة ولكننا فوجئنا بخبر وفاتها معلقا على مدخل مدرج شفيق جبري. في البداية عندما سمعت بخبر وصولها من الأصدقاء في الرابطة، كنت مندهشا وزعلانا من سهام التي قيل لي إنها وصلت المدينة للدفاع عن بحثها عن ابن عربي والصوفية ولم تتصل بي مع أنها في الأسبوع الماضي فقط أكدت على مجيئها في التاريخ الذي

حددته لها الجامعة. انتظرت في المطار يومها ولكنني عدت بخفي حنين. فطومة هي التي أكدت لي أنها سمعت أن سهام وصلت قبل يومين ولا تريد من يزعجها وتحتاج إلى بعض الوقت لاسترداد أنفاسها استعدادا للدفاع عن مجهودها العلمي. أقسمت أنها رأتها وأنها بصحة جيدة على الرغم من أن وزنها نقص كثيرا ولون بشرتها الخمري بدأ يميل نحو سمرة غميقة.

سهام لم تكن تعرف وهي تستعد للسفر، أنها كانت تخطو برجلها اليمنى أولا نحو عوامة الدليل لتغرق في نور المصب القوي والمغشي للأبصار والذي يقود إلى اللامنتهى حيث كل شيء نور وماء.

الدنيا تعيش من لحمنا وإلا لا يمكنها أن تستمر. صاحبة البيت يبدو لي أنها صارت مجنونة بالكامل. لا أدري ماذا يحصل في رأسها لكني متأكد أنها تحرسني. عدت من موعدي مع سيلفيا في حالة يرثى لها. سيلفيا بكت كثيرا من عجزنا. أبوها اتخذ قرار تزويجها من ابن عمها في هذا الصيف. جورج غادر البيت احتجاجا ولا أحد يعلم أين. وأنا في وضعية مادية ونفسية لا تسمح لي بالهرب معها. فتحتُ الباب. وجدت كل الوضعيات قد غُيرت. فقد سمرت النافذة المطلة على بلكون سيلفيا. وغُير موقع السرير وفُتحت النافذة المطلة على الفراغ ومكان نفايات الجيران. كانت الحجّي كما يسميها الجميع، أو صاحبة البيت، هناك، تنتظر عودتي وردة فعلي. لم أقل شيئاً فتكلمت هي.

ـ شوف يا عيد. ما أحب وجع راس. الجيران بيشكون منك.

ـ يا حجي، أنت بتعرفي أني ماني أزعر ولا صاحب مشاكل. بالنسبة لسيلفيا طلبتها من أهلها وفق شرع الله ووالدي الذي تعرفينه جيداً على علم بذلك. ما فيه شي بيزعل ربنا.

ـ أنت مسلم وهي مسيحية، كيف راح بتسوي؟

ـ أطلب النجدة من الله ومن الدولة.

في أعماقي، كنت أسخر من كل هذه المهازل.

ـ شو راح بتسوي لك الدولة؟

ـ بتنصفني.

ـ ودينك؟ تتخطاه. مستعدة هي أن تسلم؟

ـ مستعدة.

ـ وأهلها؟ بيرضوا؟ أنتَ بتلعب بالنار.

كدت أقول لها، إذا ما أرادو سأعتنق المسيحية. شعرت بعينيها الصغيرتين تنتظران هذا الجواب بالضبط لترميني أنا وعفشي الهزيل خارج هذا البيت الأجرب. لم أقل ذلك. احتفظت به لنفسي. أعرف رأيها. حموية سنية منغلقة على نفسها.

ـ ربنا عزيز حكيم.

ـ راح بتوضعها فين هَيْ المَرا؟ على راسك.

ـ بيفرجها. مو الله عزيز كريم؟

ـ سبحانه.

قالتها جافة وباردة ثم خرجت، بينما رحت أجرب النوم عبثا. صحيح أني لا أهتم كثيرا بهذا الجانب وأشعر أن أكبر مضيعة ابتدعها الإنسان وأكبر خطأ حصل في الخلق هو أننا نضيع ما لا يحصى من الساعات والأيام والسنوات في النوم وفي التواليت. ما فيه حل آخر؟ ألم يكن أمام الله الكبير أن يجد وسائل صغيرة لا تجعلنا نضيع كل هذا الوقت؟

بوف؟ يبدو أني تجاوزت العتبة وبدأت أخرف.

لا أدري كيف وجدت كلماتي المقنعة أمام الحجي، ربما غريزة حب البقاء الحيوانية.

في هذا الفراغ الذي يحوطني من كل الجهات، نسيت كل

أحبابي، حتى سيلفيا. كنت عبثاً أحاول أن أفك الرسوم والألوان التي ارتسمت في عيني سهام وهي تكتشف معي لأول مرة «*طوق الياسمين*» وتقص علي المشهد الذي رأته ونحن ندخل الدهليز المظلم قبل أن تغرق العوامة من جديد في بحر الأنوار.

من أوراق عيد عشاب

أينك يا عيد؟

يبدو لي أحيانا أنك انطفأت من كثرة الشرب، غبت مؤقتا عن محيطك وسرعان ما تعود. لو تعرف ولكنك أنت على على الأقل صممت أن لا تعرف البقية. خرجت مبكرا من هذه الحياة ولم تعد لها. أقسمت أن تظل هناك ولا تلتفت وراءك، كما يفعل عادة الناس الطيبون. أتساءل أحيانا كيف امتلكت شجاعة ترك سيلفيا التي أعطتك كل شيء جميل فيها واحتفظت بقسوة القدر لها؟ كيف فضلت عنها حفرة وكمشة تراب وقبرا منسيا باردا لتصير محاذيا لسيدك الأكبر ابن عربي؟ ألم يكن أمامك طريق آخر غير طريق الموت؟ أألخفقت إلى هذه الدرجة بالذهاب بحلمك إلى مداه؟ وهل الموت وحده هو المدى الممكن؟ عندما تغرق في كأس العرق، لا شيء يغير يقينك من ظلم الدنيا التي تعيش من لحمنا ومن سفالتها كالحية كما كنتَ تقول دائما. اللعنة التي أيقظتَها فيها تؤذيك وتؤذيني لأننا لانملك حيالها الشيء الكثير.

عندما وضعتُ رأسي على الوسادة، كنتُ متعبا. حاولت النوم عبثا. لم أر شيئاً مهما سوى الفراغ المليء بالظلمة والأنفاق المتداخلة التي لا حد لدكنتها واليأس الذي كان يغرق شيئاً فشيئا في تدرجات اللون الأسود الذي ابتلع «*طوق الياسمين*».

11

«يبدو أن الأمور لستها مطوله».

منذ يومين وأنا أنتظر مجيء سارة ولكنها تتعنت وترفض الخروج. قتلتني آلام الطلق، لولا سيلفيا ما تحملتها. الطبيب قال ننتظر قليلا. قلت لك لا تاتي خوفا عليك مني ومن القتلة الذين صاروا يملأون المكان. سأدعوك في الوقت المناسب. لا تزعل مني حبيبي، أرجوك. يا مجنون أنا أحبك فلماذا تؤذي نفسك وتؤذيني معك. ليس في نيتي تعذيبك ولكني مخنوقة ولا أستطيع رد أي شيء. أنت قريب مني. أنت في. أكلمك وأتمنى أن أعطيك كل ما في القلب وأستشيرك في كل ما يشغلني لكن عالمي صار مغلقا.

حبيبي. هذه الرسالة كتبتها البارحة فقط وأنا ممددة على الفراش، وكان علي أن أتخيل سقف الغرفة سماء واسعة لكي أستطيع الكتابة. أتأمل الأنجم علني أعثر على الطريق الذي ضيعته بالصدفة المجنونة. الصدفة المجنونة شاءت أن أحمل سارة في بطني. لو لم تكن منك لتخلصت منها. اليوم صار بطني مدورا مثل التفاحة وسارة صارت حقيقة. كم أتمنى أن أراك يوم الولادة. هل بإمكانك أن تفعل ذلك من أجلي؟ سأخبرك. سيلفيا بجانبي، تقوم بكل شيء، حتى وظيفة ساعي البريد. الله يكثر خيرها. تصبرني وأصبرها. كل مرة أشعر فيها بالسعادة، تأتي الحالة التي تنغص علي حياتي. لدي شعور دائم بأني كلما رأيتك، سيكون ذلك هو المرة الأخيرة ولهذا أريد أن أشبع منك. أن لا آخذك على ظهري كشوق محموم. أن أحبك فقط.

صباح الخير. كلماتك السابقة حركت في أشياء كثيرة. ظلت الورقة معي. في يدي. في جيبي. في قلبي. وهي الآن تنام في صدري. أقرأها وأعيد قراءها. أغمض عيني لأراك بكل طولك من خلالها. كلامك بلسم جميل به أشفى من دائي. الحياة إذا لم تكن مشفوعة بأمل فهي قاسية جدا. صحراء جدباء وقلق مستديم يقتل الروح. لكم تمنيت الحديث معك كلما رأيتك. الزمان المتاح لنا لا يسمح. لا يسمح إلا بصباح الخير وكيف الحال. القوالب الجاهزة التي نداري بها أشواقنا.

كم تتغير الدنيا؟ وأنا صغيرة، وضعت للحب تصورا جعلته في ذهني وها أنت تأتي اليوم وبمسحة يد واحدة، تكسر كل يقينياتي وإبهاماتي. معك أحيا. بدونك أموت ومعا ننهب كل ما رفضت الأقدار منحه لنا بسهولة ونشعر أنه حقنا الطبيعي. عندما فشلت قلت أنا أبالغ.

سأنتظرك يا حبيبي مهما بعدت المسافات. ستكون لي بقلبك وروحك. لن يخدعني أحد فيك فأنا أعرفك من داخلك. رجل زاخر بالعطاء. ستبقى فرحي الذي لا يموت أبدا. نخب لقائنا ونخب الذين نحبهم ونكاية في القتلة والعسس والعيون الهمجية. كنا نعيش لحظة الاستثناءات الكبرى وكم كنت أود أن أسألك من علمك كل هذا الدلال؟ هل هي امرأة مثلي أم أنه ولد معك ورضعته من حليب القرية؟ فيك شيء غريب ينبع بعفوية. تنازلت عن كل حقوقي مقابل وجهك. وهاأنذي داخل الأرض الخراب أرمي بالبذرة لأرى شوقها وترعرعها وانبثاقها. ستزهر وردا وبنفسجا كما تشتهيها. سنرويها من فيض عطاءاتنا. فيك كل ما اشتهيت في حياتي.

لا يهمني أنك اليوم لم تعد لي ولا غدا عندما تضعك امرأة أخرى على صدرها وتحاول أن تزيل عنك وحدتك وحزنك ووحشة المكان والحزن والخيبات. كل هذا لا يهم، فأنا لا أطلب منك ما ليس لي. يبدو لي أن الحياة لم تمنحنا الكثير ولكنها منحتنا سعادة اللقاء العابر وجمعتنا في سرير واحد ولو كان ذلك لمدة محسوبة ولكنها

كانت كافية لأن تجعلني أجن بك. تكفيني سارة. ستكون حالة اختزال لكل هذا الحب المستحيل وهذا الشوق القاتل.

النزيف لم يعد يزعجني لكني أشعر بتعب في القلب. ابن الكلب هذا القلب، كلما نسيته، ذكرني بهشاشته. البارحة رأيت شريطا علميا عن القلب في التليفزيون، ذكرني بحالتي. رأيتهم كيف يفتحون الصدر وكيف يعوضون القلب بجهاز آلي ثم يملأون القفص الصدري بالماء البارد ويعزلون القلب عن أي عمل حتى يقف ويبدأون بعدها شغلهم مثل أي مصلح للسيارات لكن مزاج القلب صعب إذ يمكن أن يظل نائما حتى بعد ربطه من جديد بالدورة الدموية ومحاولة إيقاظه. يعوضون الشرايين المسدودة بشرايين ينزعونها من الساقين، يوصلون من خلالها القلب مباشرة بالشريان المركزي. شيء مخيف ورائع. لأن الشخص الذي كان مجهدا ومتعبا، بعد مدة قصيرة صار إنسانا عاديا وممتلئا حيوية. أفكر أحيانا إذا لم يكن من الأجدى لي التفكير في عملية من هذا النوع لحسم مشكلة القلب هذه.

سارة لا ترحمني لحظة واحدة. صارت متعبة. إنها ترهقني وكأنها تريد أن تثبت لي ارتباطها بي وحبها لي. سأحاول أن أنسى قسوة الحياة وأني لن أموت وأني سأعيش لك ولسارة.

لا تشغل بالك حبيبي. أنا في مستشفى الرازي، في المكان الجميل الذي تركتني فيه آخر مرة، بين أيد أمينة. لا شيء ينقصني، أنتظر اللحظة التي أدعوك فيها لتأتي وأراك. مشتاقة إليك ولكن حياتك عزيزة علي ولا أريدك أن تكون ضحية لأنانيتي، لست في حاجة لاختبار حبك. أعرف أنك تحبني وهذا يكفيني. أريدك أن تظل حيا لترى ابنتك وتحملها بين يديك ولا أريد أن أكلفك مزيدا من الشقاوة. في الوقت الحالي الوضع صعب جدا. جعفر يأتي كثيرا وفي كل الأوقات وزبانيته يرابطون باستمرار بعين المكان. وأنا كذلك تعبت من الكذب. جفت ذاكرتي. لا شيء يعطيني مبررا للحياة إلاك وإلا ما جدوى ما يحدث حولي؟ أرأيت لماذا أتشبث بك

باستماتة؟ حتى عندما أريد أن أتخلى عن أنانيتي، أجدني في عمقها.

أرجوك لا تركب رأسك وتأتي.

لا تهتم كثيرا، سأتدبر أمري. هذه المرة أسامحك. ستتركني ألد لوحدي داخل الألم والصعوبات والخوف من الموت، لكن في المرات القادمة سأطالب بحضورك معي على طاولة التوليد حتى تعرف مامعنى أن نعطي الحياة لكائن هو جزء من لحمنا الذي يقطع منا.

أتذكر كلامك اليوم بمزيد من الحب والصبر:

العلاقة الحقيقية هي ما ينشأ بين الجنين وأمه. تحمله، تكلمه، تتألم له وبه وبعدها تقبل حالة التمزق في جسدها؟ والأب أثناء ذلك ماذا يفعل؟ لا شيء. ينتظر كأي شخص يترقب دوره في عيادة. كل رجل يستطيع أن يكون أبا لأن العلاقة اكتسابية وامرأة واحدة، ووحيدة فقط تكون أما، لأن العلاقة طبيعية .

كم كنت محقا .

أحبك. أحبك بجنون وأخاف عليك من أنانيتي. لكن هذه المرة أسعى لأن أكون متعقلة حفاظا عليك. علينا جميعا.

لا أطلب منك الشيء الكثير سوى أن تمنحني ما تستطيعه من قلبك ودفئك وأشواقك.

حبيبتك التي تشتاق لك حتى وأنت معها.

أضع يدي على وجهي، أغمض عيني وأحاول أن أسترجع صفاء وجهك: ياه؟ ما أبعدك وما أقربك؟

دمت لحبيبتك ومجنونتك التي تفتقدك كثيراً.

12

ماذا يعني أن ينسحب الإنسان شاباً؟ كرها للحياة؟ سادية إلهية؟ خطأ في التكوين أو مجرد رغبة مجنونة للتخلي عن حياة لم تعد مقنعة كثيرا ولم تعد تمنحنا أكثر مما نعرفه عنها؟

لا أدري سوى أن ما كنت أخافه حصل بالفعل.

كل شيء كان باردا.

حتى مشفى الرازي لم يسلم من ذلك.

عرفت كل شيء. لم يكن أحد في حاجة لأن يشرح لي ما حدث. رأيت العيون مورمة. شيء ما فيها كان قد انتفى ألقه ومات.

تلفون سيلفيا وبكاءها كان واضحا. لم تقل شيئاً ولم أسألها. قلب مريم فعلها وتخلى عنها في وقت كان عليه أن يقاوم باستماتة. مريم كانت من نور وأشعة وبللور تنكسر أشعته على كل الأمكنة المظلمة.

لم أطلب شيئا. طريق الموت معروف برائحته.

منذ طفولتي وأنا أعرف أن للموت رائحة كنت أشمها من بعيد. جدتي عندما شاخت بدأت تغزوها هذه الرائحة، طيبة ومخيفة، مزيج من الكحل وعود النوار والمارمان ورائحة الجلد.

لم أسأل الممرضة التي صارت الآن تعرفني منذ أن رأتني في المرة الأولى حينما سألتها عن مريم وقلبي في فمي. ومن كثرة

الحديث معها في التليفون. نسيت المحيط وعيون القتلة التي كانت تتصيد كل حركاتي وأسئلة المرضى المعلقة في عيونهم.

قالت وهي تسبقني:

ـ من فضلك، من هنا...؟

في نفس الاتجاه الذي كنت أسلكه.

أخذتني الممرضة من يدي وهي تضغط على كفي البارد الذي صار يشبه جسد أم مريم. أدخلتني إلى قاعة صغيرة معطرة ومحاطة بالنوار مثل الذي يمارس خلوة خاصة. دخلت بهدوء برجلي اليمنى وكأني بدأت أعبر «*طوق الياسمين*» التي ملأت روائحها أنفي فجأة.

تمتمت الممرضة وكأنها قرأت ما كان بقلبي. كانت سيلفيا تتبعنا من بعيد ولم تقترب أبدا.

ـ كانت امرأة شجاعة. لكن القلب مثل الله، عندما يشاء، يشاء. طلبت مني قبل أن تطبق عينيها أن أرش الغرفة بالياسمين، ففعلت ياسيدي وطلبت أن تراك ولكن الموت لم يسعفها. أعرف قليلا ما كان يشتعل في قلبها.

قبل أن يؤخذا نحو برادات الموت، كان الجسدان نائمين أو في غفوة مثل تلك التي تأخذنا ونحن نعبر المنافذ الضيقة لـ «*طوق الياسمين*». اقتربت قليلا. رأيت مريم. لا شيء فيها تغير؟ الموت قهر حركتها ولم يمسس جوهرها. كانت الابتسامة الأخيرة ما تزال عالقة بشفتيها وكأنها في حلم وردي. ضفيرتاها على صدرها مثل سنبلتين ممتلئتين. يحوط الرقبة شال فلسطيني مرقط بالأسود والأبيض أهدته لها ماسة عندما ذهبت إلى بيروت. لم تكن الكوفية مجرد لباس، *فلسطين حتى وهي بعيدة تمنحنا الكثير من الدفء*. بجانبها سارة. سارة كما اشتهتها وتخيلتها. ملفوفة في نفس اللباس الوردي. وجه حي كنسمة صباحية. هادئة، نائمة على ذراع

أمها كأن الاثنتين تحتميان داخل الظل، من شمس قاسية فقط. لم تكن سارة تبكي. غرقتُ في ملامحها الصغيرة. كان فيها الكثير من مريم وتشبه صورة لي وعمري لم يتجاوز بعد السنة. فكرت أن أحمل سارة بين ذراعي قليلا ولكني خفت أن أوقظهما. قبلتهما بهدوء وتركتهما تنامان مغمضتي العيون خوفا من الغشاوة التي تصيب كل العابرين. كانتا تسلكان ممرات وخلجان *«طوق الياسمين»* في العوامة مع الدليل، وسط الأنوار والضباب والأشعة القوية التي كانت تنكسر على سطح الماء الفضي، الأملس والصافي كمرآة.

لم أبك لأني كنت خارج الزمن.

لم أحيِّ أحدا. خرجتُ وذهبتُ وفي رأسي فكرة واحدة، تحضير البيت ورشه بالنوار والياسمين لاستقبالهما، أو على الأقل هكذا بدا لي. كنت مثل الرجل الآلي، كل خطواتي لم تكن ملكي. كنت مبرمجا. تبعتني سيلفيا. كانت مثلي صامتة. قطعت معي البهو وكل الأدراج. هي كذلك لم تركب المصعد. عند المخرج، دفعتني نحو الزاوية المظللة وخارج الضوء. ارتمت على صدري وتركت العنان لنحيبها. كانت تبكي مريم ولكنها كانت تبكي كذلك عيد عشاب. مسدتُ على شعرها بدون أن أتكلم. كنت عاجزا عن فتح فمي. كل طاقتي كانت متلاشية ولم أعرف كيف استمريت واقفا.

وضعتْ سيلفيا في كفي وهي تمسح عينيها اللتين تورمتا بسرعة، مجموعة رسائل وسلسلة وهي تتمتم:

ـ ظلت ملتصقة بصورتك حتى اللحظة الأخيرة. مريم ذهبت ولاشيء في ذاكرتها إلا وجهك وحزنها أنها لم ترك تحمل بين يديك سارة. احفظها في قلبك. سلمتُ وصيتها للطبيب كما أمرتني قبل الولادة. قرأها أمامي وقال لي إنه سيتخذ كل الإجراءات اللازمة عند الضرورة.

ـ قلبي الآن مغلق. هل أوصتك بشيء آخر؟

ـ أن أسلمك هذه الأوراق وهذه السلسلة الذهبية التي تقول إن

أمها أنقذتها من فكي عيشة الدلالة التي ابتلعت كل سيغتها وكانت تنوي وضعها في معصم سارة عندما تكبر قليلا. وأن أقول لك إنها طوال حياتها لم تفعل شيئاً سوى البحث اليائس والمحموم عنك وعن سارة.

«عشرون سنة مرت ولا شيء تغير».

لم أنتبه مطلقا. لم أفكر. كان يفترض أن أرجع وأعقد السلسلة الذهبية في يد سارة ولكني لم أفعل لأني لم أكن هنا، كنت هناك. عندما غادرت المكان كانت الظلمة قد نزلت.

لم أر شيئاً سوى مريم وسارة والظلال الباردة التي بدأت تنتشر فوقهما والضباب الكثيف الذي غطاهما فجأة ولم أعد أرى شيئا. صورة واحدة بقيت في ذاكرتي، كان وجهاهما صافيين مثل الثلج ومثل ذلك المساء الممطر عندما نامت مريم على ذراعي الأيسر قريبة من قلبي.

لم أكن أفهم جيداً ما حدث.

في مفترق الطرق كنت، بين الحلم والكابوس.

كنتُ منكسرا.

13

يا يما ما أرق قلمك وما أقساه؟

روايتك الأخيرة قرأتها أكثر من مرة لكنها المرة الأولى التي أقرأها بحرية ولذة وأنا في فراشي وليس في المرحاض. كلما قلبت صفحة أرتعش قلبي خوفا من أن يكون جعفر أو أحد زبانيته قد سمعوني وكشفوا سري.

من أعطاك كل هذه الأناقة في الكلام وهذا العنف؟ لقد وضعت قصتنا بين أيدي كل الناس؟ هل هو الألم الذي جننك وهبلك؟ هل هو سحر الكتابة الذي لا يقاوم؟ هل كنت مثلي، ضحية أبجديات الكلام؟ سعيدة بهذا الموت، فقد منحتني أجمل هدية: حبك. حولتني إلى لغة وهل هناك حلم أجمل بالنسبة لامرأة من تحويلها إلى أبجدية مشتركة؟ لا يمكن أن نكتب هكذا إذا لم يكن من وراء ذلك شعلة حارقة. أنا التي كنت أظن أن كل شيء انتهى، أجدني اليوم معلقة على كلماتك وأشواقك وجنونك الذي لا حد له.

حبيبي، كم أشتاق إليك. رسالتي هذه المرة تشبهني كثيرا. مرتبكة وحروفها هشة جدا. ربما لأنها الأخيرة. يبدو لي أن هذه المرة سأتركك. الطبيب لم يكن متفائلا لوضعي. لم يقل شيئاً ولكن خزرته لم تعجبني وهو يقرأ نتائج التحاليل الطبية.

عينك على سارة حبيبي، إنها أجمل هداياك.

عندما تكبر سارة، خذها إلى «طوق الياسمين». أدخلها

الخلجان المتراصة كما فعلت معي، أتركها ترى النوارس وهي تقفز من أمام رجليها الصغيرتين قبل أن تندفن في الضباب وبعدها عمدها في مصبات بردى. عندما يملأ النور لأول مرة عينيها الطريتين، ستصيبها غشاوة وبعدها غفوة قبل أن ينفتح أمامها النهر بكل قدسيته وعظمته. ساعدها على امتطاء العوامة وسيرا مع بعض سترياتني في الأفق. قل لها إن أمك هناك وسنصل إليها ذات يوم ولكن كل واحد عبر طريقه ومسالكه.

الله بدأ يسمع دعواي. أريد أن أغادر هذه الأرض وأنا قادرة على المشي والحب والتمييز حتى أستطيع أن أقف أمامه بكبرياء وحب. لا أريد أن أدخل عرشه مهدمة. كنت دائماً أحسد ماسة التي تركت سعاداتنا الصغيرة وركضت وراء صديقها الفلسطيني الطبيب لتموت على ذراعيه أيام الاجتياح الإسرائيلي، وهي توزع جريدة المعركة ليس بعيدا عن ملعب بيروت. الحب هو سيد الكرامات الكبرى.

أستطيع اليوم أن أموت بدون تردد.

لا شيء لي سوى حبك والموت فيك. من هذه الناحية، صممت أن لا أعادي قدري حتى ولو قادني ذلك إلى حتفي.

لا أريد أن أزيدك شقاوة على ما ستعانيه. أعرف أن حبك لي كبير ولذا فهذا المساء عندما أرحل، سأرحل بوجهك وقد أترك لك ما تقاسمناه بعشق كبير. وإذا حدث وأن ذهبت معي سارة، لا تحزن كثيرا. حافظ على نفسك. سننتظرك هناك. ستكون وحيدا داخل العزلة وسأكون بصحبة هذه الدلوعة التي لا شيء يرضيها إلا إذا سحبتني معها. الأطباء لم يقولوا شيئاً ولكني أعرف من عيونهم أن الولادة ستكون عسيرة والقلب المريض والهش سيكون تحت رحمة مزاجه الخاص ويمكن أن يتخلى عني في أية لحظة. قلبي غير وفي ولهذا فأنا لا أثق فيه وأخاف أن يخادعني ويأخذني على حين غرة.

يبدو أن رحيلي هذه المرة صار وشيكا.

هل تعرف أنك أهبل رجل عرفته في حياتي؟ صحيح أني لم أعرف الكثير ولكن مع ذلك أنت لوحدك. وحق ربي لوحدك ولا أحد يضاهيك يا حبيبي؟ شيء فيك يستعصي على مقاومة أية امرأة مهما كانت. أيها المهبول، ألا تخاف علي وعليك؟ ترميني هكذا في جحيم الموت كأية أضحية فرعونية توضع في قارب خال من الحياة وتترك لوحدها في مواجهة الموت أمام إله قليلا ما يرحم؟ اليوم فقط انتهيت من قراءة روايتك ووضعتها جانبا وبقيت مع دهشتي، هل هذا الرجل يحبني إلى هذه الدرجة ولهذا يورطني إلى درجة قصوى؟ بقيت في دوامة وحيرة وكل أجوبتي انكسرت. هل الحب يدفعنا إلى هذه الدرجة من التخيل بل والافتراض الذي قليلا ما يخطئ عندما يكون صادقا، وإذا أخطأ، هذا يعني أن بعض الصدق ينقصه. عدت إلى المطبخ مرة أخرى وأنا لا أدري ماذا أفعل؟ ماذا لو قرأ جعفر هذا النص؟ ماذا سأقول له. لم يعد في حاجة لسماع ما يرتبك في قلبي. هو نفسه مل مني ولم يعد قادرا على تحمل هذه الحالة. تعرف منذ مدة وأنا أقرأ كتاباتك في الحمام حتى لا يشك في أحد ولا يحس بالنار التي كانت تأكلني من الداخل. الخوف والهلع ينتابني من محاكمة يتهأ لها المقعدون. الوجوه الشاحبة تستحضر أدواتها القاتلة. عالم بأكمله يتهيأ لمطاردتي بمزيد من الإدانة والتنديد. السؤال الذي يؤرقهم: هل صحيح أنها تحبه وأنها تنام معه كلما خلت به؟ لا يملكون الأجوبة ولكني أوفر لهم فرصة للحياة من خلال محنتي. يقتاتون من جسدي. أحيانا أتساءل عن قوة هذا المرض المستفحل؟ أيعقل أن يجعلوني قصة لهم ولهن وأنا أعرف جيداً الأصدقاء والصديقات الذين يعيشون معهم؟ أعرف حتى البيوت التي يرتادونها؟ لماذا المرأة أكثر حقدا على المرأة والأقل تسامحا معها؟ أعطيت لجعفر ما استطعته لكن حالة العبث كسرتني ولا أريد أن أموت وأنا في حالة كذب مع نفسي. خطئي الوحيد هو أن سارة منك. ربما كانت سارة هي أصدق وأنجح ما ربحته من الحياة.

أخطر حب هو حب الطفولة. من الصعب التنصل عنه. وأنا فتحت عيني متأخرة عليك. الله غالب.

انتفضت من مكاني، حدقت حولي. الصمت ما يزال يلف هذه المدينة. الغريب ليس بهذه المدينة بحر ولكني كلما بذلت مجهودا وقمت من فراشي وأطللت من النافذة شاهدت فراغا في الأفق يعطيني الإحساس بوجود هذا البحر أو على الأقل يرميني في «طوق الياسمين». وضعت روايتك تحت الوسادة وحاولت عبثاً أن أنام. صعب. حتى جعفر لم يعد يعطي قيمة للأشياء المحيطة بي. أمري لم يعد يعنيه كثيرا إلا من حيث هو حالة تمسه. كم أشتهي أن لا أكون، أن أزعل منك ولكن شيئاً في داخلي يستعصي علي لا يمنحني أية فرصة لرفضك. أشتمك وكم أشتهي أن أعضك وأدميك ولكنك مثل الزئبق كلما ظننت أني وضعتك بين يدي، وجدتك هناك تنظر إلي مثل الجن وتسخر من سذاجتي. كم أشتهي أن أواجهك في مثل هذه الحالات لا للدفاع عن نفسي ولكن للصراخ أمام الملأ أني أحبك. أحبك. لا أريد أن أظل مختبئة داخل صمتي.

الصمت من جديد. كل الليل مر هكذا. النور يتسرب من بين شقوق النافذة. الساعات تزحف وعليّ أن أقوم لأمشي قليلا حتى تكون الولادة سهلة ولا يتعب القلب. هذه الأيام صار ينهكني وصرت أُرهق بسرعة. لماذا تصر دائماً بتواطؤ مع القدر، على وضعي في زاوية الفجيعة. ألم يكن بإمكانك أن توقفني عن غيي في ذلك الصيف المجنون؟ تضحك كعادتك أو تنكت؟

«أنتِ مخطئة يا حبيبتي. أنا لا أعرف سوى الكتابة عن امرأة لم يعرف قلبي المهبول سواها. سيأتي زمن ويحكى عنا إما كشياطين وإما كملائكة. هل تتخيلين قيساً سعيداً وليلى فرحة وهما في غمرة التجربة؟ ها أنت تكنسين ذعرك الداخلي. أحبك هكذا وسط هذا الشطط. أنا لست مصرا على قتلك أبدا. أطمح أن أؤنس غربتك وقلقك ووحدتك وشططك، لتدركي أنك لست وحيدة وسط هذا القفر الذي

اسمه الحياة. أريدك أن تحافظي على هذا الألق الذي يجب أن يظل حيا ومشعا. هل تريدينني أن أصمت وأنسحب؟».

من أين تأتيك كل هذه الكلمات التي تضيعني؟ من أين يأتيك كل هذا السحر الذي ينسيني في مأساتي ويربطني بك بقوة أكثر؟ من أين تأتي بكل هذه الوداعة التي تجعلني أغفر لك كل حماقاتك وأزداد ارتباطا بك؟ أنت تقتلني بحبك. ماذا أفعل معك؟ يبدو أني لا أملك سوى أن أنسى ألمي وأراك لأشبع منك قبل أن أتركك. فتحت عيني على أجمل وهم تعيشه البشرية وتدافع عنه، الحب. كتاباتك ولدت في جروحا ودموعا وعلامات استفهام. بقدر ما أشعر بالحب، ينتابني الإحساس الغريب بالموت. أفتش عنك وأخاف على رهافتك مني. مدننا غابات موحشة. أحيانا أتساءل كيف ملكت القوة لاختراق كل الأغلفة الوهمية ووصلت إلي. كنت خلف كتل الضباب لا يكاد وجهي يظهر أبدا. حتى ملامحي انكسرت. استطعت أن تلمس قلبي وأشواقي وتجرني نحوك. أنت مثل عرض البحر كلما اقتربنا منك ازددنا انجذابا وخوفا. كم أشتهي أن أهرب منك وأن لا أضطرب أمامك. أحيانا أرتجف لمجرد ذكر اسمك. أخيرا اهتديت إليك من خلال أحرفك التي تقول فيها كل شيء بأقسى حب ممكن. أنا اليوم لم أعد مستعدة أن أخسرك بعد أن وجدتك. كلما رايتك ارتسمت في ذهني مباشرة كل اللحظات الجميلة التي حوربنا فيها. لا لست مستعدة لخسرانك أبداً ولو خسرت كل هذا الرفاه الوهمي الذي يحيط بي. أشتهي أن أتعلم كيف أكون مجنونة في عينيك بدل أن أكون عاقلة في عيون الآخرين. منذ عودتي من مأتم الزواج، جربت أن لا ألقاك وأن لا أسلم عليك كما يشتهي القتلة والتافهون. ولكني كلما عدت إلى نفسي احتقرتها لأني كنت كاذبة على محيط لن يصدقني حتى ولو انتحرت وقدمت له كل التنازلات. ليس السلام هو الذي يحدد الحب ولكن العين التي تخبئ عبثاً أشواقها والقلب الذي لا يستسلم للأهواء السهلة. كلما رأيتك أشعر بك تناديني كما كنت تفعل دائما: مريم... تعالي. عندما أهم بالانصراف تطلب مني البقاء قليلا. لو لم تفعل ذلك

للعنتك من كل قلبي. حبيبتي، هل نلتقي اليوم؟ كلمتك التي لا تموت أبداً ولا تتراجع ولا تستسلم. أي سحر تحمله هذه الكلمات؟ الوجوه الضبابية لا تمنعنا من اللقاء والحب. الضبابيون كلما تأملوني عروني من لباسي. العجيب أني سمعت عنك الكثير قبل أن أراك. الشجاعة، القوة، العبث، المغامرة... أتساءل إذا لم يكن الذين تكلموا عنك وكرهوك هم الذين دفعوني نحوك بشكل أعمى. من يكون هذا الكائن الذي ألصقت به كل هذه التهم المتناقضة؟ كلما رفعت رأسي، رأيتك تعبر الأمكنة بهدوء وابتسامتك الملعونة الاستثنائية التي لا أفهمها إلا أنا. كل سر السخرية هو في الانحباسة اليمنى لشفتيك. كلما رأيتك تساءلت هل يعقل أن يكون هذا الإنسان الطيب والودود بكل هذه التعددية من التوحش إلى أقصى درجات الصفاقة؟ مع الزمن أدركت أن الغيرة وحدها هي التي كانت تحرك البشر بمختلف أهوائهم. لا شيء يفسر ردود أفعالهم سوى ذلك. إذا لم تكن المرأة هي أول من يدرك ما خفي من السيرة من تراه يكشف جوهر الأشياء؟ أراهم يرابطون عند المداخل لاقتناص كل حركاتك ومع الزمن ضموني إليك. اقرأ في عيونهم شهواتهم المنكسرة ولكنني هنا. في حلوقهم. حزينة فقط لأني سأتركك وحيدا ولكني أعرف أنك ستجد بحاستك العالية المرأة التي تليق بك. تذكر حبيبتك التي باعت كل شيء للشيطان مقابل أن تربح قلبك وأشواقك. لا أتذكر شيئاً سوى تلك العاصفة العنيفة التي قادتني نحوك. لم أتمكن الفرار من ظلك. كم مرة أقنعت نفسي وكذبت عليها باني متزوجة وعلي أن أنساك ولكن عبثا. في هذا، كل النساء كاذبات لأننا لا نترك رجلا لأننا نريد ذلك ولكن عندما تشتهي الذاكرة. نحمله كل خساراتنا ومع ذلك نظل له وحده حتى في أدق اللحظات حميمية. تصور حتى عندما أنام معه، أجدني في الفراش معك وليس معه. أنت قدري ومن الصعب علي أن أهرب من قدري المسلط علي.

هل لي أن أطلب منك شيئاً صغيرا، تركته في وصيتي الموضوعة لدى سيلفيا، إذا مت، أن تدفنني على هذه الأرض ليس.

بعيدا عن عيد عشاب الذي عاش ما كسب، مات ما خلى. لا أرض لي هناك. أرضنا صارت ضيقة حتى على أهاليها ولا أريد أن أضايق أحداً. تربة المنفى أحيانا أرحم. لقد مات الذين كانوا من حين لآخر يسألون عني. أنت وحدك يمكنك أن تتذكرني. لا أطالبك بالشيء الكثير، فقط، كلما زرتَ هذه الأرض، عرجْ واسألني وأنا في قبري إن كنتُ سعيدة هناك وهل مازلتُ أشعر بالبرودة كما كان يحدث مع أمي؟ لا شيء يخيفني في الموت سوى البرودة والإحساس المزمن بغياب الصدر الدافئ الذي نركن له عند الحاجة.

اليوم لم يعد شيء يعنيني. الحب يحمل أحيانا في جوهره بذرة الموت والنهاية ولهذا صممت أن أقرأك علانية ولن أضطر إلى التخبؤ في المرحاض لقراءتك، وأن أحبك حتى الموت مثلما كنت تفعل معي دائماً وما عليهش بعدها إذا مت بالفعل.

شكرا لك لأنك أطلقت علي النار بحبك وبكتاباتك. ربما طوال معرفتي بك، ومنذ الرسالة الأولى في رأس تلك السنة التي انسحبت بسرعة، لم أكن أفعل شيئاً سوى استدراجك نحو هذه الحماقة التي أقدمت عليها اليوم. كنت أريدك أن تقول لي أحبك بالشكل الذي يشبهني فقلتها بالشكل الذي يشبهك. يشبهنا.

وهل هناك موت أجمل من موت سببه قصيدة أم رواية؟

مهبولتك التي تبحث عنك حتى وهي في القبر.

14

البرد وعزلة المقابر وعشرون سنة من المحاولات اليائسة لنسيانك وفصول السنة التي لا تتغير أبداً في هذه المدينة.

« ـ لا تحزن. في الأفق دائماً شيء آخر. احذر الأقدار حبيبي. فهي تأخذ كل مزاحنا مأخذ الجدية».

أصبتِ بعدواي. فذهبتِ أنتِ وبقيتُ أنا.

لا أدري ما الذي ذكرني بالجمل الأخيرة في مذكرات عيد عشاب الله يرحمه ويوسع عليه. يبدو أنه كتبها بسرعة قبل أن يغلق نهائيا كراسته وينسحب بصمت على رؤوس أصابعه حتى لا يربك أحدا من أحبته وأصدقائه:

«*باب اليأس*: حبيبتي سيلفيا... من أين أبدأ هذا الألم وهذا الحزن الذي صار مثل الفيض يملأني ويقودني نحو يأسي الكبير؟ كل أصدقائي انسحبوا من هذه المدينة وبقيت وحدي. البارحة رأيت حلما أخرجني من وضع وأدخلني في وضع آخر. رأيت سيدي الأعظم محي الدين ابن عربي مرتديا لباسا خيوطه من الحرير الأبيض والفضة. في يده اليمنى عصى من قصب البانبو، يتكئ عليها كلما شعر بالتعب. طلب مني أن أتبعه نحو «*طوق الياسمين*». كنت أعرف أنه يقودني نحو الموت ولكني لم أتردد لحظة واحدة. كانت رائحة الياسمين والنباتات الاستوائية قوية. فجأة قام من قدام أرجلنا سرب من الطيور الملونة والفراشات، عرفت أننا صرنا

قريبين من المصبات المائية. مشينا قليلا وإذ بالماء ينهض أمامنا مثل الشلالات. سألت عن الدليل، قال لي سيدي الأعظم وهو يضع يده الزكية على فمي: ششششتت، لقد مات منذ أكثر من قرن. جئت لآخذك معي فأنا أعرف باب العبور نحو النور جيداً وأعرف كيف أخرج من الطوق القاتل بسحره وأريجه. سألته، وكيف ستفعل يا سيدي وأنت لا تملك عوامة ثم أن هذا النور يخيفني يا سيدي الأعظم. قال مرة أخرى وهو يضع أصابعه على فمي: ششششتت... النور نعمة. ثم أخذني من يدي. شد علي جيداً وبدأ يمشي على الماء كمن يمشي على اليابسة، وسط الضباب والأنوار التي عمتني ولم أعد أرى شيئا. شعرت بالخوف: أنا خائف يا سيدي. الغشاوة أعمتني. ولكنه طمأنني بأننا بدأنا نقطع باب العبور نحو اللامكان. ثم فجأة سمعت عواء مخيفاً آتيا من هضبات الزبداني الخالية، فقلت: يا سيدي الأعظم، الذئاب. أخشى يا مولاي أن يكون اللامكان كذلك مليئا بالذئاب؟ نظر إلى وجهي بملامح غريبة تحولت فجأة لتصير كالحة ومكفهرة. شعرت بالظلام يملأ عينيه، ثم سحب يده من كفي وتركني أغرق وهو يتشفى فيَّ: الآن عم بحرك. جئتُ لأفك وثاقك وأنقذك ولكن خوفك حرك حتى الذئاب التي ماتت منذ قرون. اذهب فأنت الطليق وعم بحرك. فقلت: لا أعرف العوم. قال: إذن أغلق عينيك وفمك وسد أذنيك وأترك نفسك تتهاوى نحو القاع، فهناك من ينتظرك لتصير طعما له. زاد خوفي. عرفت أن سيدي كان يدعوني نحو المقاومة وعدم الاستسلام أمام المصاعب، فحاولت ولكن قواي الداخلية وقناعاتي كانت ضعيفة جداً ومهتزة. وعندما سدت المياه فمي، استيقظت فجأة وأنا أرتعش طالبا العذر من سيدي الأعظم.

أرأيتِ يا سيلفيا؟ سهام ماتت في الوقت الذي كان ينتظر الأصدقاء مناقشتها لموضوع العمر التي قضت فيه زهرة شبابها ولم يسمع أحد في هذا القفر أنينها غيري. أبوك أقسم أن لا تلمس جسدك يد مسلم وهو لا يعرف أن لا سلطان على الجسد أبداً. أصدقائي ذهبوا أو يستعدون للعودة إلى أرضهم الأولى. حتى

سيدي الأعظم تخلى عني؟ لم يبق لي أحد. لا ذنب لك ولا ذنب لي أيضا في كل ما حصل ويحصل لنا، كلانا ضحية كيانات مفلسة. أبوك رفض سعادتنا ووالدي رماني في برية كأي حيوان ثم ضاع في قفر الربع الخالي. اليوم وأنا في كامل قواي العقلية، صممت أن أخطو الخطوة الكبرى التي تترتب عنها كسورات كثيرة ولكنها منقذة للروح. أريد اليوم أن أحررك مني لتتمكني من رؤية الدنيا بوضوح أكثر. بدءاً من هذه اللحظة قررت أن أتوقف عن كتابة هذه المذكرات القلقة وأن أذهب إلى أبعد نقطة ممكنة في الكون. تعبت من اللاجدوى ولم يبق لي ما أقوله لحياة قلقة لم تعد تأبه بي كثيرا ولاتسمعني جيداً ولا تتذكرني إلا بمزيد من الأمراض والمآسي. شكرا لحبك، فقد كان فيه الكثير من نبلك».

من أوراق عيد عشاب

بعد مدة قصيرة وجد عيد عشاب ميتا وبجانبه أربع قناني عرق فارغة وقنينة نبيذ جزائري والكثير من قناني البراندي وقارورة أقراص بيضاء نزعت منها كل الإشارات الطبية التي تحيل إلى نوعية الدواء والمؤسسة التي أنتجته. لم يسر وراء نعشه يومها إلا أصدقاء قليلون. حتى السفارة التي أُعلمت بخبر الوفاة في الليلة نفسها، ردت بعد أسبوع أنه غير مسجل لديها ضمن قوائم الجالية وبالتالي فهي غير معنية به. كان وقتها عيد قد دفن وشبع موتا.

سفاراتنا في الخارج تكرم دائماً موتاها بنفس الطريقة التي يكرم بها شخص وجد على حافة الطريق، بدون أوراق ولا هوية.

عاش وحيدا ومات وحيدا مثل سيده الأكبر الشيخ محي الدين بن عربي، الذي أحبه بشكل مبهم فيه رغبة الاكتشاف والخوف من شيء غامض لم يدركه أبدا.

عندما يرحل الذين نحبهم، يأخذون معهم كل أشيائهم الصغيرة إلا ابتساماتهم وأسئلتهم فهي تبقى معنا. ماذا بقي من رماد الأيام؟

لا شيء سوى وجهين يملأهما النور والأشواق والحنين إلى دنيا لم تكن دائماً سهلة.

كان قلبي ممتلئا. فضلت فقط أن أحتفظ بالصورة القديمة لامرأة كانت تلعب بضفائرها لحظة الفرح وتأكل أظافرها عندما تكون قلقة وتفكر في شيء لا تريد أن تقاسمه مع أحد. تضحك دائماً وتقول النكت الأكثر سخرية. وأن أثبت في "الذاكرة ابتسامة سارة وهي تسند رأسها الصغيرة على صدر مريم بعد أن شبعت حليبا وعطفا وحنانا وحبا.

الموت أقل ألما من الأمراض لكن وجهه غير مرئي. وكل ما ليس مرئيا يحفر في الخفاء.

الشمس القوية جعلت المقبرة في ذلك اليوم أكثر دفئاً. لم تكن باردة، فقد تحسست التربة بيدي. فرحت لمريم. البرودة تزيد من عزلة الحي فما بالك بالنسبة للميت؟

لست أدري ما الذي قادني في ذلك اليوم... قبل عشرين سنة، إلى هناك... الباب المؤدي إلى *«طوق الياسمين»* حيث كل شيء على حاله الأول، لم يتغير أبدا.

عندما صرت قريبا من النهر، تأملت المدينة من أعلى قمة فشعرت بتضاؤلها وصغرها اللامتناهي وسمعت فجأة آذانا كان يعلن في الغياب عن خواء يشبه الموت في كل تفاصيله. وسمعت ذئبا يعوي ألما وليس جوعا. انحدرت بعدها نحو مصبات بردى. عبرت *«طوق الياسمين»* بمشقة، المدخل الوحيد للنهر، المغطى بالقصب والديس والدفلى والبانبو والنباتات العملاقة التي تذكر بالمناطق الاستوائية. في تلك اللحظة بالذات تذكرت خاتمة مذكرات عيد عشاب. لم يكتب بالسبعين صفحة الأخيرة شيئاً سوى عنوان: *باب «طوق الياسمين»*. صفرة الأوراق توحي بأن شيئاً خُطَّ وتلف مع الزمن، لأن لون الأوراق التالية للسبعين صفحة، بيضاء وصافية. ربما كان الباب الوحيد الذي لم يستطع فتحه. كان دائماً يقول على لسان معلمه

وسيده الأعظم: *إنه أصعب الأبواب وأكثرها انسدادا. الباب الذي يأتي بعده النور الذي يغشي الأبصار وقد ذُكر ذلك في القرآن الكريم والله أعلم.*

بعدها وجدت نفسي في مواجهة منبع النهر الأكبر الذي كان غارقا في الضوء وانكسارات أشعة الشمس الفضية. شعرت بألم في عيني من جراء انعكاسها على وجهي. في ثانية واحدة لم أر شيئا. كان النور طاغيا على كل شيء. وضعت إكليل الغار والنرجس في نبع النهر وتخيلتك أنت وسارة على العوامة التي كنا نشق بها النهر أيام الفرح، مسندة رأسك على ذراعي الأيمن، ليس بعيدا عن القلب الذي كان خفقانه هذه المرة يتضاءل ويزداد خفوتا ربما كان ذلك بسبب التعب فقط أو... ربما... لأن الموت كان قد بدأ يدق على بابي أنا أيضا.

15

ـ وينك؟ لا تضيّع. خليك معانا. أنا هون بجنبك، ما شايفني؟ تماما بالقرب منك. شو؟ حرام عليك. هيك بتهرب وبتتركني لحالي؟ بعد شوي بيمر علي جورج وأتركك لحالك هون بالمقبرة.

كانت كلمات سيلفيا كالماء. فتحت عيني. كان الضباب قد اكتسح المكان كليا وأصبحنا نعوم فيه، نحن والمقبرة والنباتات الموحشة، مثل الأشباح.

رفعت سيلفيا القبعة قليلاً والشاش الأسود ورأسها ونظرت إلي. لم أكن هنا. ولكني رأيت في عينيها الخضراوين نورا لم يمت مثل الذي تعود عيد عشاب أن يحكي لي عنه أيام سعادته، قبل عشرين سنة. ثم نزعتِ القفاز الأسود ودفنتْ يدها في كفي. كانت دافئة مثل وجهها الذي لم يتغير كثيرا.

ـ اعذرني. الأموات يأخذون كل وقتنا. لم أسألك عن أحوالك؟ كيف أنت في أرضك؟ أبناؤك. عملك؟ أنا أنجبت اثنين مارسيل وأنطون وننتظر مولودا ثالثا، ربما كان بنتا. زوجي يريد ذلك. عرفنا من الطبيب أنه بنت. أقول لنفسي، بلْكِ استطعت إرضاءه على الأقل من هذه الناحية وأقلل من تأنيب الضمير. سأسميها سارة. تعرف سخافة الأقدار، كان يمكن أن يكون عيد بيننا الآن وهو يلعب مع أبنائه ولا يعدو أن يكون كل ما حصل له، مجرد كابوس ولكن...

ـ سارة؟...

هي ذي تعود ثانية، على ظهرها حقيبتها المثقلة بالكراريس والكتب التي تقرأها والتي لا تقرأها، تركض بسرعة لكي تصل إلى الدار وتخرج دماها الصغيرة...

تحسست السلسلة الذهبية التي في جيبي مرة أخرى. ستكون سارة سعيدة عندما تعرف أن الموت الذي أعماني يومها فتح اليوم ذاكرتي على الحياة. تحسستها. بان لي معصما سارة أبيضين وممتلئين متدفقين بالنور.

ـ سارة...

ـ متأكدة أني بهذا الاسم سأسعد مريم وأسعدك أيضا ما دمتَ لم تتزوج ولم تنجب سارة.

ـ المشكلة أن الحب كما قلتِ يمكن أن يتحول إلى مرض. أنا أعيشه هكذا وأحتاج ربما إلى عمر آخر للشفاء من مريم ومن سارة. لم أتزوج لأني لم أستطع ولأني ربما لم أجد من يضغط علي لفعل ذلك مثلما حدث معك. أفتقد كثيرا مريم وسارة. وكان يمكن أن يكونا هنا لو عرفت كيف أحبهما. ولكني حتى في هذه أخفقت.

ـ لا تؤنب نفسك. العمر هكذا.

ـ ربما كان مثلما تقولين ولكن الأزمة كبيرة.

ـ مجموعة من الحماقات ولكن كذلك مجموعة من اللحظات الجميلة التي نتذكرها بمزيد من العشق والحنين وبعض الصبر.

عندما أغلق الحارس باب المقبرة وراءنا ووضعنا في عمق كفه مائتي ليرة، كان جورج ينتظر عند مدخل الحديقة بسيارته. اقترح علي أن ينزلني إلى وسط المدينة ولكني اعتذرت. لم تكن لدي رغبة لركوب سيارة. كنت فقط أريد أن أمشي بدون توقف.

ـ تسلم لي يا جورج. راجع بكرى صباحا عالبلد وكل أغراضي بالأوتيل. ما عليهش. مرة تانية إن شاء الله.

- إن شاء الله.

هز رأسه. بحساسيته المرهفة، كان جورج يعرف رغبتي في البقاء وحدي قليلا ولهذا لم يصر كثيرا.

قالت سيلفيا بعد أن عدلت ظهر الكرسي:

- ما راح أصر عليك مشان تجينا. أنت مو ضيف على البلد. البيت بيتك. شكرا لك أنك منحتني قدرا من الراحة لم أشعر به طوال العشرين سنة الماضية. ربما كان وجودك أو ربما...

ثم التفتت نحو الضباب. هذه المرة لم تقاوم لمعان الدمعات التي ارتسمت في عمق عينيها.

أخذتُ كفها المرتعش، كان مثل العصفور المبلل، فتحته عن آخره. وضعتُ داخله السلسلة الذهبية التي تركتْها لي مريم منذ عشرين سنة. كنت أريد أن أدفنها في القبر لأني يومها نسيت أن أضعها في معصم سارة. الموت وقتها لم يعطني مهلة للتفكير. القسوة والجرح كانا فوق طاقتي. لكن سيلفيا التي جاءتني إلى المقبرة، غيرت كل عزمي.

- شو؟

تساءلت سيلفيا بحيرة.

- لا شيء. تتذكرين السلسلة التي أنقذتها أم مريم من أنياب عيشة الدلالة؟ ضعيها في معصم سارة عندما تأتي إلى الدنيا. قولي لها من صديقة كان لها نفس اسمك. ألم يكن هذا حلمَ مريم؟

لم تقل شيئاً ولكنها ضغطت على السلسة وعلى يدي وعلى عينيها وأكثر على قلبها المرهف لكي يقاوم باستماتة.

- سيلفيا انتبهي لحالك وعينك على سارة وعلى مذكرات عيد. أمانة في رقبتك. لقد منحتك ثقلاً آخر لأني أشعر أن مكانها الطبيعي عندك. فقد كتبت في معظمها لك.

- في عيني وروحي. معك التليفون. وحياتك كلمني إذا ما رحت. أشعر كأني لم أقل لك ما كان يجب أن أقوله.

- وأنا كذلك. مع السلامة.

لم أكن أكذب ولم أكن أقول الحقيقة. كانت رغبتي كبيرة للمشي وحيدا داخل هذه الحديقة التي تنفتح على المقبرة.

كان المكان خاليا ربما لأن يوم الجمعة ارتبط في ذهني بالموت والفقدان. لم أشعر بالبرودة ولكني شعرت برغبة للعودة إلى المقبرة وكتابة وصيتي. كان برأسي شيء واحد: أن أعبر المدينة طولاً وعرضاً وأحرثها حتى الصباح. اليومان السابقان لم يكونا كافيين لأن أشبع من كل الأماكن التي لم أرها. أن أمشي حتى الصباح وبعدها أنزل نحو المطار. منذ يومين لم أتوقف عن المشي أبدا. دخلت *فيلا الإطفائية* التي كان يؤجرها طبيب أسنان متخرج من باريس. تغيرت كثيرا وصارت أكثر أناقة وسعر أجارها زاد عشر مرات. رحت للمصبات من الجهة العادية ووضعت الإكليل في وسط الماء. خفت أن أدخل «*طوق الياسمين*» من جهة الخلجان الاستوائية فأجد نفسي مكبلا ومطوقا وطعما سائغا للحياة العملاقة التي تروى عنها قصص كثيرة. كنت على يقين أني لو فعلت ذلك لأصبت بالإغفاءة التي تقود نحو الموت وبالغشاوة التي لن تمنحني هذه المرة إلا الظلمة الأبدية. خفت من وحشة المكان التي كنت عاجزا عن مواجهتها لوحدي. اشتهيت أن أستحم بحي *سوق ساروجا* لكن الحمام كان قد انسحب تاركا مكانه لسوق استهلاكية كبيرة ومحلات لبيع المجسمات السياحية والعطور الفرنسية. ذهبت إلى الجامعة واقتفيت رائحة عطر مريم ووقفت طويلا على أرصفة كراجات بيروت ومحطة البرامكة. وظل شيء ما فيَّ عالقا، كان يجب أن أراه ولم أره. لم أعرفه أبدا. ربما كان «*طوق الياسمين*»... ربما...

عندما رفعت رأسي بالصدفة رأيت ممرا صغيرا، قرأت على

الصفيحة المعدنية القديمة المسمرة على الحائط: «*درب الياسمين*». هل هي الصدفة؟ لم أسأل كثيرا. دخلته. كانت سيارة جورج قد اندفنت في عمق الضباب ولم أعد أرى وأسمع سوى أضواء السيارات المشتعلة في وضح النهار وهي تعبر الممر الضيق وهدير مصبات بردى وهي تتساقط عند مدخل النبع الذي كانت تسده النباتات الاستوائية الكثيفة.

كان «*درب الياسمين*» طويلا ولا يشبه الدروب العادية. كلما سلكته، ازداد تعقدا وتعرجا وكلما تقدمت أكثر، ازداد النور كثافة ولمعانا وحدة على العيون بسبب قوة بياض الضباب وكثافته وأشعة الشمس التي خرجت فجأة من الظلمة وانكسرت أشعتها بعنف على سطح الماء. شيئاً فشيئا توقفت حركة السيارات والبشر الذين كانوا يمرون مثل الظلال الهاربة ولم أعد أسمع شيئاً إلا هبات الريح التي كانت توقظ الأشجار من غفوتها وزخات المطر التي زادت قوتها في داخلي مصحوبة بمقاومتي المستميتة للطفل الذي رأيته أول مرة على حوافي «*طوق الياسمين*» وهو يكسر نشيدي كالمجنون، بعد أن مات البُراق الذي كان يركبه، ولم أكن أدري لماذا تعدى علي بذلك الشكل السافر مع أن المتسبب في قتل البراق كان هو سيدنا نوح وليس أنا؟ وأحاول جاهدا أن أستعيد كلماتي الأولى التي بقيت عالقة في حلقي منذ أن شهق والدي صبيحة استقلال البلد وأعراسها، زفرته الأخيرة وهو يقاوم ردم مناجم الشمال التي كانت تتهاوى عليه بكثافة وتسد كل منافذ التنفس أمامه وأمام من كان معه، حيث لا شيء سوى الظلمة والقسوة التي أبانت له وطنا كان يتضاءل بشكل مجنون مع آخر حرائق الخيبة واليأس والظلمة.

يصعد نشيدي المستعاد الذي كنت مصمما على إنهائه مهما كلفني الأمر. لم أكن هذه المرة مستعدا لإيقافه في منتصفه كما فعلت في المرات الماضية:

يا النو صبّي، صبّي،
ما تصبّيش عليَّ،
حتى يجي خويا حمو،
ويغطيني بالزربية.
يا النوّ... يا النوّ... يا النوّ صبّي... صبّي...

دمشق، الجزائر، باريس
خريف 1981 ـ شتاء 2001



«مريم ... بقايا الأبجدية المستحيلة، هل تدرين؟
بعد عشرين سنة لم أفعل شيئاً مهماً سوى البحث عنك.
أعود إلى هذه المقبرة التي صارت اليوم وسط المدينة بعد امتداد العمران بشكل جنوني إليها، أقف على هذه الشاهدة الصغيرة التي كتب عليها كما اشتهيتِ في وصيتك.
ضيقة هي الدنيا. ضيقة مراكبنا، للبحر وحده سنقول، كم كنا غرباء في أعراس المدينة. تمنيت أن أعيش طويلاً لأحبك أكثر ولكن الأقدار منحتني فرصة الشهادة قبلك لتكون أنت المطالب بحبي وتحمل غيابي».

طوق الياسمين

واسيني الأعرج. مواليد 1954، بتلمسان. جامعي وروائي. يشغل اليوم منصب أستاذ كرسي بجامعتي الجزائر المركزية والسوربون بباريس. ويعتبر أحد أهم الأصوات الروائية في الوطن العربي.

على خلاف الجيل التأسيسي الذي سبقه، تنتمي أعمال واسيني، الذي يكتب باللغتين العربية والفرنسية، إلى المدرسة الجديدة التي لاتستقر على شكل واحد بل تبحث دائماً عن سبلها التعبيرية بالعمل الجاد على اللغة وهز يقينياتها. فاللغة ليست معطى جاهزاً ولكنها بحث دائم ومستمر.

* في العام 1997 اختيرت روايته حارسة الظلال (دون كيشوت في الجزائر) ضمن أفضل خمس روايات جزائرية صدرت بفرنسا.
* تحصل في العام 2001 على جائزة الرواية الجزائرية.
* اختير في العام 2005 كواحد من ستة روائيين عالميين لكتابة التاريخ العربي الحديث، في إطار جائزة قطر العالمية للرواية.
* تُرجمت أعماله إلى العديد من اللغات الأجنبية من بينها: الفرنسية، الألمانية، الإيطالية، السويدية، الإنجليزية والإسبانية.